

تأليف

فريد مناع

راجعه

هشام مصطفى عبد العزيز

الطبعة الثانية: ١٤٢٨/٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: (١٤٣٥٨/٢٠٠٧م)

فهرسة أثناء النشر

مناع، فريد.

هزة الإيمان/ فريد مناع، راجعه: هشام مصطفى عبد العزيز -ط٢- الاسكندرية: دار الهدى للنشر والتوزيع، (٢٠٠٧) - (٣٥٠)ص، ١٧*٢٤ سم، ردمك: (٨-٨٠٠-٦٢٣-٩٧٧-٩٧٨).

١- الإيمان (فقه إسلامي)، (٢٤٣).

أ- عبد العزيز، هشام مصطفى (مراجع).

ب- العنوان.



٢٦شارع ٣١٤ تقسيم القضاة سموحة

الاسكندرية

www.dar-alhoda.com

ت: ٠١٠٣٤٥٦٨٥٢

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[الحديد: ١٦-١٧]

اركب معنا

كان يعيش كغيره من الشباب، يدور في دوامة الحياة، يحلم بدخل جيد، وزوجة حسناء، ومسكن مريح، ووظيفة مرموقة، همومه أرضية، أحلامه دنيوية، وطموحاته وأحلامه لا تدور إلا في فلك أهوائه وشهواته.

ويشاء الله تعالى أن يتعرض لحادثة وضعت حياته على مفترق طرق، فبينما هو مستقل سيارته متجهًا إلى عاصمة بلاده، وعند أحد الجسور الموصلة إلى إحدى القرى فوجئ ببقرة تجري، ويجري وراءها صبي صغير؛ فارتبك، واختلت عجلة القيادة في يديه، ولم يشعر إلا وهو في أعماق الماء، ورفع رأسه إلى أعلى علَّه يجد متنفسًا، ولكن الماء كان يغمر السيارة بكاملها، مد يديه ليفتح الباب فلم ينفتح؛ هنا تأكد أنه هالك لا محالة.

وفي لحظات خاطفة، مرت أمام ذهنه صور سريعة متلاحقة، هي صور حياته الحافلة بكل أنواع العبث والمجون، وتمثَّل له الماضي شبحًا مخيفًا، وأحاطت به ظلمات كثيفة، وأحس بأنه يهوي إلى أغوار سحيقة مظلمة، فانتابه فزع شديد، وصرخ في صوت مكتوم: يا رب يا رب، ودار حول نفسه مادًّا ذارعيه، يطلب النجاة لا من الموت الذي أصبح محققًا؛ بل من خطاياه التي حاصرته، وضيَّقت عليه الخناق.

أحس بقلبه يخفق بشدة؛ فانتفض، وبدأ يزيح من حوله تلك الأشباح المخيفة، ويستغفر ربه قبل أن يلقاه، وأحس كأن ما حوله يضغط عليه؛ كأنما استحالت المياه إلى جدران من الحديد؛ فقال في نفسه: إنها النهاية لا محالة ... فنطق بالشهادتين، وبدأ يستعد للموت، وحرك يديه؛ فإذا بها تنفذ في فراغ، فراغ يمتد إلى خارج السيارة، وفي الحال تذكر أن زجاج السيارة الأمامي مكسور، شاء الله أن ينكسر في حادث منذ أيام ثلاثة، وقفز دون تفكير، ودفع بنفسه من خلال هذا الفراغ؛ فإذا الأضواء تغمره، وإذا به خارج السيارة.

نظر؛ فإذا جمع من الناس يقفون على الشاطئ، كانوا يتصايحون بأصوات لم يتبيَّنها، ولما رأوه خارج السيارة؛ نزل اثنان منهم، وصعدا به إلى الشاطئ، وقف ذاهلًا عما حوله، غير مصدق أنه نجا من الموت، وأنه الآن بين الأحياء، كان ينظر إلى السيارة وهي غارقة في الماء؛ فيتخيل نفسه يختنق داخلها ويموت، وهنا دقَّ في نفسه ناقوس الخطر، وتردَّد في خاطره ذلك السؤال الخطير: تُرى لو مات الآن، فكيف سيلقى الله؟

أيلقاه بتلك الاهتمامات السرابية، التي لا تعدو جريًا وراء فتاة حسناء، أو سعيًا لشهرة بين أقرانه، أو تمضية لساعات العمر في لهو وعبث ولهاث خلف الشهوات؟ أيلقاه بتهاون في طاعته وتفريط في جنبه سبحانه؟ وهنا كان عليه أن يتخذ ذلك القرار المصيري، فأي سبيل يسلك؟ وأي طريق يختار؟(١).

إلى من لاح له الصباح

ذلكم هو نبأ أخي، الذي كان تائهًا في غياهب الغفلة عن مصيره ومستقره، قد ألهته شهواته وملذاته عن الاستعداد للقاء الله، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وبينما هو سائر في درب الغفلة؛ إذ برحمة الله تدركه، وتُقيِّض له يدًا حانية قوية، تَرُجُّ كيانه رجة العزم، وتَهُزُّ قلبه هزة الإيمان، تبثُّه نداء نوح عليه السلام لابنه، يوم أن دعاه للنجاة مع ركب المؤمنين في سفينة الإيمان: ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢].

تريده أن يستيقظ من بعد سبات، ويدرك ذاته من بعد شتات، ويعرف أنه لم يخلق عبثًا، ولم يترك هملًا وسدى، بل هو صاحب منهج متميز، شعاره: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ورسالة سامية يعيش من أجلها، عنوانها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ورؤية واضحة، معالمها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إنه أخي الذي أراد الله تعالى له الهداية والتوفيق، ولاح له نور الإيمان باديًا، يدعوه إلى أن يغسل فيه قلبه؛ ليخرج بعدها متطهرًا من أدناس الماضي، ومتحررًا من قيود الشهوات، لكن صاحبي ما زال حائرًا، مترددًا بين الداعيين: بين داعي الإيمان الذي بدأ يتذوق حلاوته، ويعيش لذته، وبين داعي الهوى الذي ما زال لسلطانه بقية على قلبه.

إنَّ قلب أخي (قلب له حياة وبه علة؛ فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما؛ ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ... ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها ... ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتَحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى الدار العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا)(٢).

---

(١) أصل القصة نشرت في مجلة الأمة القطرية، العدد (٧٠)، بقلم حسين عويس مطر، في مقالة بعنوان: التوبة، بتصرف واختصار من المؤلف.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ص(٤).

فإلى هذا الحبيب أتوجه بهذه الكلمات، بل بهذه النبضات، التي أرجو أن تكون قد خرجت من قلبي لتلامس شغاف قلبه، علَّها تنير له الطريق، أو تبصِّره بالدرب؛ فيخرج من تردده وحيرته، بعد أن لاح له صباح الإيمان من قلب ظلام الحرمان؛ فوقف على عتبة باب الهداية، يقدم رجلًا ويؤخر أخرى، يحتدم بين جنبات نفسه ذلك الصراع الرهيب؛ بين داعي الهوى وداعي الإيمان، تُرى أيهما يجيب؟

أيجيب داعي الهداية، الذي نصبه الله في طريقه رحمة به ورأفة منه سبحانه؟! أيستقبل تلك الحياة النظيفة الطاهرة مع هؤلاء الأخيار، الذين ما رأى منهم إلا كل حب واهتمام ورعاية، لا لشيء إلا لأنهم يحبون ربهم تبارك وتعالى، ويحبون لكل الناس أن يحبوا ربهم كما أحبوه، وأن ينعموا بقربه كما نعموا؟!

تُرى هل يستطيع ذلك؟ أم أن جواذب الماضي بكل ما فيه من بُعد وانحراف ورفقة سوء، قد تجذَّرت في حياته؛ فلا يستطيع من أسرها فكاكًا؟!

الطريق إلى الله، لماذا؟

واسمح لي الآن ـ أخي ـ أن أفتح قلبي بين يديك، و أمد يد العون إليك بدافع من الحب في الله، الذي أحمله لك في قلبي، لعله أن تزول عنك تلك الحيرة وذلك التردد الذي يعتريك وأنت على عتبة طريق الهداية.

فتعال لأصحبك في جولة إيمانية، أخاطب فيها عقلك الفطن، وقلبك المؤمن؛ لتعلم مدى حاجتك إلى سلوك طريق الله، فأعرني قلبك وعقلك يا رعاك الله!

أولاً: لهذا خلقت.

أتدري أيها الحبيب، لم خلقنا الله؟ تُرى هل خلقنا لنلعب أو لنأكل أو لننكح؟! هل خلقنا ليعيش الواحد منا لنفسه وفرْجه وبطنه؟!

كلا أيها الموفق، اسمع معي كلام ربك، بآذان قلبك، وهو يخاطبنا محذرًا، فيقول سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

فما كان الله بجلاله وعظمته وحكمته ليخلق كل هذا الخلق سدىً وهملًا، بل خلقهم لغاية عظيمة، بيَّنها لهم جل وعلا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فلقد خلقنا لأمر عظيم، وخطب جلل، خلقنا لعبادته ﷻ وتوحيده، خلقنا لحمل أمانة التكليف، التي عرضت على السماوات والأرض والجبال؛ فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان فكان ظلومًا جهولًا إذ ضيعها، وما رعاها حق رعايتها.

تلك الأمانة التي جعلت رسول الله ﷺ يقول لصحبه الكرام: ((**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء، وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجدًا، والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**))[1].

أما والله لو علم الأنام ... لِمَا خُلقوا لَمَا هجعوا وناموا

ممات ثم حشر ثم نشر ... وتوبيخ وأهوال عظام

ليوم الحشر قد عملت أناس ... فصلُّوا من مخافته وصاموا

ونحن إذا أُمرنا أو نُهينا ... كأهل الكهف أيقاظ نيام

سل نفسك أيها الحبيب، هل أنت عبد لله حقًّا؟ هل أدَّيت حق الله تعالى عليك؟! يبيِّن لك النبي ﷺ عِظَم هذا الحق فيقول: ((**لو أن رجلًا يُجَرُّ على وجهه، من يوم ولد إلى يوم يموت هَرَمًا في مرضاة الله ﷻ؛ لحقره يوم القيامة**))[2]، وذلك لما يرى من عِظَم حق الله تعالى عليه، وفضله الذي لا يحصيه العد، ولا يحصره الحد.

أتذكر يا أخيه، يوم أن لم تك شيئًا مذكورًا ثم كنت، خرجت من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وخُلقتَ في أحسن تقويم وأفضل صورة، ثم تولَّاك ربك في كل مراحل عمرك، يَغذوك بنعمه، ويربِّيك بإحسانه.

سخَّر لك الكون بأسره؛ فالأرض لك فراش ومهاد، والسماء لك سقف وغطاء، والشمس لك دفء وضياء، والمياه تنزل من السماء لتكون لك سقاء ورواء، وأعظم من كل ذلك أن خلقك مسلمًا موحدًا، فجعلك من خير أمة أخرجت للناس، ونجاك من ظلمات الشرك والكفر وأنت بعدُ جنين في بطن أمك، ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات: ١٧].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، (٢٢٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٣١٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده، (١٦٩٩١)، والطبراني في المعجم الكبير، (١٣٧٥٠)، واللفظ لأحمد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٤٤٦).

فهل بعد هذه النعم الغزيرة يليق بمؤمن أن يعرض عن طريق الله، وأن يتردد في سلوك طريق الهداية، فيقابل إحسان ربه بالإساءة والإعراض، فسبحانه ما ألطفه وأحلمه من إله كريم حليم، يخلق ويُعبد غيره، يرزق ويُشكر سواه، خيره إلينا نازل، وشرنا إليه صاعد، يتودد إلينا بالنعم وهو الغني عنا، ونتبغض إليه بالمعاصي ونحن أفقر ما نكون إليه، يحب أهل طاعته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته، إن تابوا إليه فهو حبيبهم، وإن أعرضوا عنه فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب، ومن أتاه منهم تائبًا تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب، يقول له: أين تذهب؟! ألك رب سواي؟! الحسنة عنده بعشر أمثالها ويزيد، والسيئة عنده بمثلها ويعفو.

ولتعلم علم اليقين أيها الحبيب المبارك، أن حق الله تعالى عليك أعظم من أن توفيه، مهما بلغ إحسانك وخيرك، حتى إن النبي ﷺ يقول: ((**لن ينجي أحدًا منكم عمله**))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ **قال:** ((**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة...**))[(١)].

نعم أيها الحبيب، فحق الله تعالى أعظم من أن يوفيه نبي مرسل أو ملك مقرب، لولا أنه سبحانه ـ لعظيم كرمه وجوده ـ يرضى من عباده باليسير من العمل؛ فيزكيه بفضله، ويتقبله برحمته، لكنه مع ذلك جعل تلك الرحمة حِكرًا على المحسنين من عباده، الذين بذلوا طاقتهم، واستفرغوا وسعهم في تحقيق عبوديته، وطلب مرضاته، فقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولهذا؛ فإن رسول الله ﷺ الذي أخبرنا أنه لن يدخل أحدنا الجنة بعمله، إلا أن يتغمده الله برحمته، هو الذي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان، كما أنبأنا بذلك المغيرة بن شعبة ﷺ عندما قال: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: ((**أفلا أكون عبدًا شكورًا**))[(٢)]، هكذا كان حال أشرف عبد خلقه الله تعالى، بل وما نال ﷺ ذلك الشرف إلا بصدق عبوديته لله تعالى.

(فليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، فلو كان اسم أجلَّ من العبودية لسماه به)[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (٥٩٨٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾، (٤٤٥٩).

(٣) الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، ص(٢٠٠).

ثانيًا: هل تريد السعادة؟

أخي، هل تبحث عن السعادة؟ تلك الغاية الغالية التي يشترك الناس جميعًا في طلبها والسعي لتحقيقها؛ بجمع المال من حله وحرامه تارة، وبإهلاك الصحة والوقت في تناول الشهوات من الحلال أو الحرام تارة أخرى.

ودعني أسألك أيها الحبيب، كم سنة عشتها وأنت بعيد عن ربك؟ كم مرة نلت فيها ما اشتهته نفسك مما حرم الله تعالى؟ كم اقترفت من الزلات بحثًا عن السعادة؟ فهل ذقت حقًّا طعم السعادة الحقيقية؟

فمهما انتهب الإنسان من الشهوات واللذات، ومهما أُوتي من زينة الحياة الدنيا؛ فإنه لا يستطيع أن يحوز السعادة طالما كان معرضًا عن طريق الله تعالى؛ ذلك لأن (في القلب شعث لا يَلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يُسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه.

وفيه نيران حسرات لا يُطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها؛ لم تُسد تلك الفاقة منه أبدًا)[(١)].

وانظر ما كان من أحد الصالحين رحمه الله، عندما جرب سلوك الطريق إلى الله، ثم عاد لينبيك بخلاصة تجربته، في صورة رثاء لكل من فاتته سعادة القرب من ربه فقال: (مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها!! قالوا: ما أطيب ما فيها ؟! قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه !!)[(٢)].

فلا عيش إلا عيش من أحب الله وسكنت نفسه إليه، واطمأن قلبه به، واستأنس بقربه وتنعم بحبه، ومن لم يكن كذلك؛ فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات.

وأما تلك السعادة الخادعة، واللذة الوهمية، التي يشعر بها من وقع في شراك الشهوات؛ فإنها سرعان ما تتحول إلى شقاء وتعاسة، وضيق وضنك، كما توعد الله كل من عصاه، وأعرض عن طريقه، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٧].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٧٤٣)، بتصرف.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٢٨٤).

وأما السعادة الحقيقية؛ فلا والله، لا ينالها إلا من عرف الله تعالى، وسلك على طريقه، فهو سبحانه الذي يملك القلوب، وهو القادر أن يَسكُب السعادة في قلبك سكبًا، كما وعد سبحانه، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

من ذاق عرف.

واسمع معي أيها الحبيب، إلى كلمات[1] بعض من ضيعوا أعمارهم طلبًا للسعادة الوهمية في نيل شهوات النفس الأمارة، ومبارزة لمولاهم بالقبائح والزلات، فتاهوا في دروب الشقاء والتعاسة، إلى أن أشرق نور الهداية في قلوبهم، فعرفوا طعم السعادة الحقيقية، فانبرت كلماتهم النورانية، تصف لك التجربة، وتدلك على الطريق، ولا ينبئك مثل خبير:

(١) كنت أبكي ندمًا على ما فاتني من حب الله ورسوله... وعلى تلك الأيام التي قضيتها بعيدة عن الله ﷻ. [امرأة مغربية أصابها السرطان وشفاها الله منه].

(٢) نعم لقد كنت ميتًا فأحياني الله ولله الفضل والمنة. [الشيخ أحمد القطان].

(٣) وعزمت على التوبة النصوح والاستقامة على دين الله، وأن أكون داعية خير بعد أن كنت داعية شر وفساد، وفي ختام حديثي أوجهها نصيحة صادقة لجميع الشباب فأقول: يا شباب الإسلام لن تجدوا السعادة في السفر ولا في المخدرات والتفحيط، لن تجدوها أو تشموا رائحتها إلا في الالتزام والاستقامة، في خدمة دين الله، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ماذا قدمتم يا أحبة للإسلام؟ أين آثاركم؟ أهذه رسالتكم؟

شباب الجيل للإسلام عودوا ... فأنتم روحه وبه يسود
وأنتم سر نهضته قديمًا ... وأنتم فجره الزاهي الجديد

[من شباب التفحيط سابقًا]

(٤) كما أتوجه إلى كل أخت غافلة عن ذكر الله، منغمسة في ملذات الدنيا وشهواتها، أن عودي إلى الله أخيَّة، فوالله إن السعادة كل السعادة في طاعة الله. [طالبة تائبة].

(٥) وختامًا؛ أقول لكل فتاة متبرجة: أنسيت أم جهلت أن الله مطلع عليك؟! أنسيت أم جهلت أم تجاهلت أن جمال المرأة الحقيقي في حجابها وحيائها وسترها؟! [فتاة تائبة].

(٦) كما أصبحت بعد الالتزام أشعر بسعادة تغمر قلبي، فأقول: إنه يستحيل أن يكون

---

(١) العائدون إلى الله، محمد المسند، نقلًا عن كيف أتوب؟! محمد حسين يعقوب، ص(١٨-١٩).

هناك إنسان أقل مني التزامًا أن يكون أسعد مني، ولو كانت الدنيا كلها بين عينيه، ولو كان من أغنى الناس، فأكثر ما ساعدني على الثبات بعد توفيق الله هو إلقائي للدروس في المصلى، بالإضافة إلى قراءتي عن الجنة بأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من اللباس والزينة والأسواق والزيارات بين الناس، وهذه من أحب الأشياء إلى قلبي، فكنت كلما أردت أن أشتري شيئًا من الملابس التي تزيد على حاجتي أقول: ألبسها في الآخرة أفضل. [فتاة انتقلت من عالم الأزياء إلى حياة الهداية].

(٧) وانتهيت إلى يقين جازم حاسم، أنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، إلا بالرجوع إلى الله،واليوم أتساءل كيف كنت سأقابل ربي لو لم يهدني؟! [طالبة تائبة].

(٨) بدأ عقلي يفكر وقلبي ينبض، وكل جوارحي تناديني: اقتل الشيطان والهوى، وبدأت حياتي تتغير وهيئتي تتبدل، وبدأت أسير على طريق الخير، وأسأل الله أن يحسن ختامي وختامكم أجمعين. [شاب تاب بعد سماعه قراءة الشيخ علي جابر ودعائه].

ثالثًا: نجاح بلا حدود[1].

وربما تطرَّق إلى ذهنك أيها الحبيب، حين دعوتك إلى سلوك طريق الله تعالى، أن هذا يتطلب منك إعراضًا عن الدنيا، وتفرغًا للذكر والصلاة وتلاوة القرآن، قد تقول أنت متسائلًا: أليس هو القائل سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

أليس قد خلقنا لعبادته تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فما لنا إذًا والنجاح في الحياة؟! ما لنا إذًا وإنفاق الوقت والجهد في حيازة الدنيا، وامتلاك مقومات الريادة والتفوق؟

أقول لك أيها الموفَّق، إن كثيرًا من المسلمين لا يفقهون معنى العبادة بمفهومها الكامل الشامل الذي أراده الله تعالى؛ حيث فَهموا معناها فَهمًا قاصرًا خاطئًا، ظنُّوا معه أننا مطالبون بالعكوف في المساجد، وترك الدنيا من أجل التفرغ لعبادة الله، التي قصروا معناها الواسع الشامل على بعض الشعائر التعبدية؛ من صوم، وصلاة، وزكاة، وحج، وغير ذلك.

ومن ثَمَّ؛ انقسم المسلمون تَبعًا لذلك الفهم الخاطئ إلى فريقين، يجمع بينهما وقوع في وهم التعارض بين الدنيا والآخرة.

(١) مستفاد من «صناعة الهدف» و«العملاق الذي بداخلك»، فريق العمل بمكتب المستشار للدراسات الإنسانية والإدارية، بإشراف هشام مصطفى عبد العزيز.

فأما الفريق الأول، فقد اعتزل أصحابه الدنيا بكل ما فيها من متاع، يبغون بذلك تفرغًا للعبادة، وحملًا لِهَمِّ الآخرة، وتركوا أعداء الإسلام يحوزون في الدنيا قصب السبق، ويحتكرون أسباب القوة ومقومات الحضارة.

وأما الفريق الثاني ـ وهم أغلب الناس ـ فقد ألهتهم شهواتهم عن ذكر ربهم، وانشغلوا بأموالهم وأولادهم، وأعمالهم وطموحاتهم عن واجبات العبودية لله تعالى، والحق دائمًا وسط بين طرفين، فمن أين جاء ذلك التعارض المتوهم بين الدنيا والآخرة؟!!

إن العبادة الشاملة الكاملة هي كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: (هي كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة)[١]، فكل فعل في الحياة للإنسان ـ سواء كان شعيرة تعبدية أو عملًا مشروعًا ـ إذا ابتُغِيَ به مرضاة الله تعالى؛ فإنه عبادة يثاب عليها من ربه ﷻ.

بل إن عمارة الأرض، وصناعة الحياة، وامتلاك مقومات النهضة والتقدم الحضاري، هو فرض كفاية على أمة الإسلام، بل هو من أعظم أنواع القوة التي أمر الله تعالى عباده المؤمنين بتحصيلها؛ حتى تظل أمة الإسلام أمة قوية، مرهوبة الجانب من قِبَل أعداء الدين؛ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وهي كذلك مقتضى خلافة الإنسان لربه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فهي عبادة من أجلِّ القربات، شريطة أن تكون ابتغاء وجه الله تعالى، وانظر أيضًا في هذا الحديث العظيم، الذي يعقد النبي ﷺ فيه الصلة بين الدنيا والآخرة، فيقول: ((**إن قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها؛ فليغرسها**))[٢].

لقد كان من المتوقع والقيامة أوشكت أن تقوم، أن يأمرنا ﷺ بالتوبة والاستغفار، والإقبال على الآخرة، ونسيان الدنيا بما فيها، ولكنه ﷺ أمرنا بتعمير الأرض، بغرس الفسيلة، وأي فسيلة تلك التي يأمرنا بغرسها ﷺ؟

إنها فسيلة النخل التي لا تثمر إلا بعد سنين طويلة، وما ذاك إلا ليعلمنا ﷺ هذا الدرس العظيم، أن (طريق الآخرة هو طريق الدنيا، بلا اختلاف ولا افتراق، إنهما ليسا طريقين منفصلين؛ أحدهما

(١) رسالة العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، (٤٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، (٤٧٩).



للدنيا، والآخر للآخرة، وإنما هو طريق واحد، يشمل هذه وتلك، ويربط بين هذه وتلك.

ليس هناك طريق للآخرة اسمه العبادة وطريق للدنيا اسمه العمل، إنما هو طريق واحد، أوَّلُه في الدنيا، وآخره في الآخرة، وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة، ولا العبادة عن العمل، كلاهما شيء واحد في نظر الإسلام، وكلاهما يسير جنبًا إلى جنب، في هذا الطريق الواحد الذي لا طريق سواه)[1].

ومن هنا؛ فإننا نستطيع أن نفهم جيدًا كيف يمكننا أن نعيش في ظلال قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إذ ليس من المعقول أن يظل الإنسان ساعات عمره كلها يصلي ويصوم ويقرأ القرآن، بلا انقطاع في ليل أو نهار؛ حتى تكون حياته كلها لله، بل لم يكن هذا حال محمد ﷺ، الذي كان يصوم ويفطر، ويقوم وينام ويتزوج النساء، فلا بد إذًا أن يجمع المؤمن بين الدنيا والآخرة، ويجعلهما طريقًا واحدًا؛ حتى يستطيع أن يجعل حياته كلها لله تعالى.

فإذا أدركت ذلك المفهوم الشامل لمعنى العبادة؛ علمت كيف ضاعت أمتنا، وأصبحت في ذيل الأمم، عندما تمزقت بين هذين الفريقين، بين فريق أضاع الدنيا بحجة التفرغ للآخرة، وبين فريق فرط في الآخرة، وسعى لحيازة الدنيا، لا لتحقيق مرضاة الله، وإنما لتحصيل شهواته ولذاته.

وأما عمالقة الإيمان، السائرون في طريق الله، فهم أصحاب النجاح الحقيقي، الذين ابتغوا مرضات الله في كل أعمالهم، هم الذين لامس الإيمان شغاف قلوبهم؛ ففجَّر فيهم قدرات هائلة، وطاقات جبارة؛ فانطلقوا في الدنيا يعمرونها، ويحققون فيها أعلى طموحات النجاح الخالد؛ النجاح الذي يبدأ في الدنيا بطيب العيش، وسعادة الإنجاز، ولذة النجاح ابتغاء مرضات الله، وينتهي في الآخرة، في جنات عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين.

فهل أدركت الفرق أيها المؤمن؟

هل فهمت ذلك الفرق البعيد والبون الشاسع، بين أقزام الدنيا وبين عمالقة الدنيا والآخرة، إنه الفرق الذي بين الثرى والثريا، بين السماء والأرض، إن عاقبة النجاح الذي من ورائه الإيمان؛ أن يعيش صاحبه في جنة دائمة، يعيش في جنة الدنيا، في حياة طيبة سعيدة، وهو يحيا في كنف الله ورضوانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤]، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) قبسات من الرسول، محمد قطب، ص(١٩).

ثم يعيش في جنة المأوى خالدًا مخلدًا فيها، وتلك والله الجائزة الكبرى، وثمرة النجاح الحقيقي الدائم، إنها الدار التي أعدَّها الله تعالى لعباده المؤمنين، وغرس لهم كرامتهم بيديه، وأعد لهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فماذا تختار أيها المؤمن العاقل؟ نجاح حقيقي دائم، ينطلق من الدنيا ليمتد إلى الآخرة في جنة الخلد؟ أم نجاح مؤقت زائف، ينتهي إلى دار البوار أعاذنا الله وإياك منها؟

رابعًا: أنين الإسلام.

أخي، هل أتاك نبأ أنين الإسلام؟ أنصِت قليلًا بآذان قلبك؛ تسمعه في أنَّة أم ثكلى فقدت طفلها، وتراه في صرخة عذراء مسلمة انتُهِك عرضها، وتشعر به في بكاء طفل مسلم ذاق مرارة اليتم بعدما ذُبح والداه، تلمحه في كل قطعة تُنتقص من أطراف أرض الإسلام، في كل مسجد داهمه أعداء الدين بدبَّاباتهم ومجنزراتهم، في كل بقعة مسلمة طاهرة دنسوها برجسهم.

أخي، أما ترى الجياع الأكلة، وقد تكالبوا على قصعة الإسلام، يمزقون كل يوم قطعة من جسد أمتنا، يضمونها إلى حظيرة الكفر؟ أما تُحرِّك مشاعرك أراضينا التي اغتُصبت، وأعراضنا التي انتُهكت، وإخواننا الذين يسامون سوء العذاب، بيد أعداء الإسلام في فلسطين والعراق والهند، وكشمير وإندونيسيا، وبورما والفلبين، وغيرها من بقاع الأرض؟!

حتى أنك لو وضعت إصبعك على خارطة العالم بشكل عشوائي؛ لوقعت على خط أحمر ينزف بدماء المسلمين، فكيف يغمض لك جفن ودينك في كل مكان يهان؟ أم كيف تهنأ بشهواتك وملذاتك وعِرض الإسلام في كل بقعة يراق؟!

كيف تقعد ساكنًا وتصم أذنيك عن صوت الأقصى الأسير، الذي يستغيث بك ويستجير، بعد أن دنسه يهود؟ أتدري ماذا يقول إخوان القردة والخنازير عني وعنك بعدما ألهتنا دنيانا وشهواتنا عن أمر ديننا؟ إنهم يقولون: (محمد مات، خلف بنات، محمد مات، خلف بنات).

لقد لحق محمد ﷺ بربه، بعد أن قلَّد كل مسلم وراءه أمانة الدين في عنقه، فماذا فعل المسلمون في هذه الأمانة؟ لقد ضيَّعوا أمانة الإسلام، ومسئولية الرسالة، ألهتهم شهواتهم وأهواؤهم عن ذكر الله، سَفُلت منهم الهموم، انحطت بهم الهمم، قصارى أمانيهم: فتاة حسناء، ومرتب مجز، وسيارة فارهة.

يسهر أحدهم الليل كله، يفكر في صديقته التي تركته، أو صاحبه الذي هجره، تسيل دموعه من سماع الأغنية، أو رؤية مسرحية، أما دينك يا رسول الله، أما أمتك يا رسول الله، أما أعراض نسائنا يا رسول الله، أما مقدساتنا يا رسول الله؛ فكل ذلك لا بواكي له.

آه يا رسول الله، لو بُعِثتَ الآن، ورأيت أمتك من بعدك؛ لَما عرفتَ منَّا غير قبلتنا، فشبابنا قد أسَرتهم الشهوات، ونساؤنا قد استعبدتهم الموضات، رجالنا في غفلة، وشيوخنا في سكرة، حكامنا في تفرق، وشعوبنا في تشرذم، قدواتنا راقصون وراقصات، ونجومنا لاعبون ولاعبات، بطولتنا أن ننتصر في المباريات، وفوزنا أن نحوز الشهوات.

إنه واقع مرير نحياه، ونتجرع غصصه ليل نهار، لكنه لن يزول بمجرد آهات وتوجعات، ودمعات وصرخات، لن يزول هذا الواقع بالصيحات والمظاهرات، وحرق أعلام الأعداء في الشوارع والجامعات؛ فإن هذا كله بدون عمل جاد مثمر؛ لا يعدو كونه تنفيسًا عن العواطف وإراحة للنفوس، إنما يتغير واقع أمتنا المرير بعمل جاد مثمر بناء، يعيد لأمتنا عزها ونهضتها، وقوتها وحضارتها.

ولا يكون ذلك إلا حينما يبدأ هذا البناء مني ومنك، بأن يعود كل منا إلى طريق ربه أولًا، يستقيم على شرعه، ويستضيء بنور هدايته، ثم يمضي في الدنيا ليصنع الحياة في سبيل مرضاة الله، فيتقن فنًّا حضاريًّا، أو تخصصًا علميًّا، ينبغ ويتفوق فيه، ويُعلي من خلاله راية لا إله إلا الله، سواء أكان داعية أم مهندسًا، عالمًا أم طبيبًا، رجل أعمال أو رجل سياسة.

فإذا تزودنا بزاد الإيمان، وجمعنا إليه زاد الحضارة؛ قامت نهضة هذه الأمة، وأصبحت مرهوبة الجانب من قِبَل أعدائها، وعندها لن يتجرأ أيُّ كلب من كلاب الأرض على أن يقترب شبرًا واحدًا من أرض الإسلام.

أي الغادين أنت؟

((كل الناس يغدو، فبائعٌ نفسه؛ فمعتقها أو موبقها))[1].

هكذا يضعك حبيبك محمد ﷺ أمام هذا الخيار الخطير، الذي سيتحدد على أساسه مصيرك في الدنيا والآخرة؛ فأنت منذ أن خُلقتَ وقطار عمرك قد أقلع من محطة الدنيا، وسيصل حتمًا إلى محطة الآخرة، لتلقى فيها ربك فيوفيك حسابك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

فإن (العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار؛ فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه تعالى، ثم قد جُعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٣٢٨).

ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان: قسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا مرحلة منها؛ اقتربوا من تلك الدار، وابتعدوا عن ربهم ودار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب... فهؤلاء جُعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خُلقوا لها، واستعملوا بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم، يسوقونهم إلى منازلهم سوقًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

أي: تزعجهم[1] إلى المعاصي والكفر إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله، وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله؛ وهؤلاء كلهم مستعدون للسير، موقِنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه مقصِّر في الزاد، غير آخذ منه ما يبلغه المنزل، لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود بما يتأذَّى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل، بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة، وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات همه في تحصيل الأرباح، وشد أحمال التجارات؛ لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدَّخر شيئًا مما بيده ولا يتَّجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم)[2].

والآن أيها الحبيب، قد بان الصباح ولاح لكل ذي عينين، فهذا صراط الله مستقيماً، وذاك سبيل الغواية معوجًّا، فأي السبيلين تختار؟ أتختار طريق الله تعالى؛ فتعيش في الدنيا في كنفه ورعايته، منعماً بقربه، معانًا بمدده سبحانه في شأنك كله، ثم تهنأ في الآخرة بروح وريحان وجنة نعيم؟ أم تقطع الطريق في هذه الدنيا سالكًا سبيل الغواية، ممتطيًا صهوة الشهوات والملذات، تعيش في الدنيا ولم تعرف لله عليك حقًّا؛ فتحيا في شقاء وتعاسة آناء الليل والنهار؟ فأولئك الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) تزعجهم: أي تهيِّجهم.

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص(٢٠١-٢٠٢).

زاد الطريق

أيها المسافر إلى ربه، إذا كان ما في قلبك من الإيمان، وما انطوت عليه جوانحك من محبة الله وخشيته، قد أمليا عليك أن تختار طريق الله تعالى كما هو الظن فيك إن شاء الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك؛ فأبشر، فقد أهَّلَك الله تعالى للخير، وجعلك من صفوة الخلق، وعِلية الناس.

فإن (الناس قسمان: علية وسفلة، فالعلية من عرف الطريق إلى ربه، وسلكها قاصدًا الوصول إليه، والسَّفلة من لم يعرف الطريق إلى ربه، ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨])(١).

وانتظر من الله تعالى العون والإمداد، كما يفعل سبحانه بكل من سلك طريقه وآثر رضاه، فإن العبد إذا سلك هذا الطريق؛ (عطف عليه ربه؛ فقربه واصطفاه وأخذ بقلبه إليه، وتولّاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولّى تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد الشفيق ولده، فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضي به من الناس حبيبًا وربًّا، ووكيلًا وناصرًا، ومعينًا وهاديًا؟ فلو كَشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له، من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم؛ لذاب قلبه حبًّا له وشوقًا إليه)(٢).

وقبل أن تشرع في رحلة الإيمان، وسر سعادة الدنيا والآخرة، لا بد أن تعلم أن لكل طريق زادًا وعُدَّة، تعين المسافر على قطعه؛ حتى يصل سالمًا غانمًا إلى مقصوده بعون من ربه الرحمن، فعليك قبل الشروع في سلوك طريق الهداية أن تعد له زاده وعدته، والتي تتمثل في:

خارطة المسافر.

ونعني بها العلم الشرعي الصحيح، الذي يدل السائر على طريق ربه، ويحميه من الوقوع في طرق المهالك ومهاوي الردى، فإن (السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية: فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك؛ فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواضع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل.

فقوته العلمية كنور عظيم بيده، يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص(١٩١).
(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص(١٩٤).

يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق، وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها)(١).

فأعلام الطريق إلى الله هي معالمه الرئيسة التي تدل السالك على صحة سيره إلى ربه، وتعرفه من أنه يسير خلف محمد ﷺ.

وأما معاطبه؛ فهي جواذب الشبهات والشهوات التي تصد الناس عن سلوك طريق الله تعالى، وتقعد بهم عن سر سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، ولا يمكن للمسافر إلى ربه أن يعلم كل ذلك إلا من خلال العلم الشرعي الصحيح، المؤيَّد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

حادي الطريق.

وهو الشيخ المربي الذي يزرع فيك الخير، وينقي حشائش الخبث من أرض قلبك، تصحبه في سيرك؛ فيدلك على الطريق إلى ربك، يرَبِّيك بسمته وهديه قبل كلامه وقوله.

يكون لك قدوة عملية، تتجسد فيها معاني الخير؛ فتتسرب إلى نفسك في سهولة ويسر؛ فينفعك الله تعالى به كما نفع بشيخ الإسلام ابن تيمية تلميذه ابن القيم رحمهما الله، الذي وصف ذلك الانتفاع فقال: (قال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة)(٢).

فتأمل كيف يحرص شيخه عليه، حتى يخشى عليه من مجرد انشغال زائد بمباح، قد يلهيه عن اجتهاد مشروط للوصول إلى مرتبة عالية عند الله جل وعلا، فتحتاج في طريق السير إلى هذا الشيخ المربي، الذي يحرص على هدايتك بأشد مما تحرص أنت على نفسك.

رفقة الطريق.

فلا بد لك أيها الحبيب، السائر إلى الله تعالى في هذا الطريق، من رفقة وصحبة تأنس بها؛ لتذهب عنك وحشة التفرد، وتُصَحِّح لك الأخطاء، وتوضح لك العقبات.

وإذا كانت الرفقة مهمة ومطلوبة في سفر الدنيا، فكيف بسفر الآخرة الذي يكون فيه المؤمن أشد حاجة إلى المعين الصالح، والمشارك الموافق، الذي يكون مع شريكه كاليدين؛ تغسل إحداهما الأخرى.

فالزم رفقة الإيمان أيها الحبيب، تصل غانمًا سالمًا بإذن الله تعالى، ولكن هذه الرفقة لا

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص(١٩٨).

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٧٤٣).

ككل رفقة، إنها رفقة السفر إلى الله تعالى، الذين لا بد لهم من خصائص ومقومات تؤهلهم لذلك السفر، (فرفقاء الطريق إلى الله تعالى: هم الذين علت هممهم، وصفت نياتهم، وصحَّ سلوكهم؛ حتى سبقوا الناس، وتركوا السكون، وتزاحموا على ركوب القافلة، ركضًا إلى الله تعالى، وتسارعًا إلى مرضاته، فلم يوقف لهم على رسم، ولم يلتزموا باسم)[1].

ركضًا إلى الله

وبعد أن تعرَّفتَ على عُدَّة الطريق إلى الله تعالى؛ آن لك أن تشرع في السفر، فإن (السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها؛ فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمِّر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها، منزلة بعد منزلة.

فكلما قطع مرحلة؛ استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل؛ فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير، ومواصلة الشد والرحيل؛ وعدها قرب التلاقي، وبرد العيش عند الوصول؛ فيُحدِث لها ذلك فرحًا ونشاطًا وهمة)[2].

وحياة القلب شرط للسفر إلى الله؛ فإن الطريق إلى الله إنما تقطع بالقلوب لا بالأقدام، والقلب الحي هو مَطية المسافر إلى رضوان الله والجنة، ولا يحيا القلب إلا إذا اكتملت فيه ثلاثية الإيمان من خشية الخالق الجليل، ورجاء رحمته، ومحبته ﷻ.

فإن (القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان؛ فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر)[3]، وبهذه المحطات الثلاث يبدأ طريق الهداية، وبقطعها يكون المسافر إلى ربه قد خطا أول وأهم خطوة في حياته إلى رضوان الله والجنة.

واسمح لي ـ أخي ـ أن أنعم بصحبتك في هذا الطريق، أصف لك المراحل، وأعينك على الوصول، عبر هذه السلسلة المباركة: (**الطريق إلى الله**).

أبدأ معك أولى حلقاتها عبر هذا الكتاب، الذي ما كتبته ـ علم الله ـ إلا حبًّا فيك، وغيرة عليك، أن يضيع عمرك هباء منثورًا، في غفلة عن طريق ربك، وشرود عن سر سعادتك وقرة عينك، أهُزُّ خلاله رصيد فطرة الإيمان في قلبك، في رحلة إيمانية مباركة، عبر عَصرة رهبة من

(١) مسافر في قطار الدعوة، عادل الشويخ، ص(١١١)، بتصرف يسير.

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص(١٩٨).

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٣٢٢).

ربك، فضمة رجاء وحسن ظن بمولاك، فنبضة حب له سبحانه، تتلوها أختها لرسوله ﷺ، فاستوت بذلك مصابيح إيمان ثلاثة، تكتمل بهنَّ في قلبك دائرة النور، فيبدأ سيره المبارك إلى حيازة نعيم قرة العين والسعادة في الدنيا، وسكنى أعالي الجنان في الآخرة، ورضوان من الله أكبر في الدنيا والآخرة، ولكني لا أدعك في كل محطة لكلام نظري، وإنما لا بد أن نخرج منها بزاد للعمل، ومنهج للتطبيق، فكان لا بد أن أهيب بك في نهاية كل نقلة أن:



فإذا أردت انتفاعًا من هذه الرحلة؛ فلا تقرأ هذا الكتاب دفعة واحدة، وإنما اقرأ فقط في كل أسبوع فصلًا؛ ثم طبِّق ما تجده في نهاية كل فصل من منهج عملي، وبذلك تجمع بين القوة العلمية، والقوة العملية، كما نصحك الإمام ابن القيم رحمه الله من قبل؛ فتدبُّ في قلبك الحياة الحقيقية، ويبدأ أولى مراحل سيره إلى الله ﷻ، طائرًا على جناح العجلة، مرددًا خلف موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤].

متخذًا من نداء هزة الإيمان لك في الطريق حداء، إذ يسائلك قائلًا:

أيـهـا المؤمن ماذا غيرك؟	أنت للمجد وهذا المجد لك
كيـف تغفو أيها المؤمن هل	هيأ الأعداء في الدرب الشَّـرك؟
أيـهـا المؤمن هلَّا قلت لي:	أيُّ ذنب بالمخازي ضيعك؟
أيـهـا الســادر فـي لـذَّاتـه	هل ترى عيش المعاصي أعجبك؟
أمتـي قد علَّقتْ فيك المنى	فاستفق وانهض وغادر مضجعك
عـد إلى الرحمن في طهر تجد	مركب النصر إلى العليا معك

ثم لنجعل سويًا آخر دعواي ودعواك أن الحمد لله رب العالمين

رفيقك على الطريق

فريد أبو زهراء

Faridabuzahraa@hotmail.com



المحطة الأولى

وإياي فارهبون

المحطة الأولى: وإياي فارهبون

لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ جبل الصفا؛ فجعل ينادي: ((**يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا...**))[١].

هكذا بدأ ﷺ دعوته المباركة بهذا الإنذار المهيب، يقرع به القلوب قبل الأسماع؛ ليوقظها من سباتها؛ حتى تفيء إلى ربها، وتعود إلى باريها، لتبدأ رحلة السير إلى قرة نعيمها، وسعادتها في الدنيا والآخرة، حينما تعلم وظيفتها التي خلقت من أجلها؛ فتعيش لله، وبالله، ومع الله، وبذلك يسُنُّ رسول الله ﷺ تلك السُّنة، لكل من أراد أن يسير في طريق الله تعالى، أن يبدأ أولى خطواته على هذا الطريق المبارك، بالتزود أولًا من معين الرهبة من علام الغيوب جل وعلا.

وما ذاك إلا لما أسلفناه من قبل، من أن الرحلة إلى الله إنما تقطع بالقلوب لا بالأبدان، ولا يمكن أن يسير إلى الله تعالى قلب ما زال راقدًا على سرير الغفلة، أو مكبلًا بأغلال الخطايا، (إذ كيف يرحل إلى الله تعالى، وهو مكبل بشهواته؟! أم كيف يطمع أن يدخل على الله تعالى وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟!)[٢].

ومن ثَمَّ؛ يحتاج طالب النجاة إلى طاقة إيمانية عالية؛ تخلصه من أسر تلك الأغلال؛ حتى يتحرر قلبه، ويستوي من بعد ذلك حرًّا طليقًا، يسير إلى ربه تعالى في همة ونشاط، وخير مولد لتلك الطاقة هو رهبة العظيم الجليل ﷻ، كما هو مذهب إبراهيم بن شيبان الذي أعلنه بقوله: (الخوف إذا سكن القلب؛ أحرق مواضع الشهوات فيه، وطرد منه رغبة الدنيا)[٣]، بل إن ذلك هو أصل المذهب الموروث عن خير البرية ﷺ، إذ يوجهنا إلى ذلك فيقول: ((**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**))[٤].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، (٣٠٣).

(٢) حكم ابن عطاء الله، ص(٦١)، بتصرف يسير.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، (١/ ٥١٣).

(٤) رواه الترمذي، كتاب القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، (٢٣٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٤٥٠).



سبيل النجاة.

أخي، هل تريد النجاة؟ هل تحب أن تأمن يوم القيامة إذ الناس خائفون؟ هل تريد أن تفوز بالجنة حين يخسرها الخاسرون؟ فعليك إذًا بخشية الحي القيوم، وها هو الله تعالى يبشِّرك ويحذرك في آن واحد، فيما يرويه رسوله ﷺ في الحديث القدسي، فيقول ﷻ: **((وعزتي، لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا؛ أمَّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة))**[١].

ثم يأتي هذا الوعد النبوي لجموع أهل الخشية من الرب الجليل، على لسان سيد البرية ﷺ، إذ يقول: **((لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع...))**[٢].

وإذا كان للمؤمن في الآخرة جنة واحدة، فإن الله تعالى أعد لعباده الذين عمرت خشيته قلوبهم جنتين اثنتين؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

واسمع إلى مجاهد رحمه الله يصف ذلك العبد الخائف من ربه فيقول: (الرجل يهمّ بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه؛ فله جنتان)[٣]، بل ويأتينا الوصف التفصيلي لهاتين الجنتين من نبينا ﷺ، فيقول: **((...جنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما...))**[٤].

علم وشيب ودموع.

لقد كان الخوف الشديد من الله ﷻ هو سمة الأنبياء جميعًا، وعلى رأسهم سيد ولد آدم، نبينا محمد ﷺ، فاسمع إليه ﷺ وقد وجل قلبه من رب العالمين، فترجم لنا تلك الرهبة فقال: **((إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء، وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجدًا، والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله))**[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، قد شبت؟ فقال: **((شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت))**[٦].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، (٢٦٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٧٩٤)، واللفظ لابن حبان، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٧٤٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، (١٥٥٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (١٣١١).

(٣) تفسير الطبري، (٢٣/ ٥٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾، (٤٥٠٠).

(٥) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، (٢٢٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٣١٢).

(٦) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الواقعة، (٣٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٢٩٧).

وعن مطرف عن أبيه ﷺ قال: (أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل[١])، يعني: يبكي[٢].

الصحابة على الطريق.

وأما صحابة النبي ﷺ فيقول عنهم الإمام ابن القيم رحمه الله: (ومن تأمل الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير والأمن.

فهذا الصدِّيق ﷺ يقول: وددت أني شعرة في جنب مؤمن، وذُكر عنه أنه كان يمسك بلسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا؛ فتباكوا، وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر ﷺ قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب)[٣].

وهذا أبو الدرداء ﷺ كان يقول: (إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟)[٤].

وكان يقول: (لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت؛ لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون به، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون نفوسكم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تُعضَد ثم تُؤكَل)[٥].

(وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، جعل يرددها ويبكي حتى أصبح)[٦].

الصالحون يجددون السمت.

قالت فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز لمغيرة بن حكيم: (يا مغيرة، إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، وما رأيت أحدًا قط أشد فرقًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء؛ قعد في المسجد، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكي؛ حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعًا يديه يبكي؛ حتى تغلبه عيناه)[٧].

---

(١) وهو القدر إذا استجمع غليانه.

(٢) رواه النسائي، كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة، (١١٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (١٢١٤).

(٣) الداء والدواء، ابن القيم، ص(٤٠).

(٤) الزهد، الإمام أحمد، ص(١٧٠).

(٥) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ١٤١).

(٦) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ١٦٤).

(٧) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٥/ ١٣٧).

(وبكى عمر يومًا فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم البكاء؛ قالت له فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة، منصرف القوم بين يدي الله ﷻ، فريق في الجنة وفريق في السعير)[١].

وقال المروزي: (كان أبو عبد الله ـ يعني الإمام أحمد بن حنبل ـ إذا ذكر الموت؛ خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت؛ هان عليَّ كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل لخرجت؛ حتى لا يكون لي ذكر)[٢].

لماذا خافوا وأَمِنَّا؟

أخي الحبيب، ها قد رأيت بعض أحوال نبينا ﷺ وصحابته الكرام ﷺ ثم من تبعهم بإحسانٍ مِن سلفنا الصالحين، والآن حق لك أن تتساءل: لماذا خافوا بينما أمنا نحن؟! ما الذي بلغ بخشيتهم لله ذلك المبلغ، مع أنهم أحسنوا لله ﷻ العمل؟ وما الذي قصر بنا عن منازل الخشية من رب العالمين، مع أننا مقصِّرون مفرِّطون في جنبه تبارك وتعالى؟!

والجواب: أن هناك أسبابًا لتلك الخشية، لم تبرح قلوبهم وعقولهم، هي التي أوصلتهم إلى ذلك المستوى السامق من خشية الله ﷻ، وعندما غفلنا عنها؛ وجدنا لقلوبنا هذه القساوة، وتلك الغفلة عما يراد بنا.

ولعلنا نحن من يخاطبنا الأشبيلي في عاقبته حين قال: (ولعلك يا هذا تستطيل ركعتين، تقرأ فيهما حزبين، تقوم بهما لربك جل جلاله؟ ولعلك تعجز عن مشي ميل في قضاء حاجة مسلم؟ وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد، والكرب العظيم الشديد، الذي لا يَقصُر إلا على من أطال التعب لله، ولا يَسهُل إلا على من تحمل الشدائد في ذات الله، ولعلك إن صليتهما ليلة؛ عجزت عنهما أخرى.

ولعلك إن مشيت يومًا في حاجة مسلم؛ بَرِمتَ من ذلك في يوم آخر وتعبت منه، وكسلت عنه، وربما مشيت في فضولِ الميل والميلين وأكثرَ من ذلك، ولو تدبرت أمرك، ونظرت فيما يراد بك؛ لسهل عليك من أمركَ العسير، وقرب عليك فيه البعيد، فاعمل رحمك الله في أيام قصار وعمر قصير، لأيام طوال وعمر طويل)[٣].

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، العفاني، (٤/ ٢١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١١/ ٢١٥-٢١٦).

(٣) العاقبة في ذكر الموت، الأشبيلي، ص(٢٠٣).

فتعال بنا يا أخانا، نتدبر في أمرنا، وننظر ما يراد بنا، عبر التأمل في تلك الوقفات الإيمانية، مع أسباب الخوف من الرقيب الحسيب؛ حتى يَسهُل علينا من أمرنا العسير، ويَقرُب علينا فيه البعيد؛ فنعمل في الأيام القصار والعمر القصير، لتلك الأيام الطوال والعمر الطويل.

إنها ثلاث وقفات مباركات، عليها يقوم بناء الخشية من الرب الجليل، في قلب عبده الذليل، إنها وقفات طالما وقف عندها الصالحون، وعلامات على طريق الله تعالى طالما استرشد بها السائرون؛ فكانت لهم أعلامًا على طريق الإيمان، قطعوا بها إلى ربهم مسافات؛ حتى نعموا ببرد الوصول إلى جوار رب العالمين، نسأل الله العظيم من فضله.

أما عن هذه الوقفات فهي:

۞ رحلة إلى دار القرار.

۞ وما قدروا الله حق قدره.

۞ أشواك على الطريق.

فتعال أخانا الحبيب، نلحق بركبهم، ونطلب رفقتهم، ولنبدأ على بركة الله تعالى أولى خطواتنا في طريق الله، بتلك الوقفات المباركات.



الوقفة الأولى

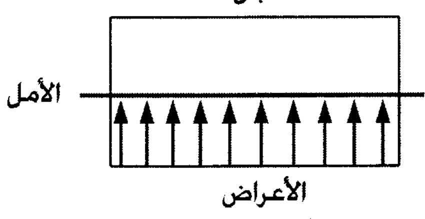
رحلة

إلى دار القرار



الوقفة الأولى: رحلة إلى دار القرار

في حِلقة إيمانية تربوية، جلس النبي ﷺ مع أصحابه الكرام، يقصُّ عليهم قصة ابن آدم، عبر رسم لوحة فنية معبِّرة، يصفها لنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول: ((**خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خُطَطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج: أمله، وهذه الخُطَط الصغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا، وإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا**))[1].



وبهذه الموعظة النبوية البليغة يذكِّرنا نبينا ﷺ بتلك النقلة الحتمية من هذه الدار، وأننا ما خلقنا فيها للخلود، فمهما طال أمل الإنسان في أن يعيش فيها؛ فلا بد أن يوافيه الأجل المحتوم، وما بين طول أمله، وموافاة أجله، أعراض تنهش عمره؛ من مرض أو حرق، وسقوط أو حادثة، وسرطان أو ذبحة.

فإن نجا من ذلك كله؛ كان له في الأمراض المزمنة تهذيب وتأديب، فإن أفلت من كل ذلك؛ فلا بد أن يفجأه زائر الموت لينتقل بعدها إلى دار القرار؛ فإما نعيم الخلد، أو شقاء الأبد.

لكل ذلك؛ كان على المؤمن اللبيب أن يعيش هذه الرحلة قبل أن يراها، وأن يضعها نصب عينيه وهو لا يزال يدب على وجه الأرض؛ خشية أن يغفل وينسى فيطول أمله، وينقضي أجله دونها استعداد ليوم المعاد، فيبوء بالخسران المبين عياذًا برب العالمين.

ومن هذه الرحلة نبدأ سيرنا المبارك إلى الله تعالى، وبها نقطع ثلث المسافة إلى محطة الرهبة من علام الغيوب، فتعال معي أيها الحبيب، نقطع هذه الرحلة مرحلة بعد مرحلة، نرى بأبصار القلوب، ما غفلت عنه الأعين، ولنا في كل مرحلة منها عظة نعتبر بها، وزاد نتزود به ليوم المعاد.



(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، (٥٩٣٨).

المرحلة الأولى: النهاية المجهولة

في بيان نبوي خطير من البشير النذير ﷺ، ينقله لنا عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: ((**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.**

فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[١].

هكذا أيها الحبيب تتبدى لك خطورة الخاتمة، فكل منا لا يدري بماذا يختم له؟! وعلى أي حال سيفجؤه هاذم اللذات؟! هل سيأتيه وهو يرتل آي الذكر الحكيم؟! أم سيفجؤه وهو يسارق النظر إلى الحرام؟! هل سيبغته وهو يتنعم في روضة من رياض حلق الذكر في بيت من بيوت الله؟! أم سيأتيه وهو عاكف على فيلم سينمائي في إحدى دور السينما؟! هل سيقدم عليه وهو يحمل في قلبه هم دينه وأمته؟! أم سيأتيه وهو مشغول البال بصديقته؟!

إنها النهاية المجهولة التي لم يُطلع الله ﷻ عليها أحدًا من خلقه، وعلى أساسها يتحدد مصير الإنسان في تلك الرحلة إلى دار القرار، ومن ثم فقد قال ﷺ: ((**لا تعجبوا بعمل عامل حتى تنظروا بم يختم له**))[٢]، وقال أيضا ﷺ: ((**إنما الأعمال بالخواتيم**))[٣].

من أجل ذلك أضجَّت الخاتمة مضاجع الصالحين، وأطارت النوم من أعينهم، ولم لا؟ وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ((**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**))، فقال له أنس بن مالك ﷺ: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: ((**نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء**))[٤].

و(بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنوب؟ فرفع شيئًا من الأرض، فقال: والله لذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت)[٥]،

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، (٤٧٨١).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٧٩٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٧٣٦٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، (٦١١٧).

(٤) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢١٤٠).

(٥) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ٣٣٦).



(وقال سهل التستري: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠])[١].

فإذا كان هذا هو خوف صالحي الأمة من خواتيمهم، فكيف يجب أن يكون خوفي وخوفك؟ إن الأمر جد خطير أيها الحبيب، فتلك اللحظة التي ستستقبل فيها زائر الموت؛ سترى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إما من بشريات النعيم، أو من بشريات الجحيم، وخاتمتك وحدها هي التي تحدد إلى أي فريق سوف تنتمي؟ فريق الأشقياء أم فريق السعداء؟

نماذج من خواتيم الأشقياء

إن تأمل أحوال الأشقياء عند موتهم مما يبعث في القلب رهبة ورغبة، رهبة من هذا المصير المخيف الذي ينتظر كل من ساءت خاتمته، بعد أن عاش عيشة التفريط في حق ربه ومولاه، ورغبة في الخلاص من تلك النهاية المأساوية التي تنتظر كل من تنكب عن طريق الهداية في الدنيا، غافلًا عن لحظة النهاية التي يبغته فيها هاذم اللذات، وها هي بعض النماذج من خواتيمهم، أعاذني الله وإياك من عاقبتهم.

سخط واعتراض.

(منذ سنوات جرت حادثة في القصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلها أن رجلًا في حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلي معه في المسجد ـ والله أعلم بما في القلوب ـ وقال: يا عبد الله، هذا المصحف الذي كنت تقرأ فيه، فاتق الله في نفسك، ولقنه كلمة التوحيد، فقال الرجل إنه كافر بالمصحف، وبكلمة (لا إله إلا الله)، وختم له على تلك الحال، فنعوذ بالله تعالى من الخذلان، ومنهم من كان في سكرات الموت، فيقولون له: قل (لا إله إلا الله)، فيقول: هل رأى الحب سكارى؟!! ومنهم من قال عند موته: إن ربي ظلمني)[٢].

عندما تبلى السرائر.

يقول الشيخ القحطاني: (إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم؛ كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد، وبعضهم يقبض يده اليمنى، وبعضهم يدخل يده في فرجه، وبعضهم تشم رائحة الشواء من فرجه، وبعضهم تسمع كأن أسياخًا من نار أدخلت في فرجه، ولقد جيء بميت، فلما ابتدأنا بتغسيله؛ انقلب لونه كأنه فحمة سوداء، وكان قبل ذلك أبيض البشرة، فخرجت من مكان

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٣/ ٢٧٢).

(٢) من محاضرة للشيخ عبد الرحيم الطحان بعنوان: الخوف من سوء الخاتمة.

التغسيل وأنا خائف، فوجدت رجلًا واقفًا، فقلت له: هذا الميت لكم؟ قال: نعم، قلت: أنت أبوه؟ قال: نعم، قلت: ما شأن الرجل؟ قال: كان لا يصلي، فقلت له: خذ ميتك فغسله)[1].

عاش على خبث فمات عليه.

يقول الدكتور خالد الجبير: (في يوم الاثنين الساعة العاشرة والنصف، كنت مناوبًا في الإسعاف، وليتني لم أناوب، إذ فوجئت بثلاثة شباب يحملون رابعًا لهم في بطانية ويضعونه أمامي، ماذا أرى أمامي؟ أرى شابًّا مسكينًا قد توفي قبل ثلاث أو أربع ساعات متيبِّسًا، وفي يده اليمنى كأس خمر، قد شرب منه حتى مات.

وصليت في رمضان عام ١٤٢٢هـ في أحد مساجد مدينة الرياض صلاة التراويح ثم خرجت، وعند الإشارة، إذا بشاب مسكين يقطع الإشارة ويصطدم بسيارة من الجهة الأخرى، ولقد قام مجموعة من الإخوة بإخراج الشاب من السيارة، كنت قد ألقيت كلمة على المصلين عن حسن وسوء الخاتمة وتلقين الشهادة، وكان الإخوة المصلون الذين وقفوا حول الشاب كلهم متحمسين، كل واحد منهم يقول للشاب: قل (لا إله إلا الله)، قل (أشهد أن لا إله إلا الله)، وهذا الشاب يقلب عينيه يمينًا ويسارًا، يحرك يده ويحرك جسمه، لكنه عجز أن يحرك لسانه بـ(لا اله إلا الله).

يقولون له: قل (لا إله إلا الله)، واحد يحركه، وواحد يقول له: قل (لا إله إلا الله)، ولم ينطق لسانه بكلمة واحدة، المهم بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، خرجت روحه قبل أن يأتيه الإسعاف، أحد الإخوة الذين استمعوا للكلمة قال: يا إخوان، دعونا نجمع له متعلقاته من السيارة، أتدرون ماذا وجدنا على مرتبة السيارة الخلفية؟ ماذا تتوقعون؟ عدة أفلام جنسية هابطة)[2].

ماذا ستقول له؟

(وهذه قصة ثلاثة من الأصدقاء يجمع بينهم الطيش والعبث والمجون، كانوا يستدرجون الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن.

يقول الراوي: ذهبنا كالمعتاد للمزرعة، وكان كل شيء جاهزًا، الفريسة لكل واحد منَّا، الشراب الملعون، شيء واحد نسيناه وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء العشاء بسيارته، وكانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق، ومرت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه، وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانب الطريق.

---

(١) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان، ص(٤٧).

(٢) موقع أمراض القلوب، الدكتور خالد الجبير، www.heartsdiseases.com.



وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي، والنار تلتهمها، وهي مقلوبة على أحد جانبيها، أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحَّم تمامًا، لكنه كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض وبعد دقيقة فتح عينيه وأخذ يهذي: النار... النار.

فقررت أن أحمله بسيارتي وأسرع به إلى المستشفى، ولكنه قال بصوتٍ باكٍ: لا فائدة، لن أصل، فخنقتني الدموع، وأنا أرى صديقي يموت أمامي، وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟ نظرت إليه بدهشة وسألته من هو؟

قال بصوت كأنه قادم من بئرٍ عميق: الله، أحسست بالرعب يجتاح جسدي؟ وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه)(١).

من أمارات خاتمة الشقاوة

قال ابن رجب رحمه الله: (قد خُذِل خلق كثير عند الموت، فمنهم من أتاه الخذلان من أول مرضه، فلم يستدرك قبيحًا مضى، وربما أضاف إليه جورًا في وصيته، ومنهم من فاجأه الخذلان في ساعة اشتداد الأمر؛ فمنهم من كفر، ومنهم من اعترض وتسخط، نعوذ بالله من الخذلان، وهذا معنى سوء الخاتمة، وهو أن يغلب على القلب عند الموت الشك أو الجحود فتقبض النفس على تلك الحالة، ودون ذلك أن يتسخط الأقدار)(٢).

وقال الشيخ صديق حسن خان: (سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى، فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على تلك الحالة، فتكون حجابًا بينه وبين الله تعالى أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية وهي دونها: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا، أو شهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلَّا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة،

---

(١) للشباب فقط، عادل بن محمد العبد، نقلًا عن رسالة بعنوان: أخي الشاب إلى أين تسير؟ محمد أمين مرزا عالم، ص(١٠-١٢).

(٢) الثبات عند المات، ابن الجوزي، ص(٧٨).

وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة؛ يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإذا كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال، أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار، ولو بعد آلاف السنين)[1].

أسباب خاتمة الشقاوة

إن الانضمام إلى ركب فريق الأشقياء ممن ساءت خاتمتهم في الدنيا فساءت عاقبتهم في الآخرة، لا شك أنه لم يأت من فراغ، إن من وراء تلك النهايات المخزية أسبابًا كثيرة، لا بد أن يعلمها كل مؤمن؛ حتى يكون منها على حذر، فينجو من خاتمة الخزي والندامة، قبل أن يأتي يوم ولات حين مندم، فمن أخطر هذه الأسباب التي ترشح الإنسان أن يكون عضوًا في ركب الأشقياء:

أولا: إدمان الذنوب.

فإن من تعود على انتهاك المحرمات، والعيش في أسر الشهوات؛ لا بد وأن يتذكر معاصيه ومخازيه عند الموت، فتتمثل له زلاته، وتحضر في قلبه في ساعة الرحيل؛ فتميل نفسه إليها في تلك اللحظة الحرجة التي تقبض فيها روحه؛ فيختم له بالسوء عياذًا بالله، وها هو الواقع يؤيد ذلك بما نراه يحدث من أمثال هذه القصص المتواترة، التي يختم لأهلها بما يغضب الله جل وعلا، لما كانوا مقيمين على ما حرم ربهم عليهم، جزاء وفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

(وهذه قصة أربعة من الشباب، كلما سمعوا ببلد يسهل فيها الحرام، طاروا إليها، يحرقون فتيل شمعة حياتهم في لذات وشهوات، أحلام كالسراب، سرعان ما تنقضي، ويقبض صاحبها أجره كاملًا؛ من تعاسة وشقاء، وسوء خاتمة، ثم في الآخرة فالأمر أدهى وأمَر.

وبينما الأربعة في ليلة من ليالي العصيان، وفي ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون ربهم بالفواحش والآثام، وفي غمرة اللهو والمجون، بين الخمور والراقصات، إذا بأحد الأربعة يسقط مشغيًّا عليه، فيُهرَع إليه أصحابه الثلاثة، فيقول له أحدهم ـ وقد أصابته إفاقة مفاجئة ـ: يا أخي، قل (لا إله إلا الله)، فيرد الشاب المخذول: إليك عني، زدني كأس خمر، وتعالَي يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحالة، ليجعل الله في قصته عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)[2].

---

(١) يقظة أولي الاعتبار، صديق حسن خان، ص(٢١٦).

(٢) رسالة عاجلة إلى المسلمين، عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني، ص(٥٣-٥٥)، بتصرف يسير.

ثانيًا: تعلق القلب بغير الله.

فكما أن تعلق القلب بالله تعالى مجلبة لسعادة القلب وقرة عينه في الدنيا والآخرة، فكذلك تعلق القلب بغيره سبحانه؛ من مال أو منصب أو امرأة أو غير ذلك من الشهوات، التي يتخذها الناس أندادًا يحبونهم كحب الله أو أشد حبًّا، فإن كل ذلك مما يجلب الشقاء والتعاسة إلى هذا القلب في الدنيا قبل الآخرة، وبينهما سوء الخاتمة عياذًا بالله، وكيف يسعد قلب تعلق بغير الله، وقد قال ﷺ: ((**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يُعط لم يرض**))[1].

فإذا تعلق القلب بشيء من شهوات الدنيا، فأصبح يحوم حوله، ويقدم حبه على حب ربه، وطاعته على طاعة مولاه؛ فإنه لا بد وأن يذوق شقاء سوء الخاتمة والعياذ بالله، إذ يغلب ذكر ذلك الشيء على قلبه عند الموت؛ فيختم له به، وسبحان الله! كم شاهد الناس وسمعوا من هذا عبرًا.

السجدة الأخيرة.

فهذا فتى سافر إلى بانكوك، وتعرف هناك على فتاة بغي، فشغف قلبه بها، وأصبح لا يحتمل فراقها، ارتكب معها من المعاصي والمحرمات، ما تقشعر من هوله قلوب المؤمنين، وما زال على تلك الحالة من التعلق بها، حتى صار لا يطيق أن يعيش يومًا بدونها، وفي إحدى الأيام تأخرت عن القدوم إليه، فطار صوابه، وأصابه الهم والضيق، وكاد يفقد عقله، فلما قدمت إليه، زال حزنه وانفرج همه، واستقبلها استقبالًا خططت له الشياطين طويلًا، فلم يجد ذلك المخذول المهان شيئًا يعبر به لها عن مدى فرحته بقدومها، سوى أن يسجد لها من دون الله جل وعلا، نعم سجد لها، ولكنها كانت السجدة الأخيرة، فما قام منها إلا إلى قبره، نعوذ بالله من الخذلان[2].

تعس عبد الدرهم.

(وهذا رجل تعلق قلبه بحب المال تعلقًا شديدًا، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، ليس له أحد يرثه، لا زوج ولا ولد، ولا قريب ولا حبيب، فلما حانت ساعته الأخيرة، ما كان منه إلا أن جمع ذهبه أمامه، وجعل بجواره زيتًا، ثم جعل يخاطب الذهب ويقول: يا حبيبي، يا من أفنيت فيك عمري، أموت وأتركك لغيري، لا والله، أنا أعلم أن موتي قريب، وأن مرضي خطير، ولكني سأدفنك معي.

ثم جعل يأخذ دينار الذهب، ويغمسه في الزيت، ويهوي به إلى فمه ليبلعه، فإذا بلعه أصابته كحة شديدة تكاد تذهب بروحه، ثم يأخذ نفسًا ويرفع دينارًا ثانيًا، ثم يغمسه في الزيت، ويهوي به إلى فمه، وهكذا... حتى مات من جراء ذلك)[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، (٥٩٥٥).

(٢) من محاضرة للشيخ سعد البريك بعنوان: هل من عود قبل الموت؟.

(٣) من محاضرة لمجموعة من العلماء بعنوان: قصص واقعية.

نماذج من خواتيم السعداء

يقول النبي ﷺ: ((**إذا أراد الله بعبد خيرًا عسَّله، قيل: وما عسَّله؟ قال: يفتح الله له عملًا صالحًا قبل موته، ثم يقبضه عليه**))[١]، وها هي بعض النماذج، ممن أراد الله بهم خيرًا فعسَّلهم، عساك بأخبارهم تتعظ، وعلى دربهم تسير.

وشاب نشأ في طاعة الله.

يقول الدكتور خالد الجبير: (كنت مناوبًا في أحد الأيام، وتم استدعائي إلى الإسعاف، فإذا بشاب في السادسة عشر أو السابعة عشر من عمره يصارع الموت، والذين أتوا به يقولون: إنه كان يقرأ القرآن في المسجد ينتظر إقامة صلاة الفجر، فلما أقيمت الصلاة؛ رد المصحف إلى مكانه، ونهض ليقف في الصف؛ فإذا به يخر مغشيًّا عليه؛ فأتينا به إلى هنا، تم الكشف عليه، فإذا به مصاب بجلطة كبيرة في القلب لو أصيب بها جمل لَخرَّ صريعًا، كنا نحاول إسعافه، حالته خطيرة جدًا.

أوقفت طبيب الإسعاف عنده وذهبت لأحضر بعض الأشياء، عدت بعد دقائق، فرأيت الشاب ممسكًا بيد طبيب الإسعاف، والطبيب واضع أذنه عند فم الشاب، والشاب يهمس في أذن الطبيب، لحظات وأطلق الشاب يد الطبيب، ثم أخذ يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأخذ يكررها حتى فارقت روحه الحياة، أخذ طبيب الإسعاف في البكاء، تعجبنا من بكائه، قلنا له: إنها ليست أول مرة ترى فيها متوفيًا أو محتضرًا!! فلم يجب.

وعندما هدأ سألناه: ماذا كان يقول لك الشاب؟ وما الذي يبكيك؟ قال: لما رآك يا دكتور خالد تأمر وتنهى، وتذهب وتجيء؛ عرف أنك الدكتور المسئول عن حالته، فناداني، وقال لي: قل لطبيب القلب هذا لا يتعب نفسه، فوالله إني ميت ميت، والله إني لأرى الحور العين، وأرى مكاني في الجنة الآن، ثم أطلق يدي)[٢].

الأم الساجدة.

و(ها هي عجوز بلغت الثمانين من عمرها في مدينة الرياض، هذه العجوز جلست مع النساء؛ فرأت أنهن لا ينتفعن بأوقاتهن، جلساتهن في قيل وقال، في غيبة ونميمة، في فلانة قصيرة، وفلانة طويلة، وفلانة عندها كذا، وفلانة ليس عندها كذا، وفلانة طُلِّقت، وفلانة تزوجت، كلام إن لم يبعدهن عن الله ﷻ؛ فهو تضييع لأوقاتهن، فاعتزلت النساء، وجلست في بيتها، تذكر

---

(١) رواه أحمد في مسنده، (١٧١١٦)، والطبراني في المعجم الكبير، (٢٧٣٩٨)، واللفظ لأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٣٠٧).

(٢) موقع أمراض القلوب، الدكتور خالد الجبير، www.heartsdiseases.com.

الله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار، وكان أن وضعت لها سجادة في البيت، تقوم من الليل أكثره.

وكان لها ولد بار بها، لا تملك غير هذا الولد من هذه الدنيا بعد فضل الله ﷻ، وفي ليلة من الليالي قامت لتصلي، يقول ابنها: وفي آخر الليل، إذا بها تنادي عليَّ، قال: فتقدمتُ، وذهبتُ إليها، فإذا هي ساجدة على هيئة السجود، وتقول: يا بني ما يتحرك فيَّ الآن سوى لساني، قال: إذًا أذهب بك إلى المستشفى، قالت: لا وإنما أقعدني هنا، قال: لا، والله، لأذهبن بك إلى المستشفى، وقد كان حريصًا على برها، جزاه الله خيرًا، فأخذها وذهب بها إلى المستشفى، وتجمع الأطباء، وقام كلٌّ يدلي بما لديه من الأسباب، لكن لا ينجي حذر من قدر.

حللوا وفعلوا وعملوا، ولكن الشفاء بيد الله ﷻ وبحمده، قالت لولدها: أسألك بالله إلا رددتني على سجادتي في بيتي، فأخذها وذهب بها إلى البيت، ثم وضَّأها، وأعادها على سجادتها، فقامت تصلي، يقول: وقبل الفجر بوقت ليس بطويل، وإذا بها تناديني وتقول: يا بني، أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لتصعد روحها إلى بارئها ﷻ وهي ساجدة، فغسلوها وهي ساجدة، وكفنوها وهي ساجدة، وحملوها إلى الصلاة عليها وهي ساجدة، وحملوها بنعشها إلى القبر وهي ساجدة، وجاءوا بها إلى القبر، فزادوا في عرض القبر لتدفن وهي ساجدة، ومن مات على شيء بعث عليه، تبعث بإذن ربها في يوم القيامة ساجدة)[1].

ريحانة يفوح منها المسك.

تقول أم أحمد الدعيجي ـ إحدى العاملات في مغسلة للأخوات ـ في مقابلة لها مع مجلة اليمامة: (توفيت فتاة في العشرين من عمرها بحادث سيارة، وقبل وفاتها بقليل سألها أهلها: كيف حالك يا فلانة؟ فتقول: بخير ولله الحمد، ولكنها بعد قليل توفيت، جاءوا بها إلى المغسلة، وحين وضعناها على خشبة المغسلة، وبدأنا بتغسيلها؛ فإذا بنا ننظر إلى وجه مشرق مبتسم، وكأنها نائمة على سريرها، وليس فيها جروح أو كسور، ولا نزيف.

والعجيب ـ كما تقول أم أحمد ـ أننا عندما أردنا رفعها لإكمال التغسيل؛ خرجت من أنفها مادة بيضاء ملأت غرفة التغسيل بريح المسك، سبحان الله! إنها فعلًا رائحة مسك، فكبرنا وذكرنا الله تعالى، حتى إن ابنتي ـ وهي صديقة للمتوفاة ـ أخذت تبكي، ثم سألت خالة الفتاة عن ابنة أختها، وكيف كانت حياتها؟! فقالت: لم تكن تترك فرضًا منذ سن التمييز، ولم تكن تشاهد الأفلام والمسلسلات والتلفاز، ولا تسمع الأغاني، ومنذ بلغت الثالثة عشر من عمرها،

---

(١) من محاضرة للشيخ علي القرني بعنوان: كلنا ذوو خطأ.

وهي تصوم الاثنين والخميس، وكانت تنوي التطوع للعمل في تغسيل الموتى، ولكنها غُسِّلَت قبل أن تُغَسِّل غيرها، والمعلمات والزميلات يذكرن تقواها، وحسن خلقها وتعاملها، وقد أثرت في معلماتها وزميلاتها، في حياتها وبعد موتها)[1].

عاش على نور فمات عليه.

(يقول أحد العاملين في الإسعاف: شخص يسير بسيارته سيرًا عاديًّا، وتعطلت سيارته في أحد الأنفاق المؤدية إلى المدينة، ترجل من سيارته لإصلاح الخلل في إحدى العجلات، جاءت سيارة مسرعة، وارتطمت به من الخلف؛ سقط مصابًا إصابات بالغة.

حملناه معنا في السيارة، وقمنا بالاتصال بالمستشفى لاستقباله، شاب في مقتبل العمر، متدين، يبدو ذلك من مظهره، عندما حملناه سمعناه يهمهم فلم نميز ما يقول، ولكن عندما وضعناه في السيارة وسرنا؛ سمعنا صوتًا مميزًا، إنه يقرأ القرآن، وبصوت نديٍّ، سبحان الله!! لا تقول: هذا مصاب، الدم قد غطى ثيابه، وتكسرت عظامه، بل هو على ما يبدو على مشارف الموت، استمر يقرأ بصوت جميل، يرتل القرآن، فجأة سكت، التفتُّ إلى الخلف؛ فإذا به رافع إصبع السبابة يتشهد، ثم انحنى رأسه.

قفزت إلى الخلف، لمست يده، قلبه، أنفاسه، لا شيء، فارق الحياة، نظرت إليه طويلًا، سقطت دمعة من عيني، أخبرت زميلي أنه قد مات، انطلق زميلي في البكاء، أما أنا فقد شهقت شهقة، وأصبحت دموعي لا تقف، أصبح منظرنا داخل السيارة مؤثرًا، وصلنا إلى المستشفى، وأخبرنا كل من قابلنا عن قصته، الكثير تأثروا، ذرفت عيونهم، أحدهم بعدما سمع قصته ذهب وقبَّل جبينه، والجميع أصروا على الجلوس حتى يُصلَّى عليه.

اتصل أحد الموظفين بمنزل المتوفى، كان المتحدث أخاه الذي قال عنه: إنه يذهب كل اثنين لزيارة جدته الوحيدة في القرية، كان يتفقد الأرامل واليتامى والمساكين، وكانت تلك القرية تعرفه، فهو يحضر لهم الكتب والأشرطة، وكان يذهب وسيارته مملوءة بالأرز والسكر لتوزيعها على المحتاجين، حتى حلوى الأطفال كان لا ينساها.

وكان يرد على من يثنيه عن السفر ويذكر له طول الطريق، كان يرد عليه بقوله: إنني أستفيد من طول الطريق بحفظ القرآن ومراجعته، وسماع الأشرطة النافعة، وإنني أحتسب إلى الله كل خطوة أخطوها)[2].

---

(١) موقع طريق الإيمان، للشيخ نبيل العوضي، www.emanway.com.

(٢) من محاضرة للشيخ إبراهيم الدويش بعنوان: المحرومون.



من علامات خاتمة السعادة

وقد جعل الله تعالى ـ بكرمه ومنه ـ لخاتمة السعادة علامات وأمارات تدل عليها، وتبشر صاحبها برضوان الله تعالى عليه، فمن هذه الأمارات:

❂ **الكلمة الطيبة:** وأعظم تلك البشارات من رب الأرض والسماوات، أن يمن على عبده بمسك الختام، وهو أن يكون آخر كلامه من الدنيا كلمة التوحيد، كما قال ﷺ: ((**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**))[١].

❂ **رشح الجبين علامة المؤمنين:** لحديث بريدة بن الخطيب عن أبيه أنه كان بخراسان، فعاد أخًا له وهو مريض فوجده بالموت، وإذا هو يعرق جبينه، فقال: الله أكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**موت المؤمن بعرق الجبين**))[٢].

❂ **الليلة المباركة:** الموت ليلة الجمعة أو نهارها؛ لقوله ﷺ: ((**ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، إلا وقاه الله فتنة القبر**))[٣].

❂ **سؤال الشهادة علامة السعادة:** وعن سهل بن حنيف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**))[٤].

❂ **والباقيات الصالحات خير:** قال رسول الله ﷺ: ((**إذا أراد الله بعبد خيرًا طهَّره قبل موته**))، قالوا: وما طهور العبد؟ قال: ((**عمل صالح يلهمه إياه حتى يقبضه عليه**))[٥]، وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله**))، فقيل: كيف يستعمله؟ قال: ((**يوفقه لعمل صالح قبل الموت، ثم يقبضه عليه**))[٦].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في التلقين، (٢٧٠٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٣١١٦).

(٢) رواه أحمد، (٢١٩٤٤)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب علامات موت المؤمن، (١٨٠٥)، واللفظ لأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٦٦٦٥).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، (٩٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (١٠٧٤).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب الشهادة في سبيل الله تعالى، (٣٥٣٢).

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٧٨٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٣٠٦).

(٦) رواه أحمد في مسنده، (١١٧٦٨)، والترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابًا لأهل الجنة وأهل النار، (٢٠٦٨)، واللفظ لأحمد، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢١٤٢)، كذا في صحيح الجامع، (٣٠٥).

أسباب خاتمة السعادة

وكما كان لخاتمة الشقاء أسباب، فإن لخاتمة السعادة كذلك أسبابًا كثيرة، ترشح صاحبها أن يلحق بركب السعداء من أولياء الرحمن، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بعد أن آمنوا بربهم وكانوا يتقون، ولئن تعددت أسباب خاتمة السعادة، فإنه يمكن الجمع بينها كلها في كلمة نورانية واحدة تسمى:

الاستقامة أعظم الكرامة

فما أكرم الله تعالى عبدًا بشيء أعظم من هذه الخلة العظيمة، أن يوفقه للاستقامة على شرعه، والسير على طريقه، حتى يلقى الله تعالى وقد استعمله في طاعته، ولو تأملت في أحوال من حسنت خاتمتهم؛ لوجدت عندهم ولا بد حرصًا على طاعة مولاهم، وفرارًا من معاصيه ونواهيه، فما أجملها من حياة تلك التي ينعم صاحبها بالعيش في كنف الله ورعايته، وما أروعها من خاتمة لمن استقام على طريق مولاه حتى يلقاه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

فأولئك أهل الاستقامة الذين فازوا بخيري الدنيا والآخرة، عاشوا على طهارة الطاعة، ولم يتدنسوا بأوحال المعاصي والمخازي، منهم: (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ، لما احتضر قال: لا تبكوا عليَّ، فإني لم أتنطَّف[1] بخطيئة منذ أسلمت)[2].

وليس من شرط الاستقامة ألا يذنب العبد، وإنما المعنى أن يكون الأصل فيه الاستقامة على طاعة الله، حتى إذا زلَّت قدمه، أو أعمته سكرة شهوة في ساعة غفلة؛ فإنه لا يستمرئ الذنب، ولا يجعل منه خندقًا لا يستطيع الفكاك من حصاره، بل سرعان ما يعود إلى ربه ليغسل عنه أدران الذنوب بتوبة واستغفار، وعمل صالح مزيد يقهر به شيطانه؛ فيكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الذنب، حتى إن الشيطان ليعض أصابع الندم على أن أوقعه في هذا الذنب، الذي أثمر في قلبه ندمًا وإخباتًا، وزيادة في الطاعات والقربات؛ من أجل أن يعوض ما فات.

وها هو الله جل وعلا يصف أهل الاستقامة من عباده المتقين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(١) لم أتنطَّف: لم أتلطخ.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١/ ٢٠٤).

وأما الذين استمرءوا معصية الله، ولجُّوا في غيهم وبعدهم عن ربهم، وبارزوا مولاهم بكل قبيح، حتى زُين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنًا؛ فأنَّى لهم والاستقامة؟ وأنَّى لهم وحسن الخاتمة؟

من عاش على شيء مات عليه

وبعد أن شاهدت تلك النماذج لخواتيم الأشقياء والسعداء؛ فلا بد أن تعلم أن ربك تعالى ما هو بظلام للعبيد، بل هو سبحانه الحكم العدل، الغفور الرحيم، العزيز الحكيم، فقد أجرى الكريم عادته بكرمه، أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، ولا يظلم ربك أحدًا، فلا والله لا يستويان، لا يستوي أبدًا من عاش في الدنيا وهو يضع في مخيلته أنه مفارقها، ويعدها فرصة للتزود للقاء الله جل وعلا، في يوم لا ينفع فيه درهم ولا دينار، مع من عاش فيها وهو يعدها فرصة لانتهاب الشهوات من حلها وحرامها؛ فعاش لبطنه وفرجه، مبارزًا لربه ومولاه بكل قبيح.

وفي لحظة الخاتمة يتبين الفرق بين الأعمى والبصير، بين الظلمات والنور، بين الظل والحرور، بل بين الأحياء والأموات، فمن عاش في الدنيا أعمى البصيرة، يتخبط في ظلمات التيه عن سبيل ربه، ويتقلى في حرور المعاصي والشهوات؛ فذلك يعلم غبَّ ما صنع في تلك اللحظة الحاسمة التي يفجؤه فيها زائر الموت بسوء الخاتمة، ثم يقدم على ربه كالعبد الآبق يقدم على مولاه.

ومن أمضى أيام عمره ولياليه، متوقد البصيرة، ينعم بنور الهداية، ويرفل في ظل طاعة رب العباد؛ فذلك هو المعَسَّل المستعمَل المحبوب من ربه، الذي يجد عاقبة السعادة في لحظة الخاتمة، ويوقن أن قد صدقه الله تعالى وعده، ثم يقدم على مولاه كالغائب يقدم على أهله.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (فمن كان مشغولًا بالله وبذكره ومحبته في حال حياته؛ وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولًا بغيره في حال حياته وصحته؛ فيعسر عليه اشتغاله بالله، وحضوره معه عند الموت، مالم تدركه عناية ربه، ولأجل هذا، كان جديرًا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة، التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يعيننا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته)[1]، فاختر لنفسك تلك اللحظة التي تحب أن يفجأك فيها زائر الموت.

عائد من الموت

وهذا مسافر إلى ربه، شاء له الله تعالى أن يمر بتجربة قاسية، فيها عبرة لمن يعتبر، لقد كاد صاحبنا يلقى حتفه على حالة لا يحب أن يلقى بها ربه، ولكن الله تعالى شاء له أن يمد في عمره،

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص(٣٠٨-٣٠٩).

وأن ينسأ في أجله؛ حتى يكون له ولنا في قصته ذكرى، لكي نحسن الاستعداد ليوم الخاتمة، فدونك أخي وهذه الموعظة البليغة، عش معها بقلبك، عساك بها تعتبر.

الشيخ علي الطنطاوي يرثي نفسه[1]:

يقول رحمه الله: (**مات علي الطنطاوي**، وليس عجبًا أن يموت، والموت غاية كل حي، ولكن العجيب أن يرجع بعدما مات، ليصف للقراء الموت الذي رآه، وكان ذلك من شهرين، وكان على سيف البحر في بيروت، وكان البحر هائجًا غضبان، يرمي بأمواج كأنها الكثبان، وقد فر منه الناس فليس في الشطوط كلها، على طولها وامتدادها من سان سيمون إلى الأوزاعي إلا نفر قليل.

ولم يكن يعرف من السباحة إلا درسًا واحدًا، كان قد تلقاه من أكثر من ثلث قرن، على يد معلم لم يسبح أبدًا، هو أن يقف حيث لا يصل الماء إلى الصدر، ثم يحاول أن ينبطح، ويدع قدميه، ويخبط بيديه، ويبقى على ذلك مقدار ما يبتلع من ماء البحر - وهو كشربة الملح الإنجليزي - ما يملأ معدته وأنفه، ثم يخرج، وكان مع شاب تونسي من علماء جامع الزيتونة، ولا يمتاز في السباحة عنه إلا بأنه أجهل فيها منه، حتى هذا الدرس لم يحضره لأنه لم يكن وُلِد، فلما كبر لم يستطع أن يأخذ مثله؛ لأن ذلك المعلم كان قد مات.

ويكمل الشيخ قصته: ثم أخذت أسبح السباحة التي أعرفها: أرفع رجلي، وأحرك يدي، فإذا تعبت خرجت أستمتع بالشمس والهواء، وكنت ممتلئًا بالصحة، أكاد أتوثب من النشاط توثبًا، وكان الموت بعيدًا عن فكري، والموت أبدًا أبعد شيء في أفكارنا عنا، وإن كان أقرب شيء في حقيقته منا، نتناساه وهو عن أيماننا وشمائلنا، نشيع الجنائز ونمشي معها ونحن في غفلة عنها.

نتكلم كلام الدنيا، ونرى مواكب الموت تمر بنا كل يوم؛ فلا نفكر ولا نعتبر، ولا نقدر أننا سنموت كما ماتوا، ومات من كان أصح منا صحة، وكان أشد منا قوة وأكبر سلطانًا، وأكثر أعوانًا، فما دفعت عنه الموت لما جاءه صحته ولا قوته، ولا حماه منه سلطانه ولا أعوانه.

نعرف بعقولنا أن الموت كأس سيشرب منها كل حي، ولكننا ننسى هذه الحقيقة بشعورنا وعواطفنا، وتحجبها عنا شواغل يومنا وتوافه دنيانا، يقول كل واحد منا بلسانه: إن الموت حق، وإنه مقدَّر على كل حي، ويقول بفعله: لن أموت، لقد كتب الموت على كل نفس إلا نفسي، فلا يزال في العمر فسحة لي دائمًا، ولن يأتي أجلي أبدًا.

---

(١) نقلًا عن موقع عالم النور، www.alnoor.info، من مقالة مؤثرة نشرها الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى قبل أكثر من نصف قرن، بعد أن مر بحالة غرق كاد أن يفقد فيها حياته لولا عناية الله، يصف فيها تجربته مع الموت بعد أن عاينه، وهي والله موعظة بليغة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.



وعاودت الدخول في الماء، وأطلت البقاء فيه، وما أحسست وأنا أتزحزح شبرًا فشبرًا، أني جاوزت هذه البركة، وبلغت موضعًا من البحر عميقًا، علمت بعد أن فيه تيارًا يتحاماه السباحون القادرون، فكيف بمن لم يكن يتقن من السباحة إلا فن الرسوب؟

وحاولت الوقوف؛ فإذا أنا لا أجد الأرض الصلبة من تحتي، وحاولت أن أرفع رأسي فأنظر؛ فإذا أنا لا أجد الهواء ولا أبصر شيئًا، وأحسست أن الماء المالح قد تدفق على فمي، وأنفي، فأنا لا أملك إلا أن أبلعه وأنشقه.

وبدأت أحس آلامًا لا تصوَّر ولا توصف، ليست في الرأس، وليست في عضو من الأعضاء وحده، ولكنها في كل ذرة من جسدي وروحي، وشعرت كأن قد أُلقيت عليَّ صخرة ضخمة، وأن أعصابي تجذب من تحتها وتقلع، كما تجذب خيوط الحرير مما خالطها من الشوك.

وصار كل همي من دنياي أن أجد نسمة واحدة من الهواء فلا أجدها، فقلت: هذا هو الموت، هذا هو الموت الذي أفر من الكلام فيه والحديث عنه، والذي أراه بعيدًا عني لم يحن حينه، ولم يدن موعده، لذلك كنت أؤجل التوبة من يوم إلى يوم، أقول: إذا بلغت سن الشباب تُبت، فلما بلغتها قلت: أتوب في الأربعين، فلما جاوزتها قلت: أنتظر حتى أتم بناء الدار، فلما أتممتها قلت: أتوب وأتفرغ إلى الله إذا بلغت سن التقاعد، كأني أخذت على مَلَك الموت عهدًا، ألا يطرق بابي حتى أبلغ سن التقاعد، فها هو ذا قد جاء على غير ميعاد.

وكان أول ما خطر على بالي، أني كنت أتمنى ميتة سهلة سريعة تكون على الإيمان، وأن هذه الأمنية تلازمني من أزمان، فخشيت أن أكون قد سعيت إلى هذه الميتة فأكون ـ والعياذ بالله ـ منتحرًا.

ورحت أفكر فيما صنعته من لدن دخلت الماء؛ فإذا أنا لا أذكر من ذلك شيئًا، وإذا أنا أشعر أنه غَدَا بعيدًا عني كأنه قد كان من سنة، لا من دقائق معدودات، وصغرت الدنيا في عيني، كأني أراها من طيارة قد علت في طباق الجو، ومن كان على سفر، يسرع ليلحق القطار، هل يرى من الشوارع التي يجتازها شيئًا؟ هل يغريه منها جمال ساحر أو فن طريف؟ إنه يحس بها غريبة عنه، وأنها ليست له، يغدو منظرها في عينه كصورة زائفة، فكيف ينظر إلى هذه الدنيا من أيقن الموت؟!!

لقد محيت ـ والله ـ صورة الدنيا كلها من أمامي، ومالي وللدنيا، ولم يبق لي فيها إلا لحظات معدودات، أنا أتجرع فيها ثمالة كأس الآلام؟ لم يبق لي منها ما يغريني بها، حتى الأهل والولد شغلت بنفسي عنهم؛ فلا تصدقوا ما تقرءونه في القصص من أنَّ المشرف على الغرق يفكر في أحبائه أو في أعماله، أو في أدبه وعلمه ومقالاته وأشعاره، أو يهمه ما يقال فيه من بعده،

ربما كان ذلك من غير المسلم، أما المسلم فلا يرى في تلك الساعة إلا ما هو قادم عليه.

وازدحمت عليَّ الخواطر فيما أفعله، فحاولت التشهد والتوبة أولًا؛ فلم أستطع النطق بشيء مما كان في فمي من الماء، وازدادت عليَّ الآلام ولكنها لم تقطع خواطري، وكان ذهني في نشاط عجيب ما أحسست مثله عمري كله، وكنت بين خوف من الموت ورغبة فيه.

أرغب فيه وأرجو أن تكون هذه الميتة على الإيمان، وأخاف لأنه ليس لدي ما أُقدم به على الله، وقد فاجأني الموت، كما يفاجئ التلميذ المهمل، الذي لا يزال يؤجل المطالعة والحفظ، ويقول: الامتحان بعيد، وتمضي الأيام، حتى إذا رآه صار أمامه قطع أصابعه ندمًا، وأذهب نفسه حسرة، وما نفعه ذلك شيئًا.

هذا هو امتحان يسير، أسوأ ما فيه أن تذهب بالسقوط فيه سنة من عمره سدى، فكيف بالامتحان الأعظم، الذي ما بعده إلا النعيم الأبدي في الجنة، أو الشقاء الطويل في النار، الامتحان الذي ليس فيه إكمال ولا تعاد له دورة، ولا يجبر فيه كسر درجة، ولا تنفع فيه شفاعة شافع، ولا وساطة ذي جاه أو مال.

ورأيت موقف الحساب رأي العين، وقد شغلت كل امرئ نفسه، والناس يدعون ليأخذوا نتائج الامتحان، فمن أخذ كتابه بيمينه وحمل إلى الجنة؛ فهذا هو الفائز، ومن أخذ كتابه بشماله وسيق إلى النار؛ فهذا هو الخاسر، وهذا هو الخسران المبين.

وعرضت عملي، فلم أجد لي عملًا من أعمال الصالحين، فلا أنا من أهل المراقبة الذين لا يغفلون عن الله طرفة عين، ولا أنا من المتعبدين الذين يقومون الليالي الطوال والناس نيام، ويناجون ربهم في الأسحار، وما أنا من المتقين الذين يتجنبون المحرمات، ما أنا إلا واحد من الغافلين المذنبين، إي والله، فبم أقدم على الله؟

ونظرت فإذا كل ما ربحته من عمري لحظات، لحظات كنت أحس فيها حلاوة الإيمان، وأخلص فيها التوجه إلى الله، تقابلها عشرات من السنين كنت سابحًا فيها في بحار الغفلة، تائهًا في بيداء الغرور، أحسب من جهلي أن الأيام ستمتد بي، لم أدر أن العمر ساعات محدودة، وأن ذلك هو رأس مالي كله، فإن أضعته؛ لم يبق لي من بعده شيء.

وذكرت حديثًا كنت حفظته في صباي: ((**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**))[1]، وندمت لأنني لم أكن وضعته في صدر مجلسي، واتخذته منهجًا لحياتي، ولكني لم أعرف ـ مع

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (٧٩٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٩٨٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٣٣٥٥).

الأسف ـ معناه، ولم أدرك حقيقته إلا عندما انتهت حياتي، وفكرت فيما كنت أكابد من ألم الطاعة، فإذا الألم قد ذهب وبقي الثواب، ونظرت فيما استمتعت به من لذة المعصية، فإذا هو قد ذهب وبقي الحساب، فندمت على كل لحظة لم أجعلها في طاعة.

ونظرت؛ فإذا المقاييس كاملة تتبدى ساعة الموت، وإذا كل ما كنت أحبه وأنازع عليه قد صار عدمًا! وإذا أنا لم آخذ معي شيئًا، بنيت دارًا فما حملت معي منها حجرًا، واقتنيت مالًا فما كان لي منه إلا ما ظننت من قبل أني خسرته، وهو ما أخرجته لله، وكتبت آلافًا من المقالات في عشرات من السنين، وكان لي من القراء والمستمعين ملايين وملايين، فما نفعني إلا كلمة قلتها لوجه الله، وأين هي؟

لقد تركني هؤلاء المعجبون ـ كما يقولون ـ بأدبي وبياني أموت الآن وحدي، ما جاء واحد منهم ليأخذ بيدي، وما أقبَلَ واحد منهم يدفع الموت عني! وعرفت لذائذ الحياة كلها، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت غرقًا من لذائذ؟ وما الذي استبدلتُه بالعمل الصالح الذي لا أرجو النجاة الآن إلا به؟

لقد كان إبليس يشغلني عن الخشوع في الصلاة بالتفكير في البنطال أن يفسد كيه السجود، ويخوفني أن تذهب صحتي بقطع المنام لصلاة الفجر أو صيام أيام الحر من أغسطس، وأن أخسر حسن رأي الناس فيَّ إن جهرت بقولة الحق، أو أن ينالني من ذلك أذى في جسدي أو في رزقي! فوجدتني الآن أخسر الناس، إذ بعت الباقي بهذا الوهم الزائل، كزنوج إفريقية الذين يعطون كنوز بلادهم وخيراتها؛ ليأخذوا خرزات لَمَّاعة، أو ساعة طنَّانة، أو هَنَّة هنِّة من هنِّات الحضارة.

أما العاقل، فيبذل ما لديه من متاع، ويعلم أن الذي يعطيه اليوم، هو الذي يبقى له غدًا، وأن الذي يحتفظ به ويخفيه؛ يخسره ويخرج من يده، ويكون مستعدًا للسفر في كل لحظة، وأما الأحمق، فيتمسك بخيمته ومتاعه القليل، ويقول: أنا باقٍ هنا، هذه هي داري، وهذا متاعي، وما الدار الآخرة إلا أكاذيب جرائد، وأساطير محررين، ولن أكون أحمقًا فأبيع عاجلًا حاضرًا، بآجل موهوم، ويرى الناس يطيرون كل يوم فلا يفكر، ويظن أنه وحده هو الباقي، حتى يجيء دوره، فيحمل قسرًا لا يملك دفعًا ولا منعًا، ويخسر ما كان له في الجزيرة، ولا يلقى في أمريكا إلا جحيم الفقر والحاجة إلى الناس.

وغلبني ألم الموت، ولم يعد في طوقي أن أفكر، فترجعت إلى الله وتصورت كرمه وعفوه، وكان يغلب عليَّ الأمل وحب الحياة، فأضرب بيدي ورجلي وأرفع يميني أشير بها، ثم يدركني اليأس فأسلم أمري إلى الله، ولم أكن أتمنى بعد المغفرة إلا شيئًا واحدًا، هو أن يخفف الله عني بتعجيل موتي.

أخشى أن يطول بي هذا الألم فوق ما طال، وقد خيل إلي أني بقيت على ذلك ساعات،

ولكن تبين لي من بعد، أني لم ألبث أكثر من دقيقتين، في دقيقتين أحسست هذه الآلام، ومرَّت في ذهني هذه الخواطر، وهذا من العجائب التي أودعها الله النفس البشرية، فأنت ترى حلمًا تعيش فيه عشرين سنة بأحداثها، ولا تكون قد نمت أكثر من خمس دقائق.

ثم لما خارت قواي، وأوشكت أن أغوص فلا أطفوا أبدًا؛ خيل إلي أني أسمع أصواتًا تناديني، وأحسست بيدي تمس شيئًا صلبًا، أدركت أنه طرف من زورق، ففرحت فرحة ما فرحت قط مثلها، وشعرت أني أرفع إلى الزورق، ثم غبت عن نفسي وهم يمسكون برجلي لأخرج بعض ما في جوفي من ماء البحر.

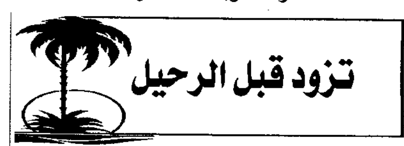
لقد خرجت بنفس جديدة، واتعظت موعظة أرجو أن تدوم لي، وعرفت قيمة الحياة وحقيقة الموت، ونحن لا نعرف من الموت إلا ظاهره دون حقيقته، نراه عدمًا، ونندب القريب والحبيب إن وضعناه في حفرة باردة، وخلَّفناه وحيدًا يأكله الدود، وليس حبيبك الذي أودعته الحفرة، ولكن جسده، والجسد ثوب يُخلع بالموت، كما تخلع الحية ثوبها، فهل يبكي أحد على ثوب خُلع؟!

وما الموت إلا انتقال إلى حياة أرحب وأوسع، إلى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل، ولو كان الموت فناء لكان نعمة.

ولو أنا إذا متنا تُركنا	لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بُعثنا	ونسأل بعدها عن كل شيء

فإذا كان الموت سفرة لا بد منها؛ فالعاقل من تهيأ لها، وأعد لها الزاد والراحلة، وذَكَرها دائمًا كيلا ينساها، ونَظَر في كل شيء، فإن كان مما يستطيع أن يحمله فيها حرص عليه، وإن كان مجبرًا على تركه وراءه؛ زهد فيه وانصرف عنه.

وبعد، فلا يهنئني أحد بالسلامة، بل ليدْعُ لنفسه ولي بحسن الخاتمة، فإني أخاف والله، ألا أجد ميتة أكون فيها حاضر القلب مع الله، مستشعرًا التوبة، متصورًا الدار الآخرة، كما كانت هذه المرة).



وبعد أيها المسافر إلى ربه، فقد آذنت شمس العمر بالمغيب، ويوشك أن ينادي عليك ملك الموت بالرحيل، فتنتقل من دار العمل إلى دار الجزاء، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، فحريٌّ بك أن تعمل لساعة الخاتمة، وأن تتزود من دار العمل قبل حلول ساعة الأجل، وليكن زادك هذه المرة:

(١) توبة نصوح تعود بها إلى ربك، تكسر بها قيود الشهوات، تدفن معها أسباب سوء الخاتمة؛ من إدمان الذنوب والمعاصي، وتعلق القلب بغير مولاه.

(٢) دعاء لربك في كل صلاة: اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك.

(٣) صحبة صالحة تعينك على الثبات في طريق الاستقامة، والوقوف في وجه الفتن والمغريات.



المرحلة الثانية: يوم السكرات

(كل يوم يقال: مات فلان وفلان، ولا بد من يوم يقال فيه: مات عمر)[(١)]

بهذه الكلمات العمرية كان الفاروق ﷺ يذكر نفسه بتلك الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، الحقيقة المُرَّة التي لا بد أن يتجرَّع من كأسها، ويذوق مرارتها كل مخلوق في هذا الكون الشاسع، الذي لا يحيط به إلا الذي أبدعه وسوَّاه.

إنه الموت أيها المسافر إلى الله، الزائر الأخير الذي لا ينجو من زيارته ملك مقرب ولا نبي مرسل، فضلًا عن سائر الخلق، فلكل بداية نهاية، ولكل أجل كتاب، والليل مهما طال؛ فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما امتد؛ فلا بد من دخول القبر.

ففي كل يوم يرحل إلى الله راحلون، يمر الموت عليك؛ فيدعك ويأخذ غيرك، وسوف يأتي يوم يمر فيه على غيرك؛ فيدعه ليأخذك، في كل يوم يقال: مات فلان وفلان، وسوف يأتي يوم يتحدث الناس بموتك أنت، وساعتها ستعلم حقيقة مكانك عند ربك.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨].

نعم، ستعلم غِبَّ الغفلة والتفريط في جنب الله تعالى إن كنت من المفرطين، وعندها ستتمنى الرجعة إلى الدنيا، فتقول حين يأتيك الموت: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

وستعلم كذلك جزاء الطاعة والاستقامة إن كنت من الصالحين، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

اذكروا هاذم اللذات، لماذا؟

وشفقة عليك - أيها المسافر - من أن يبغتك الموت وأنت على غير ما يرضي الله تعالى؛ كانت وصية الحبيب محمد ﷺ لك ولغيرك من المؤمنين أن: ((**أكثروا ذكر هاذم اللذات**))[(٢)].

فإن (لتذكر الموت أثر كبير في إصلاح النفوس وتهذيبها، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا

---

(١) شرح رسالة المسترشدين، عبد الفتاح أبو غدة، ص(١١١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ذكر الموت، (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٣٠٧).

وملذاتها، وتطمع في البقاء المديد في هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي، وقد تقصر في الطاعات، فإذا كان الموت دائمًا على بال العبد؛ فإنه يُصغِّر الدنيا في عينيه، فيسعى في إصلاح نفسه، وتقويم المعوج من أمره)[1].

وهي تُجربة الصالحين من هذه الأمة، التي يلخص لك الدقاق خلاصتها فيقول: (من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي ذكر الموت عُوجل بثلاثة: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة)[2]، فالمكثر من ذكر هاذم اللذات لا بد أن يجني ثمار ذلك الإكثار، والتي منها:

يقظة القلب.

فإن الإكثار من ذكر الموت لا بد أن يجلب اليقين به إلى القلب حتى يستقر فيه، وما ذاك إلا بمثابة الضمان الحقيقي ليقظة القلب وتَطَلُّعه إلى ما عند الله تعالى، واستعلائه على قيود الأرض، وترفُّعه على متاع الدنيا، فحين تستقر حقيقة الأجل في النفس: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وتوقن أن العمر مكتوب، والأجل مرسوم، فعند ذاك تنظر النفس ما قدمت لغد، وتنظر فيما تريد، أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان، وأن تحصر همها كله في الأرض؛ فتعيش لهذه الدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى، وإلى اهتمامات أرفع، وإلى حياة أكبر من تلك الحياة الدنيا؟

إن هاذم اللذات دائمًا ما يهتف في أذن القلب، يخبره أن الذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها؛ إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام، ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب، والذي يتطلع إلى الأفق الأعلى، ويريد ما عند ربه؛ إنما يحيا حياة الإنسان الذي كرمه الله، ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب كذلك.

حسن الاستعداد ليوم المعاد.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: ((**أحسنهم خُلقًا**))، قال: فأي المؤمنين أكيس؟، قال: ((**أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس**))[3]، وبذلك يربط النبي ﷺ بين كثرة ذكر الموت، وبين حسن الاستعداد لليوم الذي

(١) القيامة الصغرى، الدكتور عمر سليمان الأشقر، ص(٨١)، بتصرف يسير.

(٢) التذكرة، القرطبي، ص(٩).

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، (٤٢٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (٤٢٥٩).

لا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، ومن ثم فقد وصف النبي ﷺ المكثرين من ذكر الموت بأنهم الأذكياء الأكياس.

ولأجل ذلك، وجدنا سلفنا الصالح أكثر الناس للموت ذكرًا، وللمعاد استعدادًا، فكان علي ﷺ يقول: (إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى)[١].

وقال ابن مسعود ﷺ: (إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، من زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع ما زرع)[٢].

وها هو تلميذه الربيع بن خثيم رحمه الله يمتثل وصيته، حتى ليقول عن نفسه: (لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة؛ فسد عليَّ)[٣]، (وكان عمر بن عبد العزيز كل ليلة يجمع الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة)[٤].

التحرر من أسر الشهوات.

فما من قلب وجدته متعلقًا بالشهوات، عاكفًا بهمته على تحصيلها، إلا وجدت صاحبه غافلًا عن ذكر الموت، ناسيًا لمصيره المحتوم الذي أخبره به ربه جل وعلا في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

ولا شيء أنجع في علاج هذا الداء من امتثال وصية نبينا ﷺ بإكثار ذكر هاذم اللذات، الذي يقطع على العبد تلذذه بشهوات النفس الأمارة بالسوء، ويذهب ما بقلبه من طول الأمل الدافع إلى التقصير في الاستعداد لليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وبقدر ما يقصر الأمل ويتذكر الإنسان الموت؛ يكون عكوفه على القيام بحقوق الله تعالى، وتحرره من أسر الشهوات، وليس أضر على ابن آدم من طول أمله في الدنيا، إذ هو (أمل أبيض وضَّاء، كلما برق زهت في نظر صاحبه الأموال والحسان، والعطور والقصور، والمناصب والشهادات، فينسى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات دينه وربه وأمته.

لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضَّاء إنما يلفه محيط أسود حالك، يتيه فيما دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجًا تدل عليه التقوى، فهو ترقب جميل لكنه يتنغص، وظل ظليل

---

(١) شرح رسالة المسترشدين، عبد الفتاح أبو غدة، ص(١١١).
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١/ ٤٩٧).
(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم، (١/ ٢٥٦).
(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٥/ ١٣٨).



لكنه يَتقلص، ومطامع وراء الأودية والمفاوز، وليس هو لما قُدِّر له بمجاوز، أنفاسه قبل كل ذلك تُعد، ورحاله تُشد، وعاريته تُرد، والتراب من بعدُ ينتظر الخد، فإنه ليس عقبى الباقي غير اللحاق بالماضي، وعلى أثر من سلف يمشي من خلف، وما ثم إلا أمل مكذوب وأجل مكتوب.

إن هذا النظر الذي وراءه التذكر، الذي وراءه التقوى، التي وراءها الله، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا؛ فتصفيها أربع مرات، حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر، وآخر وجودها التلاشي)[1].

اقترب الوعد والقلوب إلى اللهو	وحب الحياة سائقها
ما رغبة النفس في البقاء وأن	تحيا قليلًا والموت لاحقها؟
أمامها قائد إليه ويحدوها	حثيثًا إليه سائقها
قد أيقنت أنها تصير كما	كان يراها بالأمس خالقها
وإن ما جمعت وأعجبها	من عيشة مرة مفارقها
من لم يمت عَبطَة يمت هِرمًا	للموت كأس والمرء ذائقها

فذكر الموت إذًا هو الماء البارد الذي يطفئ في قلب صاحبه نيران الشهوات؛ فيعلم حقيقتها الترابية التي صورها بعض الصالحين، حين قال وهو يناجي ربه:

إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

نعم كل الذي فوق التراب تراب أيها التراب، ذاك الذي استوقف عبد الرحمن بن عوف ﷺ، حينما قُدِّم إليه الطعام ليفطر إذ كان صائمًا، فأطرق ببصره متفكرًا؛ فعاف الطعام ثم دمعت عيناه، وهو يقول: (قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّن في بردة، إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام)[2].

لماذا نكره يوم السكرات؟

لماذا نكرهه؟! وقد خُيِّر النبي ﷺ بين البقاء في الدنيا والموت فقال: ((**بل الرفيق الأعلى**))[3]، وعلى دربه سار أصحابه ﷺ الذين كانوا يرحبون بالموت ويحسنون استقباله، مثلما كان من معاذ بن جبل ﷺ، حينما نزلت به نازلة يوم السكرات؛ فطفق يشرح لنا نظرة المؤمن الواثق بربه إلى ذلك

(١) الرقائق، محمد أحمد الراشد، ص(٧٢-٧٤)، بتصرف.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا لم يوجد إلا ثوب واحد، (١١٩٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلًا، (٣٣٩٤).

اليوم، ليكون مربيًا للأمة حتى من فوق سرير الموت، وهو يقول: (مرحبًا بالموت مرحبًا، زائر مُغبٌّ[١]، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إنك تعلم أني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار[٢]، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات[٣]، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)[٤].

ومثله أخوه بلال بن رباح ﷺ، عندما أتاه الموت فقالت زوجته: واحزناه، فكشف الغطاء عن وجهه وهو في السكرات، وقال: (لا تقولي واحزناه، وقولي وافرحاه)، ثم قال: (غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه)[٥].

تُرى: ما الفارق بيننا وبينهم؟! لماذا نكره قدومه؟! لماذا نخاف زيارته؟! لماذا يرتعد القلب وجلًا من ذكره؟! بل ويهرب الناس من مجرد اسمه، حتى إنهم يعتبرون مجرد ذكر اسم الموت فألًا سيئًا، لا شك أن من وراء ذلك أسبابًا، فمنها:

خوف المصير.

فنخاف من الموت لأننا لا ندري ما يكون بعده، فهو قنطرة؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار، إنه اللحظة الحاسمة التي يعلم فيها الإنسان مستقره الأخير، وأين هو من الفريقين اللذين ذكرهما ربنا تعالى في كتابه لما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾ [الشورى: ٧].

(قال سعيد بن أبي عطية: لما حضر أبا عطية الموت جزع منه، فقالوا له: أتجزع من الموت؟! قال: ومالي لا أجزع، وإنما هي ساعة، ثم لا أدري أين يُذهب بي؟!)[٦].

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحِلَّين تنزل

سفر طويل وزاد قليل.

فلقد علم كل منا أنه مسافر إلى ربه شاء أم أبى، وأن الطريق طويل وشاق، لا يقدر على قطعه إلا من أعد له زاده، قال ﷻ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ ﴾ [المنافقون: ١٠].

---

(١) مغب: أي قليل الزيارة.

(٢) كري الأنهار: أي حفرها.

(٣) مكابدة الساعات: أي صيام نهار الصيف، وقيام ليل الشتاء.

(٤) حلية الأولياء، أبو نعيم، (١/ ٢٣٩).

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١/ ٣٥٩).

(٦) الزهد، ابن المبارك، ص(٥٦).

وأكثرنا ـ إلا من رحم الله ـ قد قصَّر في إعداد زاد الطريق، من إقبال على طاعة الله، وفرار من معاصيه، فما ظنك برجل يقطع سفرًا طويلًا بلا زاد؟! كيف يرجو الوصول؟! وهذا هو الذي من أجله (بكى أبو هريرة ﷺ في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: ما يبكيك يا أبا هريرة؟ قال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي لبعد سفري، وقلة زادي، أصبحت في صعود مهبطه إلى جنة أو نار، فلا أدري إلى أيتهما يسلك بي؟)[١].

عشق العجوز الشمطاء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق، ويقال لهم: تعرفون هذه، فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يُقذف بها في جهنم، فتنادي: أي رب، أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله ﷻ: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها)[٢].

وأكثر الناس يعشقون تلك العجوز الشمطاء، التي هي الدنيا الغرورة، يغترون بظاهر شهواتها، وينسون حقيقة قبحها، وعاقبة الالتهاء بها؛ فيدفعهم ذلك دفعًا إلى نسيان آخرتهم بعد أن خربوها، وعمروا دنياهم، فلا عجب إذًا أن نكره الموت.

ولما سأل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أبا حازم رحمه الله قائلًا: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟! قال أبو حازم: (لأنكم عمَّرتم دنياكم، وخرَّبتم أُخراكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب)[٣].

ولا يعني ذلك أن الاشتغال بعمارة الدنيا مذموم على إطلاقه؛ بل إنه فرض كفاية كما ذكرنا آنفًا، فالدنيا مزرعة للآخرة، يقول علي ﷺ: (الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فَهِم عنها، ودار غنى وزاد لمن تزوَّد منها، ومهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة...)[٤]، وتأمل قوله ﷺ: ((**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان، أو طير، أو بهيمة؛ إلا كان له به صدقة**))[٥].

---

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم، (١/ ٢٠٠).

(٢) غذاء الألباب، السفاريني، (٤/ ١٧٨).

(٣) العاقبة في ذكر الموت، الأشبيلي، (١/ ٣١).

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، (٨/ ٨).

(٥) رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، (٢١٥٢).

فلا بد قبل العبور إلى دار البقاء من المرور على دار الفناء، فالدنيا دار ممر، والآخرة هي دار المقر، الدنيا مركب عبور لا منزل حبور، فالمطلوب إذًا أن نعمِّرها، لكن ابتغاء مرضات الله، أن نزرعها بالخيرات؛ لنحصد هناك في الآخرة نعيم الجنات، أما أن نضيِّع الآخرة انشغالًا بتعمير الدنيا؛ فذلك والله تخريب للدارين جميعًا.

مصيبة الموت

إنه حقًّا مصيبة كما سماه الله تعالى، فقال: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: (الموت هو المصيبة العظمى، والرزية الكبرى، قال علماؤنا: وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره وقلة التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر)(١).

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب　　　متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب

أتدري أيها المسافر إلى ربه، لم سماه الله تعالى بالمصيبة؟ ما ذاك إلا لأنه:

يأتي بغتة.

ها هو شاب من دمشق، يحجز مقعدًا في الطائرة، من أجل أن يسافر في مهمة عمل، فلما حان موعد نومه؛ طلب من والدته أن توقظه قبل ميعاد الإقلاع بوقت كاف؛ حتى يتسنى له أن يلحق بطائرته، وأثناء نومه علمت أمه بسوء الأحوال الجوية، بعدما أذاعت هيئة الأرصاد ذلك، فأشفقت الأم على وحيدها، وقررت أن تتجاهل طلبه؛ فتركته نائمًا حتى يضيع عليه ميعاد السفر.

فلما تأكدت من أن الرحلة قد فاتت، والطائرة قد أقلعت بركابها؛ أتت إلى ابنها لتوقظه؛ فوجدته ميتًا في فراشه!!! وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

إنه يوم السكرات، يأتي بغتة، لا يحتاج إلى استئذان، ولا يحجبه حاجب أو بواب، لا تعوزه المقدمات أو الأسباب، فكم من صحيح مات من غير علة، وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر، كم من معافى في بدنه وأهله وماله، لكنه في يوم ينام، وهو يُؤَمِّل أن يصحو كعادته كل يوم، وهو لا يدري أنه سينتقل في تلك الليلة، من الموتة الصغرى إلى الموتة الكبرى.

قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

---

(١) التذكرة، القرطبي، ص(٤).

يا من بدنياه انشغل وغره طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

يبدل كل شيء.

لحظة الموت لحظة يتبدل فيها كل شيء، تتبدل الدار؛ فإذا هي ليست كتلك الدار العامرة، ويتبدل الجسد؛ فإذا به ليس كذاك الجسد الناعم الرقيق اللين، تتبدل الدنيا كلها من حولك؛ فإذا أنت وحدك، لا أحد معك إلا ملك الموت، وملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، إنها لحظة تنتقل فيها من دار الغرور إلى دار السرور أو دار الشرور، وتعرف فيها حقارة الدنيا، وتحس فيها أنك فرطت كثيرًا في جنب الله، لحظة تحس فيها بالحسرة والألم على كل لحظة مضت في غير طاعة لمولاك.

إنها لحظة حاسمة، وساعة قاصمة، يدنو فيها ملك الموت لكي ينادي عليك، إما نداء النعيم وإما نداء الجحيم! وفي لحظة واحدة: تسلم روحك إلى بارئها: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠].

لا يحابي أحدًا.

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فكل نفس آمنت أم كفرت، كبرت أم صغرت، عمّرت قليلًا أو كثيرًا، لا بد أن تذوق هذه السكرة، وتواجه ذلك اليقين، (إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس، حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة محدودة بأجل، ثم تأتي نهايتها حتمًا، يموت الصالحون ويموت الطالحون، يموت المجاهدون ويموت القاعدون، يموت المستعلون بالعقيدة، ويموت المستذلون للعبيد.

يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن، يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص، الكل يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع)[١].

ولو كان هناك أحد حاز الخلود والبقاء في دار الفناء، لكان الحبيب المصطفى ﷺ أولى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٥٣٨).

بذلك من غيره، ولكنه والله ما نجا من الموت، كيف وقد نعى إليه ربه نفسه الشريفة، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠].

بل إن ملك الموت نفسه سيموت، في يوم سينادي فيه الملك جل وعلا، فيقول: لمن الملك اليوم؟ لمن الملك اليوم؟ فما من سامع يومها في هذا الكون الرحيب، وما من مجيب، حتى يجيب الواحد الأحد نفسه بنفسه، فيقول جل وعلا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر:١٦].

الرسائل الربانية

ورغم أن مصيبة الموت تأتي بغتة، إلا أن البصير الحاذق ليقرأ بين ثنايا أحداث الحياة رسائل ربانية، تبلغه قرب الأجل، وتحذره سوء العمل، ومغبة التفريط في جنب ربه ﷻ، فمن هذه الرسائل:

رسول الموت.

أرأيت إلى بناء قديم، عندما تتصدع جدرانه، وتتشقق حوائطه، أليس ذلك إيذانًا بسقوط ذلك البناء، يدفع أهله دفعًا إلى محاولة الاستدراك والترميم؟

فكذلك المرض حين يصيب ابن آدم، إنه إنذار من الله تعالى للعبد، أن قد تكون لحظة منيته قد حانت، فليتب وليستعد، وليرمم بناء إيمانه الذي تصدع من طول بعده عن ربه ومولاه، فكم من مرة أيها الحبيب، أتتك رسالة ربانية من مولاك في صورة مرض ألمَّ بك، يذكرك فيها بوشك الرحيل، وما تتذكر أو تنيب؟! فإن قلت: لم يصبني؛ فنسوق إليك نداء مالك بن دينار، لما دخل الناس يعودونه في مرض موته، فقال: (يا إخوتي، يا إخوتي، هبوني وإياكم سألنا الله الرجعة، فأعطاكموها ومنعنيها، فلا تخسروا أنفسكم)[1]، فإن لم تستجب لذلك النداء، فأنصت للحسن البصري في هذا التحذير حين قال: (من لم يمت فجأة مرض فجأة؛ فاتقوا الله واحذروا مفاجأة ربكم)[2].

إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع نَحْب قد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان أبرأ مثله فيما مضى
مات المداوِي والمداوَى والذي ... حمل الدواء وباعه ومن اشترى

بياض المشيب.

أيها المسافر، هل خط الشيب فوديك؟ هل اشتعل رأسك شيبًا؟ إن قلت: نعم؛ فماذا إذًا تنتظر؟ إن الشيب كالمرض، رسول من رسل الموت، يخبرك فيه بقرب زيارته لك، فماذا أعددت

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ٣٦٨).
(٢) سكب العبرات، العفاني، (١/ ٣٧٤).

لهذا الزائر الذي لا زائر بعده، ولا تملك له دفعًا أو اعتذارًا؟ واسمع إلى الحسن البصري وهو ينادي: (يا معشر الشيوخ: ماذا ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد)[١].

إذا الرجال ولدت أولادها	وبليت من كِبَر أجسادها
وأصبحت أمراضها تعتادها	تلك زروع قد دنا حصادها

فإن قلت: ما زلت شابًّا، لم يعرف إليَّ الشيب سبيلًا؛ فاسمع إليه يناديك مرة أخرى: (يا معشر الشباب، إن الزرع قد تبلغه العاهة قبل أن يبلغ)[٢].

واعتبر بما قاله الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان ﷺ عند موته لمن حوله: (أجلسوني، فأجلسوه، فجلس يذكر الله تعالى، ثم بكى وقال: الآن يا معاوية، جئت تذكر ربك بعد الانحطام والانهدام؟! أما كان هذا وغُصن الشباب نَضِر رَيَّان؟!

ثم بكى وقال: يا رب، يا رب، ارحم الشيخ العاصي، ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وجد بحلمك، على من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب)[٣].

رحيل الأحباب.

أخي الحبيب، ألم يمت لك قريب أو صديق؟! أب أو أم، أخ أو أخت، زوجة أو ابن، خال أو عم، صاحب أو رفيق؟! إن وفاة أي واحد من هؤلاء ما هي إلا رسالة من ربك، تهتف في أذن قلبك: كان الموت قريبًا منك، فمر عليك وأخذ هذا القريب أو ذلك الرفيق، وكدت أن تكون أنت السواد المختطف، لكن ربك أمهلك، وأعطاك فرصة أخرى علك تتوب وتئوب؛ فماذا أنت فاعل؟

(جاء رجل إلى الفضيل بن عياض، فقال له: أوصني، قال: هل مات والداك؟ قال: نعم، فقال: فقم عني، فإن من يحتاج إلى من يعظه بعد موت والديه لا تنفعه موعظة)[٤].

وجاءت سكرة الموت

((لا إله إلا الله، إن للموت سكرات))[٥].

يقولها ﷺ عند موته، وقد اختار الرفيق الأعلى، واشتاق إلى لقاء الله تعالى، فكيف بمن عداه؟ كيف بمن ظلم نفسه بمعصية الله؟ أو ظلم غيره بسلب حقوقه أو إيذائه؟ كيف يجد

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، (٢/ ٣٨٢).

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، (٢/ ٣٨٢).

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٣/ ١٦٠).

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص(٢١٠).

(٥) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤٠٩٤).

ذلك المسكين سكرات الموت؟ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

وتعال بنا أيها الحبيب في جولة نبوية، مع حديث مهيب من أحاديث حبيبك ﷺ يصف لك فيه تلك اللحظات، التي يتجرع فيها البشر جميعًا ـ طائعهم وعاصيهم ـ مرارة السكرات، فمنهم الشقي ومنهم السعيد، ولا يستويان عند الله.

ما يراه الشقي عند الموت.

فأما المسافر العاصي الذي قطع أيامه ولياليه في بعد عن ربه؛ فيصف لنا ﷺ حاله في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: **((... وإن العبد الكافر ـ وفي رواية: الفاجر ـ إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المُسُوح[1] من النار، فيجلسون منه مَدَّ البصر.**

ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتُفرَّق في جسده؛ فينتزعها كما ينتزع السَّفُود الكثير الشِّعْب من الصوف المبلول؛ فتقطع معها العروق والعصب؛ فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء.

وتُغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تَعرُج روحُه من قِبَلهم، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض.

فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، حتى يُنتَهى به إلى السماء الدنيا، فيُستَفتح له؛ فلا يُفتَح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى...))[2].

---

(١) جمع المِسح، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفًا وقهرًا للبدن.

(٢) رواه أحمد في مسنده، (١٧٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٦٧٦)، وفي أحكام الجنائز، ص(١٥٨).



ما يراه السعيد عند الموت.

وأما المسافر الطائع، الذي أمضى ساعات عمره ولياليه فيما يرضي مولاه؛ فيقول عنه ﷺ: ((... إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر.

ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة ـ وفي رواية: المطمئنة ـ اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السقاء، فيأخذها.

وفي رواية: ((... حتى إذا خرجت روحه؛ صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، أن يعرج بروحه من قِبَلهم...)).

فإذا أخذها؛ لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم.

فيُشَيِّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ١٩ - ٢١]...))[1].

عمرو يصف السكرات.

(لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة؛ قال له ابنه عبد الله: يا أبتاه، إنك قد كنت تقول لنا: يا ليتني كنت ألقى رجلًا عاقلًا عند نزول الموت؛ حتى يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل؛ فصف لي الموت، قال: والله يا بني لكأن جنبي في تخت[2]، وكأني أتنفس من سَمِّ إبرة، وكأن غصن الشوك يجر به من قدمي إلى هامتي، ثم قال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده، (١٧٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٦٧٦)، وفي أحكام الجنائز، ص(١٥٨).

(٢) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

ليتني كنت قبل ما بدا لي   في قلال(١) الجبال أرعى الوعولا

والله، ليتني كنت حِيَضًا(٢) أعركتني(٣) الإماء بدريب الإذخر(٤))(٥)، هذا لعمرو التقي الصالح، فكيف بمن هو دونه من أمثالنا؟

القرآن خير واعظ.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

هكذا جاءت إليك سكرة الموت بالحق، فكشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، فذلك الموت الذي كنت منه تفر قد جاءك؛ فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص، (والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه، أو يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنَّى له ذلك: والموت طالب لا يمل الطلب، ولا يبطئ الخطا، ولا يخلف الميعاد، وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩] وإنه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة، فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات؟!!)(٦).

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

إذا بلغت روح ابن آدم التراقي عند مماته، وحشرج بها وقيل: هل من راقٍ يرقي؟ هل من طبيب يشفي؟ من ذا يرقيه ليشفيه؟ وطلبوا له الأطباء والمداوين؛ فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئًا.

إن الطبيب له علم يدل به   ما كان للمرء في الأيام تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حار الطبيب وخانته العقاقير

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾: أيقن أنه فراق الدنيا والأهل والمال والولد، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي التقى آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة، وحينها أين تذهب؟ أين تفر؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ فيا له من مشهد.

---

(١) القلال: جمع قلة، وقلة كل شيء: قمته وأعلاه.

(٢) الحِيَض: الخرق التي تمسح بها النساء دم الحيض.

(٣) عركه: أي دلكه.

(٤) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٥) كتاب المحتضرين، ابن أبي الدنيا، ص(٩٣).

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٣٦٤).



(إنه مشهد الموت، الموت الذي ينتهي إليه كل حي، والذي لا يدفعه عن نفسه، ولا عن غيره حي، الموت الذي يُفرِّق الأحبة، ويمضي في طريقه لا يتوقف ولا يتلفت، ولا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق، ولا لرغبة راغب، ولا لخوف خائف، الموت الذي يصرع الجبابرة، بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

إنه مشهد الاحتضار، يواجههم به النص القرآني كأنه حاضر: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾، وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار.

ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾: لعل رقية تفيد! وتَلوَّى المكروب من السكرات والنزع ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، وبطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يساق إليه كل حي في نهاية المطاف: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾)[(1)].

فيا لها من ساعة لا تشبهها ساعة، يألم فيها أهل التقى، فكيف بأهل الإضاعة؟ فمن لك أيها المسافر إذا ألَمَّ الألم، وسكت الصوت، وتمكن الندم، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت؟ وتبدلت بعد الحركات السكون؟ من لك عند كرب السياق، وترادف الحشارج، وتتابع الأنين، واختلاف الأضلاع، واصطكاك الأسماع.

وقد أتوا بطبيب كي يعالجني	ولم أر الطبيب اليوم ينفعني
واشتد نزعي وصار الموت يجذبها	من كل عرق بلا رفق ولا هَوَن
واستخرج الروح مني في تَغَرغُرها	وصار في الحلق مرًّا حين غرغرني
وسل روحي وظل الجسم منطرحًا	على الفراش وأيديهم تقلبني

هذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه، فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي؟

إنها الحال التي تعجب منها الحارث المحاسبي رحمه الله؛ فقال لصاحبها يعظه ويذكره: (فقد عجبت كيف تقر عينك؟ أو كيف يزايل الوجل والإشفاق قلبك؟ وقد عصيت ربك، واستوجبت بعصيانك غضبه وعقابه، والموت لا محالة نازل بك، بكربه وغصصه، ونزعه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٧٧٢).

وسكراته، فكأنك قد نزل بك وشيكًا سريعًا.

فتوهم نفسك، وقد صرعت للموت صرعة، لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك، وتوهم نفسك في نزع الموت، وكربه وغصصه، وسكراته وغمه وقلقه، وقد بدأ الملك يجذب روحك من قدمك، فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك، ثم تدارك الجذب، واستحث النزع، وجذبت الروح من جميع بدنك؛ فنشطت من أسفلك، متصاعدة إلى أعلاك.

حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه، وعمت آلام الموت جميع جسمك، وقلبك وجل، محزون مرتقب، منتظر للبشرى من الله ﷻ، بالغضب أو بالرضا، وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين، من الملك الموكل بقبض روحك، فبينما أنت في كربك وغمومك، وألم الموت وسكرته، وشدة حزنك لارتقابك إحدى البشريين من ربك؛ إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت، بأحسن الصورة أو بأقبحها، ونظرت إليه مادًّا يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك؛ فذلت نفسك لما عاينت ذلك، وعاينت وجه ملك الموت، وتعلق قلبك، بماذا يفجؤك من البشرى منه؟

فإذا سمعت صوته بنغمته: أبشر يا ولي الله، برضا الله وثوابه، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه، فتستيقن حينئذ بنجاحك وفوزك، ويستقر الأمر في قلبك؛ فتطمئن إلى الله نفسك، أو تستيقن بعطبك وهلاكك، ويحل الإياس قلبك، وينقطع من الله ﷻ رجاؤك وأملك؛ فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن، أو الفرح والسرور قلبك، حين انقضت من الدنيا مدتك، وانقطع منها أثرك، وحملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك، وتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحًا وسرورًا، أو ملئ حزنًا وعبرة)[(١)]، فاعمل أيها المسافر لهذه اللحظة، ويا لها من لحظة!!

كيف نذكر الموت؟

بعد أن عشنا سويًّا أحداث يوم السكرات، وعاينا ما فيه من كرب وشدائد؛ فحريٌّ بك أيها المسافر، أن تكون من الأكياس، الذين امتثلوا وصية الصادق الأمين ﷺ، عندما أوصانا بالإكثار من ذكر هاذم اللذات، فإذا أردت أن تكون من هؤلاء؛ فدونك وهذه الوسائل العملية؛ لتعينك على ذكر الموت، طلبًا لصلاح قلبك، ورضا ربك:

الوسائل العملية لذكر هاذم اللذات:

زيارة محلة الأموات.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإن في زيارتها تذكرة**))[(٢)]، فإن زيارة القبور علاج ناجع لمن قسا قلبه، وغفل عن ذكر ربه، فبين القبور

(١) التوهم، الحارث المحاسبي، ص(٣-٧).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور، (٢٨١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٣٢٣٥).



يتذكر الزائر أقرانه وأقاربه ممن سبقوه إليها، (فمهما تذكر رجل رجلًا، وفصَّل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده، وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه، من الموت الذريع، والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد، والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق، وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك، وقد أكل التراب أسنانه.

وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه؛ فانكشفت له صورة الملك، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم)[١].

وإذا ذهبت إلى زيارة محلة الأموات؛ فأحضر في نفسك نداء ابن الجوزي لك، إذ يبين لك سبيل الانتفاع بالزيارة فيقول: (يا أخي، إذا أردت أن تدري كيف حالك من بعدك؛ فاخرج إلى القبور، وانظرها وقد عَفَت، ومَثِّل قبرك بينها، ثم انظر ماذا تحتاج إليه في قبرك؟ فأكثر منه لطول مدتك فيه، وهو العمل الصالح، فأما ما سوى ذلك؛ فما لك حاجة في شيء من أمور الدنيا، فإنه يصير عليك وبالًا في قبرك وحسرة، وانظر حالك الذي أنت عليه، إن كان يصلح للموت والقبر فتمادى عليه، وإن كان لا يصلح لهذين فتب إلى الله تعالى منها، وارجع إلى ما يصلح)[٢].

تغسيل الموتى واتباع الجنائز.

ولعل ذلك أبلغ في الموعظة والتذكر، فإنه ليس الخبر كالعيان، فإذا ما رأى الإنسان منظر الميت وهو يغسل، ثم وهو يكفن، ثم اتبع جنازته، ورآه وهو يُلحد في قبره، ثم يُهال على جسده التراب؛ فإن ذلك يلخص أمامه في صورة عملية حقيقة هذه الدنيا التي يتقاتل عليها الناس، وينسون من أجل شهواتها أحداث يوم السكرات.

تذكر ساعة الاحتضار ومشاهدة المحتضرين.

(فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته؛ ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب)[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٥/ ١١١٤).

(٢) بستان الواعظين، ابن الجوزي، ص(٢٦٨).

(٣) التذكرة، القرطبي، ص(١٢).

وسر تأثير هذا المشهد في القلوب أنه (عندما يفيق المحتضر عند موته؛ فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًا لا يُحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو تُرك كي يتدارك ما فاته ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في العافية؛ حصل كل مقصود من العمل بالتقوى، فالعاقل من مثل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك، فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته؛ تخايله على قدر يقظته، فإنه يَكُفُّ الهوى، ويبعث على الجد، فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه؛ كان كالأسير لها)[١].

وهذا ما حدث مع الحسن البصري رحمه الله حين (دخل على مريض يعوده؛ فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه)[٢].

مدرسة الموت

وتعال بنا الآن أيها المسافر، قبل أن نغادر المرحلة الأولى في رحلتنا إلى دار القرار، ندخل مدرسة الموت، تلك المدرسة التي تخرَّج منها الصالحون من قبلنا؛ فخضعت منهم النفوس، ورَقَّت منهم القلوب لعلام الغيوب، تعال لنعش هذه اللحظات مع تلك الأنفس العظيمة؛ لنرى كيف كان حالهم في يوم السكرات.

خير البشر يذوق السكرات.

في لحظة بكت فيها الأرض والسماوات لفراق أعظم وأطهر وأنبل مخلوق عرفه الكون، في اللحظة التي جاء فيها أمين السماء جبريل إلى أمين الأرض محمد ﷺ يستأذنه أن يدخل عليه ملك الموت، في تلك اللحظة الرهيبة، نزلت سكرة الموت بخير الخلائق أجمعين، حتى لقد جعل رسول الله ﷺ يدخل يديه في ركوة فيها ماء؛ فيمسح بالماء وجهه، وهو يقول: ((**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**))[٣].

وحانت اللحظة الأخيرة، وجاءت تلك الساعة التي فارقت فيها أعظم روح أطهر جسد، فشَخُص بصر رسول الله ﷺ، وتحركت شفتاه قائلًا: ((**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين**

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص(٢١٢-٢١٣).

(٢) التذكرة، القرطبي، ص(٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤٠٩٤).

والصديقين والشهداء والصالحين))[١]، **((اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى))**[٢].

وفاضت روح خير خلق الله، فاضت أطهر روح خُلِقَت إلى ربها، فاضت روح من أرسله ربه رحمة للعالمين، فاضت روح خليل الله وحبيبه، فهل تظن بعد ذلك أنك ستخلد؟ لقد كانت هذه الواقعة إعلامًا من الله تعالى إلى كل الخلق، أن الموت لا يحابي أحدًا، وبها يدرك كل مسافر إلى ربه معنى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقوله ﷺ: **((أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس))**[٣].

ويلي إن لم يرحمني ربي.

(لما طُعن عمر ﷺ جاء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال: يا أمير المؤمنين، أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، وقُتلتَ شهيدًا، ولم يختلف عليك اثنان، وتُوفِّيَ رسول الله ﷺ وهو عنك راض، فقال له: أعد مقالتك، فأعاد عليه، فقال: المغرور من غررتموه، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال: ضع رأسي على الأرض، فقلت: ما عليك كان على الأرض أو كان على فخذي؟ فقال: لا أم لك، ضعه على الأرض، فقال عبد الله: فوضعته على الأرض، فقال: ويلي وويل أمي؛ إن لم يرحمني ربي)[٤].

سلمان وزاد الراكب.

(بكى سلمان الفارسي عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله ﷺ، أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب، وحولي هذه الأزواد، وقيل: إنما كان حوله إجانة[٥] وجفنة[٦] ومطهرة[٧])[٨].

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، (٤٢٢٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، (٣٤١٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٤٩٦).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، (٤٤٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٨٣١).

(٤) حلية الأولياء، أبو نعيم، (١/ ٥٢).

(٥) الإجانة: إناء يجمع فيه الماء.

(٦) الجفنة: القصعة يوضع فيها الماء والطعام.

(٧) المطهرة: إناء يتطهر فيه.

(٨) حلية الأولياء، أبو نعيم، (١/ ١٩٥-١٩٦).

تلك الدار الآخرة.

(لما حضر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الموت قال لبنيه ـ وكان مسلمة بن عبد الملك حاضرًا ـ: يا بَنيَّ، إني قد تركت لكم خيرًا كثيرًا، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًا، يا بَنيَّ، إني قد خيرت بين أمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا، ذلك أحب إليَّ، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله، قوموا عني، فإني أرى خلقًا ما يزدادون إلا كثرة، ما هم بجن ولا إنس، قال مسلمة: فقمنا وتركناه، وتنحينا عنه، وسمعنا قائلًا يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]، ثم خفت الصوت، فقمنا فدخلنا، فإذا هو ميت مغمض مسجى)[١].

لمثل هذا فليعمل العاملون.

أما الإمام المبارك، عبد الله بن المبارك، ذلك العالم العابد الزاهد المجاهد (حينما جاءته الوفاة اشتدت عليه سكرات الموت ثم أفاق، فرفع الغطاء عن وجهه، وابتسم قائلًا: لمثل هذا فليعمل العاملون، لا إله إلا الله، ثم فاضت روحه)[٢].

الموت على مذهب الشافعي.

و(دخل المزني على الإمام الشافعي في مرضه الذي توفي فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال الإمام الشافعي رحمه الله: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها؟ أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما[٣].

هلك عني سلطانيه.

(أما الخليفة هارون الرشيد أمير المؤمنين، حينما حضره الموت قال: أنزلوني من على السرير، فأنزلوه على الأرض، فوضع خده على التراب، وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال

---

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم، (٢/ ٤٢١)، صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ٢٠٣)، بتصرف.

(٢) العاقبة في ذكر الموت، الأشبيلي، ص(١٤٥).

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ٣٢٦).

ملكه، ولما احتضر الخليفة هشام بن عبد الملك، نظر إلى أهله، يبكون حوله، فقال: جاء هشام إليكم بالدنيا، وجئتم له بالبكاء، ترك لكم ما جمع، وتركتم له ما حمل، ما أعظم مصيبة هشام إن لم يرحمه الله)[١].

ماذا أعددنا ليوم السكرات؟؟

(قال عبد الرحمن بن يزيد لرجل يعظه: يا فلان، هل أنت على حال ترضى فيها الموت؟ قال: لا، قال: فهل أَجمعتَ لِنَقْلة إلى حالٍ ترضى فيها الموت؟ قال: لا، ما سنحت نفسي لذلك بعد، قال: فهل بعد الموت دار فيها مستعتب؟ قال: لا، قال: فهل تأمن الموت بغتة؟ قال: لا، قال: ما رأيت مثل هذه الحال رضي بها عاقل)[٢]، فالعاقل هو الذي يتوب قبل الموت، بحيث لو قيل له: إنك تموت الساعة؛ فإنه لا يجد عنده ذنبًا يحتاج إلى التوبة منه؛ فيسأل الإمهال من أجله.

فَهِمَ هذا بشر بن الحارث رحمه الله، فكان إذا ذكر عنده الموت يقول: (ينبغي لمن علم أنه سيموت، أن يكون بمنزلة من جمع زاده؛ فوضعه على رَحلِه، ولم يدع شيئًا مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه)[٣]، ومن ثَمَّ يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: (والواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدري متى يستدعيه للقائه؟

وإني رأيت خلقًا كثيرًا غرَّهم الشباب، ونسوا فقد الأقران، وألهاهم طول الأمل، وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغل بالعلم اليوم، ثم أعمل به غدًا، فيتساهل في الزلل بحجة الراحة، ويؤخر الأهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها، ومن كسب شبهة، يأمل أن يمحوها بالورع، وينسى أن الموت قد يبغته.

فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإن بغته الموت؛ رُؤي مستعدًّا، وإن نال الأمل؛ ازداد خيرًا)[٤].

وإذا كان الأمر كذلك (فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تمس حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقًا فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك، وإياك والتسويف، فإنه أكبر جنود إبليس)[٥]، فليس لك أيها الحبيب، من زاد لهذا

---

(١) الأنباء في تاريخ الخلفاء، ابن العمراني، ص(١٠٤).

(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر، (٣٦/ ٧٣).

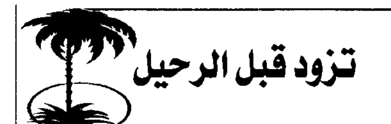
(٣) التبصرة، ابن الجوزي، ص(٢٧٨).

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص(١٨).

(٥) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص(٢٤٩-٢٥٠).

اليوم العصيب إلا تقوى الله الكريم، ولا من ملجأ إلا باب ربك الرحيم، فقم الآن من فورك، وناج ربك، وألح عليه بالإنابة والاستغفار، وانطرح بين يديه تعالى، تناجيه بكلمات الاعتذار، ترافقها دموع الندم:

إلهي تحملنا ذنوبًا عظيمة	أسأنا وقصرنا وجودك أعظم
سترنا معاصينا عن الخلق جملة	وأنت ترانا ثم تعفو وترحم
لك الحمد عامِلنا بما أنت أهله	وسامح وسلمنا فأنت المُسلِّم[1]



على المسافر الحريص أن يأخذ زاده من هذه المحطة، والذي يتمثل في:

(١) زيارة لعنبر الحروق في أي مستشفى.

(٢) انتهاز فرصة لحضور ساعة احتضار مريض، أو مشاركة في تغسيل ميت.



(١) العاقبة في ذكر الموت، الأشبيلي، ص(٢١٨).

المرحلة الثالثة: الواعظ الصامت

أتدري أيها المسافر، من هو ذلك الواعظ الصامت؟! (إنه ما يفتأ صامتًا لا يتكلم، ولكن صوته في أعماق الناس أعلى من صوت أي واعظ جهوري الصوت، تراه على منبر الخطابة في كل جمعة، إنه لا يملك العبارات المنمقة المصفوفة، ولكن منظره أعمق تأثيرًا من كل عبارات الوعاظ، هو لا يحرِّك يديه ولا وجهه يمنة ولا يسرة؛ ليجذب جمهور المستمعين والمشاهدين لخطبته؛ لأن الجاذبية التي تركَّزت فيه تجذب القلوب قبل الأجساد)[1].

إنه تلك الحفرة، التي سيعلم الإنسان فيها النتيجة الأولية للاختبار الذي طالما خاضه في لحظات أيامه ولياليه، إنه تلك الحفرة التي لا بد أن يسكنها كل منا في يوم من الأيام، إنه:

أول منازل الآخرة

القبر أيها الحبيب، تلك الحفرة الصغيرة التي يتضاءل أمامها كل بناء عَمَّره بشر ولد للموت أو بَنَى للخراب، حفرة صغيرة، جعلت عثمان بن عفان ﷺ يقف أمامها باكيًا، تهطل دموع الإشفاق على لحيته، حتى تَعجَّب منه أصحابه فسألوه: يا عثمان، تذكر الجنة والنار فلا تبكي، فإذا وقفت على القبر تبكي؟!

فقال عثمان ﷺ يفضي إلينا بسر القبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**))[2].

ومالِ ذي النورين ﷺ لا يبكي أمام تلك الحفرة، وقد بكى أمامها من هو خير منه، بل خير مخلوقات الله أجمعين، في مشهد ينقله لنا البراء بن عازب ﷺ إذ يقول: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ أبصر بجماعة، فقال: ((**علام اجتمع هؤلاء؟**)) قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه، لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: ((**أي إخواني، لمثل اليوم فأعدوا**))[3].

فيا لَلقبر من منظر ما أفظعه، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: ((**ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه**))[4]، من أجل ذلك كانت وصية الحبيب ﷺ لك بزيارة القبور، رديفة لوصيته إياك

---

(١) واحات الإيمان، عبد الحميد البلالي، ص(١١٣)، بتصرف يسير.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت، (٢٢٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٣٠٨).

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، (٤١٨٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (٤١٩٥).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ماجاء في ذكر الموت، (٢٣٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٣٠٨).

بالإكثار من ذكر هاذم اللذات: ((**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**))[١].

وما ذاك إلا لما بيَّناه لك من قبل، من أنه أول منازل الآخرة، فإن نجا منه؛ فما بعده أيسر، وإن كانت الأخرى؛ فما بعده أشد عياذًا بالله، فيا لله كم في القبور من أفراح وأتراح، ونعيم وجحيم، كم من قبور ملئت على أهلها نعيمًا وحبورًا، وكم من أخرى بجوارها ملئت على سكانها نيرانًا وسعيرًا.

سألت الدار تخبرني ... عن الأحباب ما فعلوا؟
فقالت لي: أقام القوم ... أيامًا وقد رحلوا
فقلت: وأين أطلبهم؟ ... وأي منازل نزلوا؟
فقالت: في القبور وقد ... لقوا والله ما عملوا

في الطريق إلى الواعظ الصامت

وقبل الوصول إلى حفرة ذلك الواعظ الصامت، لا بد أن تظهر بشارات للعبد إما بالأفراح أو بالأتراح، فإن الله تعالى من تمام عدله أنه لا بد أن يجازي كل إنسان على حسب كسبه، في كل مرحلة من مراحل عمره، لذا؛ كان يوم الجنائز يومًا مشهودًا، فما أحلاه من يوم للطيبين الصالحين، وما أَمَرَّه من يوم للعاصين الطالحين.

إنه يوم سيخرج كل إنسان فيه من بيته في رحلة لا يعود منها أبدًا، وسيركب مركبًا لا يركب مثله أبدًا، مركب يُحمَل فيه على الأعناق، لا كما كان يحملون المشاهير في الدنيا، وإنما سيُحمَل مغطًّى مسجًّى في ظلمات النعش من بعد ظلمات الكفن، ليوضع في ظلمة اللحد، ظلمات بعضها فوق بعض، في يوم من لم يجعل الله له فيه نورًا؛ فما له من نور.

مستريح أو مستراح منه.

إن الناس في الدنيا قد يصيبهم الهم والنصب، حتى تصغر في أعينهم مصيبة الموت؛ فيقول أحدهم إذا ما علم بموت أحد من الناس: فلان مات واستراح، يحسب ذلك المسكين أن الراحة هي أن يستريح الإنسان من داء عضال أصابه في بدنه، أو هم أو مصيبة ألَمَّت به في ماله أو ولده.

ومن ثم يصحح النبي ﷺ هذا المفهوم، فيقول فيما نقلته الصديقة عائشة رضي الله عنها، قالت: قيل: يا رسول الله، ماتت فلانة واستراحت، فغضب رسول الله ﷺ، وقال: ((**إنما يستريح من غُفر له**))[٢].

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة القبور، (١٥٥٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (١٥٦٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده، (٢٣٥٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٧١٠).

وعن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، فقال: ((**مستريح ومستراح منه**))، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: ((**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**))[1].

وإذا كان الناس قد ينخدعون بمظهر فلان من الناس فيثنون عليه خيرًا، وهو على غير ذلك، فإن للسماء والأرض بصيرة نافذة لا تخدعها المظاهر، تستطيع معها أن تُميِّز بين كل صالح وطالح؛ فتخصُّ المؤمن الصالح بالبكاء والحزن؛ لما كان يصنع عليها من طاعة لربها تبارك وتعالى، وتخصُّ الطالح بالإهمال والاحتقار؛ لما كان يبارز الله فيها بالقبائح.

ويشرح ذلك علي بن أبي طالب ﷺ فيقول: (إن المؤمن إذا مات؛ بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، قال تعالى: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ** ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].

ويُكمِل مجاهد رحمه الله لنا الصورة فيقول: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، فقيل له: أَوَتبكي؟ قال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل؟!)[2].

فالصالح تبكي لموته السماء وأهلها، ويوم موته جنازة لأهل الأرض، والطالح يوم موته عيد لأهل الأرض، يستريحون منه ومن أذاه.

وفي هذا اليوم أيها المسافر، لا ينفعك من البشر إلا صحبة صالحة من المؤمنين، تصلي عليك، وتستغفر لك ربك، كما قال رسول الله ﷺ: ((**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه**))[3].

تُرى: لو مِتَّ الآن أيها الحبيب، فمن سيصلي عليك؟ من سيشيع جنازتك؟! رفقاء المساجد الصالحون من إخوانك المؤمنين؟ أم رفقاء اللهو واللعب والسهو والغفلة؟! فتخيَّر لنفسك، وأعدَّ من اليوم قائمة بمن سيصلي عليك، عساك تنجو يومها، وتكون ممن تقول فيه جنازته:

قدموني قدموني.

وما بال جنازة المؤمن لا تتعجل لقاء الله فتقول: (قدموني، قدموني) وهو يقدم على روح وريحان، وربٍ راضٍ عنه غير غضبان، فحُقَّ له أن يتعجل، وحُقَّ له أن يتمنَّى سرعة الإقامة في

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، (٦٠٣١).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، (٧/ ٣٤٥)، بتصرف يسير.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، (١٥٧٧).

أول منزل نعيم مؤقت، ريثما تقوم الساعة ويُذهَب به إلى دار النعيم المقيم.

ومن هؤلاء السعداء كان سعد بن معاذ ﷺ، الذي وافق اسمه مصيره، كان سعدًا في الدنيا، يرفل في نعيم سعادة القرب من الله ورسوله ﷺ، فغدا سعدًا في الآخرة، عندما بدت أول تباشير سعادته الأبدية في يوم جنازته الفريدة، فيوم مات متأثرًا بكلوم الشهادة في سبيل الله، حمل المؤمنون جنازته فقالوا: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخف علينا منه.

قال ﷺ: ((**ما يمنعكم من أن يخف عليكم، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، لم يهبطوا قط قبل يومهم، قد حملوه معكم**))[١]، واسمع إلى ذلك التوكيد العددي من رسول الله ﷺ حين يقول فيه: ((**هذا الذي تحرك له العرش، وفُتِحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة...**))[٢].

وإذا تساءلت عن ذاك السر الذي يجعل مخلوقًا من أعظم مخلوقات الله مثل العرش يهتز لبشر مثل سعد؛ يُنبيك الإمام ابن القيم رحمه الله عن ذاك السر فيقول: (كان سعد في الأنصار بمنزلة الصديق في المهاجرين، لا تأخذه في الله لومة لائم، وخُتِم له بالشهادة، وآثر رضا الله ورسوله ﷺ على رِضا قومه وحلفائه، ووافق حكمه حكم الله من فوق سبع سماوات، ونعاه جبريل ؏ يوم موته، فحُقَّ أن يهتزَّ العرش له)[٣].

يا ويلها أين يذهبون بها؟!

فيا لله! ما أبعد ما بين الكلمتين، وما أبعد الفرق ما بين صاحبيهما؟ فلئن كان سعد السعيد قد وافق مصيره اسمه؛ فقالت جنازته: (قدموني، قدموني)؛ لما تعلم من نعيم مقيم في الانتظار، فإن من الناس من عاش محاربًا لله ورسوله ﷺ، صادًّا عن سبيله؛ فجعل الله يوم جنازته عبرة لكل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، منهم المطرود الناقص الذي دعاه الناس مصطفي كمال أتاتورك، ذلك الذي ألغى الخلافة الإسلامية، وصدَّ عن سبيل ربه، مغيِّرًا شرعه ومُبدِّلًا دينه، فماذا كانت عاقبته؟

فما ظنك بجنازة رجل قد أوصى قبل مماته ألا يُصلِّي عليه أحد من المسلمين، فلما مات دار جدال حول الصلاة عليه، فأشار رئيس وزرائه ألا يُصلَّى عليه كما أوصى، ولكن قائد الجيش الأول رأى غير ذلك، وما ظنك بجنازة رجل يتبرأ من شعائر دينه حتى آخر لحظة في حياته، وبعد مماته؟! تُرى: أين يُذهَب بمن كانت هذه جنازته؟ نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) أورده ابن سعد في الطبقات، (٣/ ٤٢٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١١٥٨).

(٢) رواه النسائي، كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، (٢٠٢٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (٢٠٥٥).

(٣) فيض القدير، المناوي، (٣/ ٦٤).

حفرة النيران أم روضة الجنان

إن اليوم الذي ستبيت فيه بقبرك لا ككل الأيام، إنه يوم يتحدد فيه مصيرك عند ربك، في مكان لا يجزي فيه والد عن ولده، كما المولود لا يجزي عن والده شيئًا، هناك حيث الوحشة والدود، تَرى في هذا اليوم أهوالًا عظامًا، وتعيش فيه أحداثًا جسامًا، لا ولم ولن تراها من قبل ذلك اليوم ولا من بعده.

فبعد أن يُشيِّعكَ ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ فيشيعك أهلك ومالك وعملك، فيرجع الأهل والمال ويبقى العمل، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ[1]، حتى أنك ستسمع خفق نعالهم وهم ينفُضون عن أيديهم تراب دفنك، وينصرفون، فحينئذ أيها المسافر تبدأ الأهوال، ويبين لك ما كنت تحياه في الدنيا، أهو حقيقة أم سراب وخيال؟

فإذا ما كنت ممن سلكوا الطريق في الدنيا إلى رضوان الله؛ وجدتَّ من الله تعالى التثبيت، في يوم لا يُثبِّت الله فيه بالقول الثابت إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأما إن كانت الأخرى عياذًا بالله؛ فلا تسل عن كرب ذلك اليوم وهوله، وتعال معي الآن لنعيش مع هذه الأهوال في الدنيا، عسانا نتعظ فنعمل؛ فتخف علينا يوم نلقاها برحمة الرحيم الرحمن.

عندما ينطق التراب.

هل تتخيل - يا رعاك الله - أن ترابًا يتكلم، بل وبلسان لا تنقصه البلاغة والفصاحة، إنه ذلك الواعظ الصامت يخرج عن صمته، يوم أن تنزل في حفرته، وبعد أن يتركوك فيه وحيدًا فريدًا، تعاني من وحشة الظلمة، إذا بك تسمع صوتًا يناديك: (ويحك يا ابن آدم، أليس قد حُذِّرتَنِي، وحُذِّرت ضيقي وظلمتي، ونَتني وهولي ودودي، هذا ما أعددتُ لك، فماذا أعددتَ لي؟!)[2].

تتلفَّت يمينًا ويسارًا؛ فلا ترى شيئًا في قلب الظلمة، فتدرك ساعتها ذلك الهول، إنها جدران القبر تُكلمك بقدرة الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويواصل القبر الحديث والتبكيت: (يا ابن آدم، ما غرك بي؟ ألم تعلم أني بيت الوحدة؟ ألم تعلم أني بيت الظلمة؟ ألم تعلم أني بيت الحق؟ يا ابن آدم، ما غرك بي؟ لقد كنت تمشي حولي فَدَّادًا[3])[4].

وعن عبيد بن عمير رحمه الله قال: (ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد، فإن كنت في حياتك لله مطيعًا؛ كنت اليوم عليك رحمة، وإن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، (٦٠٣٣).

(٢) الزهد، ابن المبارك، ص(٤١).

(٣) أي: تمشي ذا أمل كثير، وخيلاء، وسعي دائم.

(٤) تفسير القرطبي، (١٤/ ٧٠-٧١).



كنت لربك في حياتك عاصيًا؛ فأنا عليك اليوم نقمة، أنا البيت الذي من دخلني مطيعًا خرج منه مسرورًا، ومن دخلني عاصيًا خرج مثبورًا))[1].

ضمة القبر.

إنها تلك الضمة التي يلتقي فيها جانبا القبر على جسد الميت؛ فلا ينجو منها أحد، صالحًا كان أم طالحًا، عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((**إن للقبر ضغطة، لو نجا أحد منها؛ لنجا سعد بن معاذ**))[2]، وإذا كان هذا لسعد بن معاذ ﷺ، وقد علمت من خبر موته ما قد علمت؛ فما بالك بغيره؟

وسر هذه الضمة: أن الأرض مطيعة لله ﷻ، تغضب لغضبه وترضى لرضاه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: ٢]، فتضم المؤمن برفق لرضا ربه عنه، ثم يُفرَّج عنه برحمة الله، وأما العاصي فتضمه بعنف غضبًا عليه حتى تختلف أضلاعه.

فكيف بك أيها الحبيب، وأنت ساعتها الفرد الضعيف، بعد أن كلَّمك قبرك؛ فامتلأ قلبك إشفاقًا ووجلًا، فإذا بجدران القبر هذه تتقارب عليك وأنت تنظر.

كيف بك وأنت تراها تنضم على جانبيك وأنت تشعر؟! لقد سَبَّح رسول الله ﷺ، وهو يستشعر هذا الضم لسعد بن معاذ ﷺ، تُرى: أتكون ضمة القبر لك ضمة أُمٍّ حنون؟ أم هي ضمة تختلف منها أضلاعك؟ إن الأرض تغار لربها؛ فهي تضمك على قدر فرحها بك، إن كنت ممن رضي الله عنهم، أو بقدر غضبها لله وحنقها عليك، إن كنت ممن سخط ربهم عليهم.

الامتحان الأخير.

إنه آخر امتحان يتعرض له الإنسان في رحلته إلى ربه، لكنه امتحان مصيري، من فرصة واحدة بلا دور ثان، بل وتظهر نتيجته في التو واللحظة، بلا لجان رصد للدرجات، ورغم أن أسئلته معروفة مقدمًا، فأغلب الممتحنين يرسبون فيه.

هل عرفت أيها المسافر، أي امتحان هذا؟ إنه امتحان الواعظ الصامت، الذي وصفه لك رسولك ﷺ، فقال حاكيًا حال الناجحين: ((**... فتعاد روحه، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.**

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٥/ ١١٤٥).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٦٩٥).

فينادي منادٍ من السماء: أن قد صدق؛ فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي...))[1].

وأما الفاشلون الراسبون: فيقول فيهم رسولنا الأمين ﷺ: ((... فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي؛ فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار.

فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة))[2].

ولعلك لاحظت أن هذا الامتحان الشفوي، لا يحوي إلا أسئلة ثلاثة: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وقد تبدو للوهلة الأولى سهولة هذه الأسئلة، فإنك لو سُئلتها الآن؛ لأجبت عنها بتلقائية ويسر، ولكن الأمر في حفرة المصير ليس كذلك، إن الذي يتحدث عن الإنسان ليس فهمه وعقله وحفظه، إنما الذي يتحدث عمله وقلبه، وليس للإنسان على قلبه في ذلك الموقف أيُّ سلطان، فعند ذلك يُثبِّت المهيمن بالقول الثابت الذين آمنوا، كما قال جل شأنه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أخي الحبيب، إذا مت الآن، ودخلت قبرك على حالك وما أنت فيه، ما الذي يغلب على ظنك؟ هل سيثبتك ربك لأنك أحببته وسلكت طريقه؟! أم سينساك لأنك نسيته؟ ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة: ١٤ – ١٥].

إن الطريق الوحيد للنجاح في هذا الامتحان الأخير في حفرة المصير، هو أن تنجح فيه في دنياك، فتجيب عن تلك الأسئلة في حياتك الدنيا، بلسان الحال قبل لسان المقال؛ فتعرف ربك تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، معرفة تقودك إلى فعل طاعته واجتناب نواهيه، وتعرف

(١) رواه أحمد في مسنده، (١٧٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٦٧٦)، وفي أحكام الجنائز، ص(١٥٨).
(٢) رواه أحمد في مسنده، (١٧٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٦٧٦)، وفي أحكام الجنائز، ص(١٥٨).



سنة نبيك ﷺ فتسير على خطاه في الدنيا، لا تعرف لك متبوعًا وقائدًا وإمامًا غيره ﷺ.

وتعرف دينك وإسلامك بأحكامه وشرائعه، وتتخذها لك منهاج حياة؛ فلا تخطو خطوة في الدنيا إلا بتعاليمه وأوامره، فعند ذلك تكون من الذين آمنوا حقًّا وصدقًا، واستحقُّوا تثبيت الله تعالى في ذلك الامتحان الأخير.

الصالحون والقبر

ولمَّا علم الموفَّقون خبر حفرة المصير، وأثَّرت في قلوبهم مواعظ ذلك الواعظ الصامت؛ كانت لهم مع القبور صولات وجولات، وآهات وزفرات، وصل إلينا خبرها في صورة مسك سيرتهم وعبيرها، ننشر لك بعضها علك على دربهم تسير، وبقافلتهم تلحق؛ فتأمل وتدبر واعمل.

(عن ميمون بن مهران رحمه الله قال: قال أبو الدرداء ﷺ: إن لكم في هاتين الدارين لعبرة، تزورونهم، ولا يزورونكم، وتنتقلون إليهم، ولا ينتقلون إليكم، يوشك أن تستفرغ هذه ما في هذه.

وعن الحسن أن عثمان بن أبي العاص كان في جنازة، فرأى قبرًا مخسوفًا، فقال لرجل من أهله: يا فلان، تعال انظر إلى بيتك الذي هو بيتك، فجاء فقال: ما أرى بيتي فيه طعام ولا شراب ولا ثياب، قال: فإنه بيتك، قال: صدقت، قال: فرجع فقال: والله لأجعلنَّ ما في بيتي هذا في بيتي ذاك.

وعن مالك بن دينار رحمه الله قال: خرجت أنا وحسان بن أبي سنان نزور المقابر، فلما أشرف عليها سبقته عبرته، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا يحيى، هذه عساكر الموتى، يُنتَظر أن يلحق بها من بقي من الأحياء، ثم يصاح صيحة بهم فإذا هم قيام ينظرون، فوضع مالك يده على رأسه، وجعل يبكي.

وعن ابن السماك قال: لا يَغرَّنك سكون هذه القبور، فما أكثر المغمومين فيها، ولا يَغرَّنك استواؤها، فما أشد تفاوتهم.

وعن الحسين الجعفي قال: أتى رجل قبرًا محفورًا، فاطلع في اللحد، فبكى بكاءً شديدًا، واشتد بكاؤه، قال: والله أنت بيتي حقًّا، والله لئن استطعت لأعمُرنَّك.

وعن عنبسة الخواص أن رجلًا من الصدر الأول دخل المقابر، فمر بجمجمة بادية من بعض القبور، فحزن حزنًا شديدًا، ثم واراها، ثم التفت فلم ير إلا القبور، فحزن حزنًا شديدًا، فحدث نفسه فقال: لو كُشف لي عن بعضهم فسألته عما رأى، قال: فأُتي في منامه، فقيل له: لا تغتر بتشييد القبور من فوقهم، فإن القوم قد بَليت خدودهم في التراب، فمن بين مسرور ينتظر ثواب الله ﷻ، وبين مغموم آسِفًا على عقابه، فإياك والغفلة عما رأيت، فاجتهد الرجل بعد ذلك

اجتهادًا شديدًا، حتى مات رحمه الله تعالى.

سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأكلوا من بين رطب ويابس
ألا خبِّروني: أين قبر ذليلكم وقبر العزيز المادح المتهارس؟)[1].

فيا أيها المسافر إلى ربه، إذا كان الموت أول وارد عليك، والقبر أقرب منك إليك؛ فاستعد لسفرك، وتأهَّب لرحيلك، وحوِّل جهازك من المنزل الذي أنت عنه ظاعن إلى المنزل الذي أنت فيه مقيم، ولا تغتر بما اغتر به البطَّالون قبلك من طول آمالهم، فقصَّروا عن ربهم، وفرَّطوا في زادهم؛ فندموا عند الموت أشد الندامة، وأسفوا على تضييع العمر أشد الأسف؛ فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا الأسف على تضييع الأعمار يشفع لهم.

أسباب العذاب

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (أما الأسباب التي يتعذَّب بها أصحاب القبور؛ فجوابها من وجهين: مجمل، ومفصَّل.

أما المجمل.

فإنهم يُعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يُعذِّب الله روحًا عرفته وأحبَّته، وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار، ثم لم يتب ومات على ذلك؛ كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه؛ فمستقل ومستكثر، ومصدق ومكذب.

وأما الجواب المفصل.

فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما، يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس، ويترك الآخر الاستبراء من البول، فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقًا.

وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة؛ بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابًا، كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيهًا على أن من ترك الصلاة، التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها؛ فهو أشد عذابًا.

(١) أهوال القبور، ابن رجب الحنبلي، نقلًا عن سكب العبرات، العفاني، (١/ ٦٦٨-٦٧٢).

وفي حديث شعبة: أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس، فهذا مغتاب وذلك نمام، وحديث ابن مسعود ﷺ: في الذي ضُرب سوطًا، امتلأ القبر عليه نارًا؛ لكونه صلى صلاة واحدة بلا طهور، ومر على مظلوم فلم ينصره.

وحديث سمرة في صحيح البخاري، في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار، وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا، كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ.

وحديث أبي هريرة ﷺ الذي فيه: رضخ رءوس أقوام بالصخر؛ لتثاقُل رءوسهم عن الصلاة، والذين يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم، والذين يأكلون اللحم المنتن الخبيث لزناهم، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب.

ومنهم: من تفتح أفواههم فيُلقَمون الجمر حتى يخرج من أسافلهم، وهم أكلة أموال اليتامى، ومنهم: المعلقات بأثدائهن، ومنهم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، وهم الذين يغمزون أعراض الناس، وأخبر النبي ﷺ عن صاحب الشملة التي غَلَّها من المغنم، أنها تشتعل عليه نارًا في قبره، هذا وله فيها حق، فكيف بمن ظلم غيره ما لاحق فيه؟

ولَمَّا كان أكثر الناس كذلك؛ كان أكثر أصحاب القبور معذبين، والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب؛ ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات، وفي باطنها الدواهي والبليات، تغلي بالحسرات كما تغلي القدور بما فيها، ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها.

تالله، لقد وَعَظَتْ فما تركت لواعظ مقالًا، ونادت: يا عُمَّار الدنيا، لقد عَمَّرتم دارًا موشكة بكم زوالًا، وخَرَّبتم دارًا أنتم مسرعون إليها انتقالًا، عَمَّرتم بيوتًا لغيركم منافعها وسكناها، وخَرَّبتم بيوتًا ليس لكم مساكن سواها، هذه دار الاستباق، ومستودع الأعمال، وبيدر الزرع، وهذه محل للعبر، رياض من رياض الجنة، أو حفر من حفر النار)[1].

سبيل النجاة

أخي، إن كان قد رقَّ منك القلب، وخشع منك الفؤاد، وجئت تسأل سؤال الموفقين: كيف النجاة إذًا من عذاب القبر؟! فأدع المجال ثانية لطبيب القلوب، الإمام ابن القيم رحمه الله، ليصف لك أسباب النجاة في كلمات يسيرات، فيقول: (جوابها أيضًا من وجهين: مجمل ومفصل.

(١) الروح، ابن القيم، ص(١٠٣- ١٠٦).

أما المجمل.

فهو تجنُّب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر، ومن أنفعها: أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة، يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدِّد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويَعزم على ألَّا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلًا للعمل، مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيَّما إذا عَقَّبَ ذلك بذكر الله واستعمال السنن، التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفَّقه لذلك، ولا قوة إلا بالله)[(١)].

أما الجواب المفصل.

فإليك التفصيل من كلام البشير النذير ﷺ، فيما ينجي من عذاب القبر:

(١) فاستقم كما أمرت:

فأعظم ما ينجي من أهوال حفرة المصير، أن يستقيم الإنسان على طاعة الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وشريعة دينه، حتى يلقى واعظه الصامت متهيِّئًا للامتحان الأخير ذي الأسئلة الثلاثة، بعد أن أجاب عليها قبل الدخول، بما معه من الباقيات الصالحات.

وحينها ينقلب القبر إلى روضة من رياض الجنة، يصله فيها من روح الجنة وريحانها، ونعيمها وطيبها، إلى يوم يلقى ربه ليتلقَّى الجائزة الكبرى بدخول دار النعيم المقيم.

(٢) سورة تبارك، تنجي من المهالك:

عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر**))[(٢)]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**))[(٣)].

(فهي تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن يُنجِّيه من عذاب النار إذا كانت في جوفه، ويُنجِّي الله بها صاحبها من عذاب القبر)[(٤)].

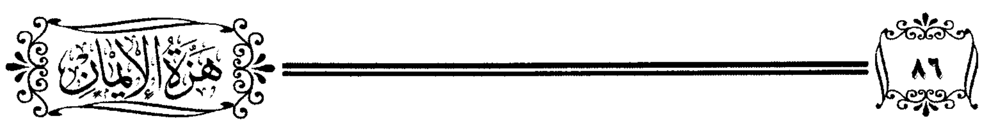
---

(١) الروح، ابن القيم، ص(١١٦).

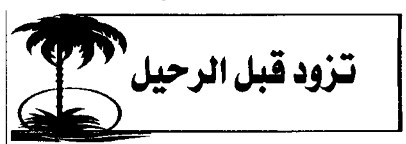
(٢) رواه ابن مردويه عن ابن مسعود ﷺ، وأورده أبو الشيخ الأصفهاني في طبقات المحدثين عن ابن مسعود كذلك، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٣٦٤٣).

(٣) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، (٢٨١٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٨٩١).

(٤) الروح، ابن القيم، ص(١٨٠).



ولذلك كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأها، كما في حديث جابر ﷺ مرفوعًا: (كان ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾)[1].



على المسافر الحريص أن يأخذ زاده، من هذه المرحلة، والذي يتمثَّل في:

(١) زيارة للقبور للعظة والاعتبار.

(٢) تشييع جنازة وحضور الصلاة عليها، ودفنها والمكوث بعدها عند القبر للدعاء للميت، مع التفكر والتدبر.

(٣) حفظ سورة تبارك هذا الأسبوع، وقراءتها يوميًّا قبل النوم.



(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، (٢٨١٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٨٩٢).

المرحلة الرابعة: يوم التغابن

هذا الكون بما فيه من مجرات وأفلاك، وأرض وسماوات، وإنس وجن، ومخلوقات لا يحصي عددها وأصنافها إلا الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير، هذه العوالم اللامتناهية، التي لا يعلم الإنسان عنها إلا القليل مما آتاه ربه تعالى، هل تتصور أيها المسافر، أنه سيأتي يوم يفنى فيه كل ذلك؟ نعم، إنها سنة الله تعالى في خلقه، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

فما من شيء له بداية إلا ولا بد أن يكون له نهاية، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، ولئن كانت سنة الفناء تقع على البشر كأفراد عبر تجرعهم لمرارة يوم السكرات، وتلبيتهم لنداء ذلك الواعظ الصامت؛ إلا أنها لا بد وأن تَحِقَّ في باقي المخلوقات، عبر ذلك اليوم الرهيب المسمَّى بيوم القيامة.

إنه اليوم الذي يذوق فيه الكون كله طعم الموت والفناء، فلا يبقى إلا الحي القيوم وحده تعالى، ينادي في ملكه وملكوته بعد فناء خلقه، أين الملوك؟ أين الجبارون؟ لمن الملك اليوم؟ فلا يجيب أحد، وأنى لأحد أن يجيب! وقد تجرع الكل من كأس الفناء، وبقي جبار السماوات والأرضين، ليجيب نفسه بنفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦].

ولأن الدنيا دار زرع وعمل؛ فكان لا بد أن يأتي يوم يجد كل إنسان فيه حصاد زرعه، وجزاء أعماله، لذلك يقول الله تبارك وتعالى، عن ذلك اليوم الرهيب: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [التغابن: ٩].

فسمَّاه يوم الجمع حيث فيه يجمع العباد للعرض والحساب، وسمَّاه يوم التغابن من الغُبْن الذي هو الخسارة؛ لأن كل إنسان سيدرك فيه حجم الغُبْن والخسارة التي لحقته؛ لما فرَّط في جنب ربه؛ فترى في ذلك اليوم من أنفس البشر عجبًا، فتقول نفس:

﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزمر: ٥٦].

وتنادي أخرى: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤)﴾ [الشورى: ٤٤].

وتقول ثالثة: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام: ٢٧].

وحينها يكون التحسر والندم، في يوم ولات حين مندم:



واحــسـرتي واشـقـوتي	مـن يـوم نـشر كـتابيه
واطـول حـزني إن أكـن	أوتـيتـه بـشـمـالـيه
وإذا سُـئلت عـن الخَـطَا	مـاذا يـكـون جـوابيه؟
واحـرَّ قـلـبي أن يـكـون	مـع الـقـلـوب الـقـاسـية
كـلا ولا قـدمـت لـي	عـمـلًا لـيـوم حـسـابيه
بـل إنــني لـشـقـاوتـي	وقـسـاوتـي وعـذابـيـه
بــارزت بـالــزلات فـي	أيــام دهــر خـالـيـة
مـن لـيس يخـفى عـنه من	قـبـح المعـاصـي خـافية

فتعال معي يا أخيَّه، آخذك في جولة عبر أحداث هذا اليوم الرهيب، عسانا ترق منا القلوب فنرجع ونتوب، ونحسن الاستعداد ليوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

بداية النهاية

وتبدأ أحداث يوم التغابن بتلك النفخة، التي سماها الله تعالى نفخة الصعق، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

إنها النفخة التي ينفخها ملك الصور إسرافيل في قرنه أو بوقه، يموت لها كل حي إلا من شاء الله، نفخة حرمت رسول الله ﷺ أن يهنأ له بال؛ وجلًا وإشفاقًا من ذلك المشهد.

كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((**كيف أنعم؟! وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنا جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يُؤمر فينفخ؟**))، فثقل ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وشق عليهم رضي الله عنهم، فقالوا: فكيف نقول يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ((**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**))[1].

يقول هذا ﷺ، وهو الذي أخبرنا أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، بعد أن يرسل الله تعالى ريحًا طيبة تَقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقى على الأرض يومئذٍ من يقول: الله الله، فمم تخاف وتحذر إذًا يا خير خلق الله، يا رسول الله وخليله؟!

أما إنه الوجل والإشفاق من يوم التغابن، الذي لا ينفع فيه نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الزمر، (٣١٦٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٢٤٣).

يوم الأهوال

يوم القيامة يا له من يوم، إنه اليوم الذي يقبض فيه الحق جل وعلا الأرض بيده، ويطوي السماوات بيمينه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ويصف الحبيب ﷺ هذا المشهد فيقول: ((**يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**))[(١)].

(إنه اليوم الذي تتفجر فيه البحار، وتشتعل فيها النار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦].

وتُنسَف فيه الجبال الراسيات لتصبح كثيبًا مهيلًا ككثبان الرمل، بعد أن كانت حجارة صماء: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

وأما تلك القبة الزرقاء التي تُظِلُّنا، والتي زَيَّنها الله تعالى بزينة الكواكب، فإنها في ذلك اليوم تَنفطر وتَنشقُّ؛ فتُصبِح واهية ضعيفة هشَّة:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق: ١-٢].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦].

وأما الشمس التي جعلها الله سببًا ضروريًّا من أسباب الحياة؛ فإنها تُجمع وتُكوَّر ويذهب ضوءها: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١].

بل وهذا القمر الذي نراه في أبهى وأجمل صورة، فإنه يُخسف ويذهب ضوءه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ [القيامة: ٧-٨])[(٢)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة النار، باب منه، (٤٩٩٥).

(٢) الدار الآخرة، محمود المصري، ص(٣٦٩).



وهذه النجوم وتلك الكواكب التي تُزَيِّن السماء، تنكدر وتتناثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ٢].

ولكل هذه الأهوال في يوم التغابن، فإنه قد شيَّب ذكره سيد المرسلين ﷺ، إذ قال له أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، قد شبت، فقال: ((**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**))[1].

فماذا ستفعل أيها المسافر، في خضم هذه الأهوال العظام؟ وكيف سيكون حالي وحالك فيها؟ وهل نحن على حال يَرضَى الله عنها؛ حتى نرجو رحمته في ذلك اليوم العصيب؟ اسمع إلى كلام ربك فاقرع به آذان قلبك، إذ يوقظك من غفلتك.

فيقول ﷻ مُنذرًا ومُحذِّرًا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء: ١-٣]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦-٧].

مثِّل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إذ كُورت شمس النهار وأُدنيت ... حتى على روس العباد تقور
وإذا الجبال تقلَّعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أُحضرت ... وتقول للأملاك: أين نسير
فيقال: سيروا تشهدون فضائحًا ... وعجائبًا قد أُحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المصرُّ على الذنوب دهور

كذلك النشور

وهكذا يموت كل مخلوق، ولا يبقى إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، هو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء، وهو السميع العليم.

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الواقعة، (٣٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٢٩٧).

فإذا أراد الله أن يبعث خلقه أنزل من السماء ماء؛ فتنبت به الأجسام في القبور تحت باطن الأرض كما ينبت البقل، ففي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: ((**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذنب**[١]**، منه خُلِق وفيه يُركَّب**))[٢].

فيُركِّب الله تعالى عظم كل إنسان فوق عجب الذنب، حتى تكتمل الأجساد في القبور، وحينئذ يُحيي الله جل وعلا إسرافيل، ثم يأمره أن يلتقم البوق وينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح لتسري إلى تلك الأجساد المكتملة في قبورها.

ثم يأمر الله ﷻ الأرض أن تتزلزل وتنشقَّ ليخرج منها الناس، من لدن آدم إلى آخر رجل قامت عليه القيامة، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥١ – ٥٤].

وهنا في هذا الموطن المهيب، يتجلى مظهر من مظاهر تكريم الله لأكرم البشر، حبيبنا محمد ﷺ، فيكون أول من يُبعَث، وأول من تَنشقُّ عنه الأرض يوم القيامة؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشقُّ عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشفَّع**))[٣].

تُرى أيها المسافر، كيف سيكون حالي وحالك وقتها؟ فها هي الأرض تتشقق، والقبور تتفتح، متناثرة هنا وهناك، ويخرج من كل قبر عشرة أو مائة أو ألف أو يزيدون، يتوجَّهون جميعًا إلى أرض جديدة عفراء، لم يطأها أحد من قبل بقدميه، إنها أرض المحشر التي يقول الله تعالى عنها: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فهي أرض لا كالتي نحيا عليها، يصفها لنا رسول الله ﷺ فيقول: ((**يُحشَر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرْصَةِ النِّقي، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحد**))[٤].

إنها أرض بيضاء مستوية، كأنها دقيق مبسوط أو فضة بيضاء، لا معالم عليها ولا بناء، لا أنهار ولا أشجار، لا زرع ولا ماء، لا شيء يختبئ الإنسان وراءه، فلا ملجأ ولا منجا يومها إلا إلى الله ﷻ.

يخرج الناس من القبور إلى تلك الأرض، حفاة لا نعال في أقدامهم، عراة لا ثياب

---

(١) عَجْبُ الذنب: عظمة صغيرة توجد في آخر السلسلة الفقرية في كل إنسان لا تبلى أبدًا.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، (٥٢٥٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على البشر، (٤٢٢٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة، (٦٠٤٠).

تُغطِّي أبدانهم، غرلًا غير مختونين ولا شيء يسترهم، تمامًا كما خلقهم الله أول مرة؛ كما قال ﷻ: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إنه يوم رهيب، ينسى الناس فيه حتى شهواتهم التي باعوا دينهم من أجلها في الدنيا، يقول النبي ﷺ: ((**يحشر الناس حفاة عراة غرلًا**))، فتعجبت عائشة رضي الله عنها، وقالت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال ﷺ: ((**الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**))[١].

لا يستوون عند الله

وكما هو مقتضى عدل الله ﷻ، يظهر التمايز بين العباد في موقف الحشر الرهيب، وها هو رسول الله ﷺ يصف لنا هذا التمايز فيقول: ((**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم**))[٢].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا قال: يا نبي الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه؟ قال ﷺ: ((**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادرًا على أن يُمشِيَه على وجهه يوم القيامة؟**)) قال قتادة - وهو من رواة الحديث -: بلى وعزة ربنا[٣].

أناس يمشون على الأقدام، وأناس يركبون، فمَن هؤلاء الذين يركبون في هذا اليوم العصيب؟! اسمع لربك جل وعلا يصفهم فيقول: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [مريم: ٨٥].

إنهم أهل الخشية من الرب الجليل، يحشرون إلى ربهم وفدًا، في كرامة وحسن استقبال، وتُقدَّم لهم ركائب من دواب الآخرة، عليها سُرُج من ذهب، فيركبونها وينطلقون بها في أرض المحشر؛ فلا يمشون على أقدامهم في هذا اليوم العصيب، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! وأما العصاة المفرطون؛ فإنهم يساقون في أرض المحشر إلى جهنم وردًا، كما تساق القطعان ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٦].

وأما المتكبرون الذين انتشوا وانتفخوا في الدنيا بأموالهم ومناصبهم، ولم يُذِلوا أنفسهم لله، ولم يَخفِضوا جناحهم لعباده المؤمنين؛ فإنهم يحشْرون في أحقر وأهون خلقة، جزاءً وفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا، قال ﷺ: ((**يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان**))[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، (٦٠٤٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، (٣٠٦٧)، ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، (٣١٤٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، (٦٠٤٢).

(٤) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، (٢٤١٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٤٩٢).

من مات على شيء بعث عليه.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: (فلقد أجرى الكريم عادته بكرمه؛ أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه)(١)، ويُصَدِّق ذلك ما أخبر به النبي ﷺ من أنه: ((**يبعث كل عبد على ما مات عليه**))(٢).

فتأمل ذلك أيها المسافر، ستُبعث على الهيئة التي مِتَّ عليها، فإن كنت من السعداء ومت على طاعة؛ ستُبعَث يوم القيامة عليها، وإن كنت من الأشقياء ومِتَّ على معصية؛ فستُبعَث عليها كذلك.

فمن الناس من يُبعَث فينطلق إلى أرض المحشر وهو يردد: [لبيك اللهم لبيك]، إنه من مات بلباس الإحرام في حج أو عمرة، يُبعَث ملبيًا يوم القيامة، كذلك الصحابي الذي نقل إلينا ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قصته، فقال: بينما رجل واقف مع النبى ﷺ بعرفة، إذ وقع من راحلته فأوقصته(٣)، فذكر ذلك للنبى ﷺ، فقال: ((**اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمِّروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة مُلبِّيًا**))(٤).

ومنهم من يخرج منه دم، اللون لون الدم والريح ريح المسك، إنهم الشهداء في سبيل الله، يقول ﷺ: ((**والذي نفسي بيده، لا يُكلَم أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكلَم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة، اللون لون الدم، والريح ريح المسك**))(٥).

ومنهم من يُبعَث وبطنه منتفخة لا يقوى على القيام، بل ولا يستطيع الجلوس، يَتخبَّط عن يمينه وعن شماله، يتكفَّأ على وجهه، فهؤلاء هم أكلة الربا، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥].

ورجل آخر يسير في أرض المحشر، وحوله جمع من الأطفال الصغار، هذا يتعلق بيده، وهذا يتعلق بقدمه، وهذا يجرُّه جرًّا، وهذا يدفعه دفعًا، مَن هذا؟! ومَن هؤلاء؟! هذا آكل أموال

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٦٣٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، (٥١٢٦).

(٣) الوقص: كسر العنق.

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين، (١٢٦٥).

(٥) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله، (٢٥٩٣).

اليتامى بالباطل، وهؤلاء هم اليتامى؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء: ١٠].

ومنهم من يُبعَث وهو يحمل على كتفه ما سرقه في الدنيا، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾ [آل عمران: ١٦١].

مواقف ذات عبر.

(هذه أخت من مدينة السويس بمصر، عادت مع زوجها، بعد رحلة الحج، في الباخرة سالم إكسبريس، وفجأة، يعلو الصراخ في وسط الباخرة: إنها تغرق في وسط البحر، ويصرخ الزوج في زوجته ـ وكانا في غرفتها ـ هيا اخرجى، فقالت: والله لن أخرج؛ حتى ألبس حجابي كله، فقال: أهذا وقت حجاب؟! اخرجي؛ فإننا سنهلك.

قالت: والله، لن أخرج إلا وقد ارتديت حجابي بكامله، فإن مت؛ ألقى الله على طاعة، فلبست ثيابها، وخرجت مع زوجها، فلما تحقق الجميع من الغرق؛ تعلقت به، وقالت: أستحلفك بالله، هل أنت راض عني؟ فبكى زوجها، فقالت: هل أنت راض عني؟ فازداد بكاؤه، قالت: أريد أن أسمعها، قال: والله إني راض عنك، فبكت هذه الأخت الصالحة، وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وظلت تردد الشهادة حتى غرقت رحمها الله تعالى، فبكى الزوج ـ الذي كتب الله له النجاة ـ وهو يقول: أرجو من الله أن يجمعني بها في الآخرة في جنات النعيم)[١].

(وها هو رجل عاش أربعين سنة يؤذن للصلاة، وقبل الموت مرض مرضًا شديدًا أفقده النطق، وأقعده في الفراش؛ حتى عجز عن الذهاب إلى المسجد، فلما اشتد عليه المرض، وسمع الأذان؛ بكى بكاءً شديدًا، وكأنه يقول في نفسه: يا رب، أُؤَذِّن لك أربعين سنة، وأنت تعلم أني ما ابتغيت الأجر إلا منك، وأُحرم من الأذان في آخر لحظات حياتي؟

يقسم أبناؤه، أنه لما حان وقت الأذان، وقف على فراشه، واتجه للقبلة، ورفع الأذان في غرفته، وما إن وصل إلى آخر كلمات الأذان: [لا إله إلا الله] حتى خر ساقطًا على الفراش، فأسرع إليه بنوه، فوجدوا روحه قد فاضت إلى مولاها)[٢].

فتأمل تلك الميتات العالية، التي لا يرزق بها إلا من سلك طريق الاستقامة في الدنيا، فعاش على طاعة الله، ومات على طاعة الله، ويبعث يوم القيامة على طاعة الله.

---

(١) من محاضرة للشيخ محمد حسان ضمن حلقات سلسلة الدار الآخرة.

(٢) المصدر السابق.



عرق يفضح المفرطين

ثم ها هي الشمس في ذلك اليوم تدنو من الرءوس؛ لتفضح ما في النفوس، قال ﷺ: ((**تُدنَى الشمس يوم القيامة من الخلق؛ حتى تكون منهم مقدار مِيل**))، قال سُلَيم بن عامر - وهو أحد رواة الحديث -: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض؟ أو الميل الذي تكحل به العين؟ قال ﷺ: ((**فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وأشار ﷺ بيده إلى فيه**))[١].

فيكون العرق يوم القيامة على قدر العمل، فمن أسرف على نفسه في دار العمل بالمعاصي والأوزار؛ بلغ منه العرق في دار الجزاء مبلغًا عظيمًا، ومن صان نفسه في دار العمل كذلك عن أدناس الآثام؛ فإنه يأتي يوم القيامة نظيفًا طاهرًا، لا يبلغ منه العرق إلا شيئًا قليلًا على قدر هنَّاته وزلاته، التي لا بد منها لبني الإنسان.

سحقًا لمن بدل بعدي

وفي هذا الموقف المهيب، تأتي صورة أخرى من صور تكريم الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ؛ حيث يَمُنُّ الله تعالى عليه ﷺ بحوض واسع الأرجاء، مائه أبيض من اللبن، وطعمه أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر، ذاك الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ في الجنة، ترد عليه أمته؛ فيسقيهم ﷺ منه بيده الشريفة شربة هنيئة مريئة، من شربها لا يظمأ بعدها أبدًا.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منه فلا يظمأ أبدًا**))[٢].

ولكن كيف يعرف رسول الله ﷺ أمته في يوم الحشر الذي تجتمع فيه كل الخلائق، منذ أن خلق الله الخلق إلى قيام الساعة؟ يجيب رسول الله ﷺ عن هذا السؤال، فيقول ﷺ: ((**ترد عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله، وتعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون غرًّا محجلين، من آثار الوضوء**))[٣].

فمن استقام في حياته على أداء الصلاة؛ فإنه يأتي يوم القيامة بعلامة بيضاء تكون في شعره ويديه ورجليه، من آثار الوضوء استعدادًا للوقوف بين يدي الله ﷻ، ولكن بعض المصلين الذين

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب صفة يوم القيامة، (٥١٠٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، (٦٠٩٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة، (٣٦٥).

يعرفهم رسول الله ﷺ بهذه العلامة، تمنعهم ملائكة الله تعالى من حوض نبيه ﷺ، فيا تُرى: ما السر في ذلك؟ يأتينا الجواب من الرحمة المهداة ﷺ فيقول: ((**إني فرطكم على الحوض، من مر بي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، وليردن عليَّ أقوام، أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم مني! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي**))(١).

فهؤلاء الذين تخلوا عن أمانة الدين، ولم يسلكوا صراط الله المستقيم، واكتفوا منه ببعض رُكيعات، يؤدونها في جفاء قلب وجفاف روح، ظنًّا منهم أنهم قد أدوا ما عليهم تجاه ربهم ودينهم، أما حياتهم كلها فبعيدة بعد المشرقين عن شرع الله وعن سنة رسول الله ﷺ؛ ومن ثم استحقوا أن يعيشوا هذا الموقف المخزي، يوم أن تطردهم ملائكة الله عن حوض رسوله ﷺ.

جهنم تزفر

ثم تكتمل أهوال ذلك اليوم، فيؤتى بجهنم في أرض المحشر، كما قال المصطفى ﷺ: ((**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**))(٢).

فإذا أقبلت جهنم، وأحاطت بالخلائق، ورأت الخلق؛ زفرت وزمجرت، غضبًا منها لغضب الله ﷻ، فعند ذلك تجثوا جميع الأمم على الركب، من الخوف والذلة، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: ٢٨].

ثم تعرض جهنم على جميع الخلائق عينة من أهوالها، يصفها رسول الله ﷺ فيقول: ((**تخرج عنق من النار يوم القيامة، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين**))(٣).

اللهم سلِّم سلِّم

في هذا الموقف العصيب لا يملك صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين إلا أن يقولوا: اللهم سلِّم سلِّم، فهذه دعوتهم يومها، لا ينطقون بغيرها؛ ذلك لأن هول القيامة شديد، لا يكاد يتحمله بشر، فيومها تذهل كل مرضعة عن رضيعها، وتضع كل ذات حمل حملها، وينتاب الناس الهلع والرعب؛ حتى تراهم فتحسبهم سكارى، وما هم بسكارى؛ ولكن عذاب الله شديد.

يومئذ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، فلا تعود هناك روابط ولا أنساب، فتفر الزوجة من زوجها، ذلك الذي أعطى لها كل عطف وحنان، وحب ورعاية، وصحبة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، (٦٠٩٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم، (٥٠٧٦).

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة النار، (٢٤٩٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٧٤).

جميلة حسنة!!! وترمي الأم الحنون بطفلها في غير وعي ولا اكتراث، فلا أمومة يومها ولا حنان، الكل يقول: نفسي نفسي، حتى الأنبياء!!

الكل له شأن يلهيه، استمع لقول مولاك ﷻ: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس:٣٣ - ٣٧].

وكفى بنا حاسبين

وفي ذلك اليوم الطويل، الذي يقف فيه الناس على أقدامهم خمسين ألف سنة بموازين الآخرة؛ يبلغ الكرب والضيق بالناس مبلغًا عظيمًا، حتى أنهم يتمنون أن ينفض الموقف، وينصرفوا منه ولو إلى النار.

الحبيب لم ينسنا فهل تذكرناه؟

في هذا الوقت العصيب، يبحث الناس عمن يلجئُون إليه؛ ليشفع لهم عند ربهم، حتى يأذن جل وعلا ببدء الحساب، والفصل بين العباد، فلا يجدون إلا الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيذهبون إليهم؛ ليطلبوا منهم الشفاعة لهم عند الله جل وعلا، في مشهد مهيب، يصفه لنا سيد المرسلين فيقول ﷺ: ((**إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله.**

فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، فيأتوني، فأقول: أنا لها.

فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني بمحامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فانظر فيها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق، فأفعل.

ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فانظر فيها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فأخرجه، فأنطلق، فأفعل.

ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فانظر من كان

في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق، فأفعل))[١].

هكذا أيها المسافر لم ينسك الحبيب ﷺ في الآخرة؛ فهل تذكرته في الدنيا؟ هل خفق قلبك بحبه ﷺ؟ هل سرت على سنته واتبعته في كل شأن من شئونك؟ هل حافظت على أمانة الدين التي تركها ﷺ في عنقك؟

إنها أسئلة خطيرة، تحتاج منك إلى وقفة صدق مع نفسك؛ لتعلم مكانك عند الله في الآخرة، حتى تستطيع أن تستدرك ما فرط من أمرك، علك تلقى الله تعالى تائبًا، فتنجو في يوم التغابن من ذلك الخسران المبين.

يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية

وبعد أن يستجيب ربنا لشفاعة نبيه ﷺ، يأذن تبارك وتعالى ببدء الحساب، وهنا يقرع سمع العبد نداء مهيب من قبل ملائكة الجبار ﷻ: يا فلان بن فلان، قم وتهيأ للعرض على ديان السماوات والأرض، وساعتها سيعرف الإنسان أنه المقصود بهذا النداء، ولو اشترك في اسمه مع ملايين البشر، قال رسول الله ﷺ: **((ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه؛ فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار، ولو بشق تمرة))**[٢].

وحينها تنصب محكمة العدل الإلهية، إنها محكمة عظيمة مهيبة، لا كمحاكم الدنيا، محكمة قاضيها هو الله، الحكم العدل، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وشهودها كثيرون جدًّا، من ملائكة كرام كاتبين، وأرض تحدث بما ارتكب عليها من خير أو شر، وجوارح وأعضاء تحدث بما ارتكبت من الفضائح، وفي هذه المحكمة لا نقض ولا استئناف، بل يظهر الحكم النهائي فورًا في نفس المحاكمة، من الله الحكم العدل على عبده، بالانضمام إلى أحد أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: إلى الجنة بغير حساب.

فمن المؤمنين قمم أفذاذ، لا يحتاجون إلى حساب لتَثْبُتَ استقامتهم على درب الإيمان، إنهم الذين صاموا في الدنيا عن كل ما حرم الله، وجعلوا فطرهم في جنات عدن، عند مليك مقتدر.

تاجروا مع الله تعالى التجارة الرابحة، باعوا أنفسهم وأموالهم لمن وهبهم إياها، بسلعة الله الغالية التي هي الجنة، فربح البيع، ربح البيع، لسان حالهم يعبر عنه الإمام ابن المبارك رحمه الله،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء، (٦٩٥٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء، (٦٩٥٨).

حينما انبرى يدفع عن الدين، باذلًا نفسه في سبيل ربه، فقال:

بغض الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي بما ليست له ثمنًا

إني وزنت الذي يبقى ليعدله ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا

يصفهم سيد المرسلين ﷺ بقوله: ((**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا ـ أو سبعمائة ألف ـ متماسكون، آخذ بعضهم بعضًا، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**))[١].

وقد تيأس أيها المسافر، من قلة عددهم؛ فتجزم بأنك لن تستطيع مهما فعلت أن تكون منهم، ولكن رسول الله ﷺ يبث الأمل في قلبك، ويزيد فرصتك في اللحاق بهم، فيقول ﷺ: ((**أُعطيت سبعين ألفًا، يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي ﷻ؛ فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا**))[٢].

بل وتعال لنرفع الأمل في قلبك إلى عنان السماء، بهذا البيان الثالث من الرحمة المهداة ﷺ إذ يقول: ((**وعدني ربي أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا، لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون، وثلاث حثيات من حثياته**))[٣]، فزاد الحديث ثلاث حثيات.

أما وقد تشوقت لهم، ورجوت أن تكون منهم؛ فإليك صفاتهم العكّاشية على لسان سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ؛ إذ ينبيك عنها فيقول: ((**عُرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر ومعه النفر، والنبي يمر ومعه العشرة، والنبي يمر ومعه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت؛ فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي، قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت، فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قُدَّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون**[٤]، **وعلى ربهم يتوكلون.**

فقام إليه عُكَّاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، **قال: فأنت منهم**، ثم قام إليه رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، **فقال: سبقك بها عُكَّاشة**))[٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٠٧٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده، (٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٠٦٨).

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، (٢٣٦١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٤٣٧).

(٤) يكتوون: أي يطلبون العلاج بالكي، ويسترقون: أي يطلبون العلاج بالرقية، ويتطيرون: من الطيرة وهي التشاؤم، والمقصود أنهم لا يعتمدون على هذه الأفعال لكمال توكلهم على الله تعالى.

(٥) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، (٦٠٥٩).

الصنف الثاني: فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا.

وأما المؤمن الصالح، أما من عرف الطريق إلى الله في الدنيا؛ فهنالك يجد برد الوصول، فهو صاحب العرض على الله أو الحساب اليسير، كما أخبرنا ﷺ حين قال: ((**من حوسب يوم القيامة عُذِّب**))، فقالت عائشة رضي الله عنها: أليس قد قال الله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال ﷺ: ((**ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب**))(١).

وهو أن يخلو الله تعالى بعبده فيقرره بذنوبه ويعاتبه، حتى ليكاد العبد يذوب حياء من ربه، ويفيض عرقه خجلًا من مولاه، ثم يغفر الرحيم المنان له ذنبه، ويرضى عنه بمنه وكرمه، يصور لنا رسول الله ﷺ ذلك المشهد فيقول: ((**إن الله يُدني المؤمن؛ فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك؛ قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق،** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]))(٢).

الصنف الثالث: الحساب العسير.

وإذ كان العاصي لئيمًا في حياته الدنيا؛ فإنه يحسب أن لؤمه وذكاءه سينجيه يوم القيامة، ولكن هيهات هيهات، تأمل في ذلك المشهد المضحك المبكي، الذي يصور حال أصحاب الحساب العسير: عن أنس ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، **فضحك، فقال:** ((**هل تدرون مم أضحك؟**))، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((**من مخاطبة العبد ربه يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: فإني لا أجيز على نفسي شاهدًا اليوم إلا من نفسي.**

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، فيختم على فيه، ويقال لجوارحه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لَكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل))(٣).

هكذا تنطق الجوارح بما فعلت في الدنيا من معصية الله في شهادة دامغة، لا يملك معها صاحب المعصية إنكارًا أو تشكيكًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، (٥١٢٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾، (٢٢٦١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه، (٥٢٧١).

عندما تتطاير الصحف

ولأنه سبحانه لا يظلم أحدًا؛ فلا بد أن يُتم حجته على خلقه، فيرى كل إنسان مغبة ما قدمت يداه في الدنيا بأم عينيه يوم القيامة، وهنا يأتي مشهد تطاير الصحف، إنه ذلك المشهد الذي لا يذكر فيه أحد أحدًا، ولا يفكر في خل خليلُه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: ((**ما يبكيك؟**))، قلت: ذكرت النار، فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: ((**أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحد أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم**))[1].

فهذه الصحيفة أو هذا الكتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فإن كان العبد من أهل السعادة، ممن رضي الله عنهم في الدنيا والآخرة؛ أعطاه الله كتابه بيمينه، وأظهر له في ظاهر الكتاب حسناته، وفي باطنه سيئاته.

فيأمر الله عبده أن يبدأ، فيقرأ السيئات، فيصفر لونه، ويتغير وجهه، وترتعد فرائصه، فإذا أنهى قراءة السيئات، وجد في آخر الكتاب، هذه سيئاتك قد غفرتها لك؛ فيتهلل وجهه، ويسعد سعادة لايشقى بعدها أبدًا.

ثم يواصل القراءة، حتى إذا وصل إلى آخر الكتاب؛ قرأ الحسنات؛ فازداد وجهه إشراقًا، وازداد فرحًا وسرورًا، وقال له الرب الرحيم: انطلق إلى أصحابك وإخوانك [أي: من أهل التوحيد والإيمان]، فبشِّرهم أن لهم مثل ما رأيت، فينطلق وكتابه بيمينه، والنور يشرق من وجهه، يقول لأصحابه وخلَّانه: ألا تعرفونني؟! فيقولون: من أنت؟ لقد غمرتك كرامة الله!! فيقول: أنا فلان بن فلان، انظروا هذا كتابي بيميني.

اقرأوا هذا الكتاب معي، شاركوني الفرحة والسعادة، انظروا هذا توحيدي، وهذه صلاتي، وهذه زكاتي، وهذه صدقتي، وهذا حجي، وهذا قيامي الليل، وهذا بري بوالديَّ، وهذا إحساني للأهل والجيران، وهذا أمري بالمعروف، وهذا نهيي عن المنكر، وهذا بعدي عن الغيبة والنميمة، وهذا بعدي عن ظلم العباد.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في ذكر الميزان، (٤١٢٨)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود، (٤٧٧٥).

فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤].

وأما إن كان من أهل الشقاوة، فينادى عليه: أين فلان بن فلان؟ أين فلان بن فلان؟ هلم إلى العرض على الله ﷻ، فيتخطى الصفوف؛ ليرى نفسه بين يدي الله تعالى، فيعطى كتابه بشماله، أو من وراء ظهره، فيقرأ؛ فيسود وجهه، ثم يكسى من سرابيل القطران، ويقال له: انطلق إلى من هم على شاكلتك؛ فبشرهم أن لهم مثل ما رأيت.

فينطلق في أرض المحشر، وقد اسود وجهه، وعلاه الخزي والذل والعار، وكتابه بشماله أو من وراء ظهره، فينطلق، فيقول لخلّانه ومن هم على شاكلته: ألا تعرفونني؟! فيقولون: لا، إلا أننا نرى ما بك من الخزي والذل، فمن أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، وهذا كتابي بشمالي، ولكل واحد منكم مثل هذا، فلقد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا، ثم يصرخ بأعلى صوته، ويقول كما حكى الله تعالى لنا: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٧].

لحظة الحقيقة

ثم تأتي بعد ذلك اللحظة الحاسمة، اللحظة التي يدرك الإنسان فيها حقيقة مصيره عند الله ﷻ، وحقيقة وزنه الفعلي في الدنيا والآخرة، إنها لحظة تقرير المصير النهائي لكل إنسان، فيعلم فيها أي الفريقين فريقه؟ وأي الدارين داره؟!

والوزن بالقسط فلا ظلم ولا ... يؤخذ عبد بسوى ما عملا
فبين ناجٍ راجح ميزانه ... ومقرف أوبقه عدوانه

ففي ختام ذلك اليوم يُنصَب الميزان لوزن أعمال العباد، فإنه (إذا انقضى الحساب؛ كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها)[1].

إنه ميزان حقيقي، له كفتان، لكن لا كموازين الدنيا، يقول فيه النبي ﷺ: **((يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟**

---

(١) التذكرة، القرطبي، ص(٢٦٩).

فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك))[(١)]، وهو ميزان دقيق، لا يزيد ولا ينقص: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فيالها من لحظة رهيبة، تلك التي يعلم الإنسان فيها نهاية مصيره، فإما سعادة الخلد في جنات النعيم، وإما شقاوة الأبد في دار الجحيم؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٤].

فمن ثقل ميزانه - ولو بحسنة واحدة - سعد سعادة لا شقاوة بعدها أبدًا، ومن خف ميزانه - ولو بسيئة واحدة - ربما شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبدًا.

أما من استوت موازينه [أي: استوت حسناته مع سيئاته]؛ فهو من أهل الأعراف، الذين قصرت بهم سيئاتهم؛ فلم يدخلوا الجنة، ومنعتهم حسناتهم من أن يدخلوا النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فإذا التفتوا إلى أهل الجنة؛ سلموا عليهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٦].

أي: لم يدخل أهل الأعراف الجنة وهم يرجون رحمة الله، ويطمعون أن يدخلوا دار النعيم، وإذا التفتوا إلى الناحية الأخرى، ورأوا أهل الجحيم؛ تضرعوا إلى الرحمن الرحيم ألا يجعلهم مع القوم الظالمين؛ قال ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٧].

فكيف يحتقر أحدنا بعد ذلك حسنة مهما بدت صغيرة، وكيف يتهاون بمعصية مهما بدت صغيرة، فبحسنة واحدة يثقل الميزان، وبسيئة واحدة يخف، بل بكلمة واحدة قد تنال من الله الرضوان، وبأخرى قد تنال منه السخط والحرمان، كما قال ﷺ: ((**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا، فيهوي بها في جهنم**))[(٢)]، ومن ثم فقد قال ﷺ: ((**اتقوا النار، ولو بشق تمرة**))[(٣)].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (٨٨٩١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٣٦٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (٦٤٧٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، (١٣٢٨).



زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا

أيها المسافر إلى ربه، ((اعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، وخطراته ولحظاته، كما قال عمر ﷺ: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا)؛ وإنما حسابه لنفسه: أن يتوب عن كل معصية قبل الموت، توبة نصوحًا، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، ويطيب قلوبهم؛ حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة))[١].

وإن منكم إلا واردها

ثم تصل بنا رحلتنا إلى آخر مشهد من مشاهد يوم التغابن، فلئن كان العبد قد عرف مصيره من خلال مشهد الحساب والميزان؛ فإنه في مشهد الصراط يلقى مصيره الفعلي، في آخر لحظة قبل دخول النيران، أو سكنى الجنان؛ إنه الصراط، وما أدراك ما الصراط؟ ذلك الجسر الرهيب المضروب على ظهر جهنم، يمتد طرفه إلى دار النعيم، فمن عبره بسلام؛ فاز برضوان الله والجنة، ومن تعثر وزلَّ من فوقه؛ سقط في دار الجحيم عياذًا بالله، وذاك مصداق قول الله ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم: ٧١].

ويبين رسول الله ﷺ لنا حقيقة ذلك الورود فيقول: ((**والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة**))، قالت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ قال ﷺ: **ألم تسمعيه قال:** ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧٢]))[٢].

من الآن حدد سرعتك.

وإذا كانت جسور الدنيا تسع البشر، بل والسيارات على اختلاف أنواعها وأحجامها؛ فإن لجسر المصير شأنًا آخر، يصفه لنا رسول الله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، فيقول: ((**ثم يُؤتى بالجسر، فيُجعل بين ظهري جهنم**)) قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: ((**مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد، يُقال لها السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل**

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٥/ ١١٦٤).

(٢) أورده ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية، وصححه الألباني في تخريج الطحاوية، ص(٤٦٩).

والركاب، فناج مسلَّم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم فيسحب سحبًا))، يقول أبو سعيد ﷺ: (بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف)[١].

هل تخيلت أخي، كم هو رهيب ذلك المرور على الصراط، إنه جسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وعلى جنباته شوك وكلاليب، تخطف الناس إلى قعر جهنم، التي لا تزال تزفر من تحت العباد في هذا السباق المصيري، فيا ترى: هل ستعبره بسلام؟ وإذا عبرت؛ فبأي سرعة؟

إن السرعة هنا لا تحددها قدرة التوازن، أو سرعة العدو، أو قوة التحمل كما في الدنيا، وإنما تتحدد وفقًا لما حصلته من وقود الطاعات في دار العمل، فكلما ارتقيت في منازل العبودية عند ربك؛ كلما زادت سرعة المرور، والعكس بالعكس، عياذًا بالله.

على قدر الأعمال تكون الأنوار

وفي هذا المشهد العصيب، يُلقي الله تعالى على أهل الموقف ظلمة حالكة السواد فلا يستطيع أحد أن يخطو خطوة واحدة إلا بنور، فلا شمس ولا قمر، ولا مصابيح ولا بطاريات، إنما هو نور الأعمال الصالحات، فوحده الذي ينفع في هذا الموقف.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: ((**على الصراط**))[٢]، وفي حديث آخر: ((**هم في الظلمة دون الجسر**))[٣].

قال ابن مسعود ﷺ: ((**منهم من يُعطى نوره مثل الجبل العظيم، يسعى بين أيديهم، ومنهم من يُعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يُعطى مثل النخلة بيده، ومنهم من يُعطى أصغر من ذلك، حتى يكون آخرهم رجلًا يُعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفئ مرة، فإذا أضاء؛ قدَّم قدمه، وإذا أطفئ؛ قام**))[٤]، وهنا تسمع قول الله ﷻ في كتابه الحكيم: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد: ١٢].

وأما المنافقون في ذلك اليوم؛ فلهم شأن آخر، لكنه خزي مهين، يصور الله لنا مشهدهم على الصراط، فيقول: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة، (٢٦٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، (٤٩٩٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، (٤٧٣).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٩٦٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٣٥٩١).

وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد: ١٣-١٤].

إنهم المنافقون والمنافقات، (في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف.

ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتًا مجهلًا يناديهم: ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾، ويبدو أنه صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا، إلى ما كنتم تعملون، ارجعوا، فالنور يلتمس من هناك، من العمل في الدنيا، ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور!

وعلى الفور يُفصَل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات، فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت، فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بُعثنا معكم هنا في صعيد واحد؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾، كان الأمر كذلك، ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فصرفتموها عن الهدى، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها! ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وانتهى الأمر، ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾، وهو الشيطان الذي كان يُطمعكم ويُمنيكم)[1].

الجزاء من جنس العمل.

يقول الإمام ابن القيم، رحمه الله: (وللهداية مرتبة أخرى، وهي آخر مراتبها، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه؛ هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصِّل إلى جنته، ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط؛ يكون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٤٨٦).

سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المُسلَّم، ومنهم المكردس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه، وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت؛ فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦])(١).

رحمات بعد الورود

وينتهي بنا مشهد الصراط، ولكن رحمة الله بعباده أبدًا لا تنتهي، فما زالت رحمات الله تعالى تتوالى على عباده المؤمنين، ويحدثنا النبي الأمين ﷺ، عن بعض هذه الرحمات، فيقول: ((**حتى إذا خلُصَ المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده، ما من أحد منكم بأشد مناشدة الله من استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون، ويحجُّون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتُحرَّم صورهم على النار، فيُخرِجون خلقًا كثيرًا، قد أخذت النار إلى نصف ساقه، وإلى ركبته.**

ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحدٌ ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحدٌ ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير؛ فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرًا، وكان أبو سعيد ﷺ يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث؛ فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

فيقول الله ﷻ: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار؛ فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حُمَمًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل.

---

(١) مدراج السالكين، ابن القيم، ص(٥).



ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أُصَيْفر وأُخَيْضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟))، فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى الغنم!

قال: ((**فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الله، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا، أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**))[١].

كيف النجاة؟

وبعد هذه الجولة السريعة مع بعض أحداث يوم التغابن، بعد أن عاينًا سويًّا عظم هذه الأهوال، التي لا يعلم شدتها إلا الله تعالى؛ فإن السؤال الذي ينبغي أن يطرحه كل عاقل على نفسه: ما السبيل إلى النجاة في ذلك اليوم المصيري الذي يكثر فيه الهالكون؟ وكيف يكون العبد آمنًا في يوم الفزع الأكبر، إذ الناس خائفون؟

وهنا يلقي إلينا رسول الله ﷺ حبال النجاة السبعة، فيبين لنا بعض أصناف الناجين يوم التغابن؛ حتى نتعلق ولو بحبل واحد منها، فننجو في ذلك اليوم الرهيب، فتدبر أيها المسافر جيدًا في هذه الأصناف، واختر منها ما يناسبك؛ لتعضَّ عليه بالنواجذ.

سبعة يظلهم الله.

ففي يوم التغابن، الذي تدنو الشمس فيه من رءوس الخلائق مقدار ميل، ويغرق الناس في عرقهم، كلٌّ بحسب عمله في الدنيا، فهناك سبعة أصناف من المؤمنين لا يعانون من ذلك الحر، بل يُظِلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قال رسول الله ﷺ: ((**سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها؛ قال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه**))[٢].

أفلا تستطيع أيها المسافر، أن تنضم ولو إلى صنف واحد من هؤلاء السبعة؟ أفلا تستطيع وأنت لا زلت شابًّا أن تعود إلى ربك، وتستقيم على أمره؛ فتكون شابًّا نشأ في طاعة الله؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (٢٦٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، (١٣٣٤).

أفلا تستطيع ـ إن كنت حاكمًا أو مسئولًا ـ أن تحكم في رعيتك، أو مرءوسيك بالعدل؟ فتكون إمامًا عادلًا.

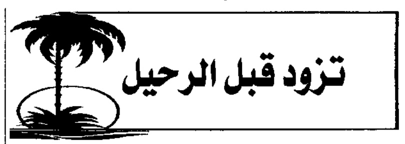
أفلا تستطيع أن تصلي خمس صلوات لله في اليوم والليلة في بيت من بيوت الله، جماعة مع عباد الله المؤمنين؟ فتكون ممن تعلقت قلوبهم بالمساجد.

أفلا تستطيع أن تلزم رفيقًا صالحًا، تحبه من أجل طاعته لله؟ فتحوز معه شرف الانتساب إلى زمرة المتحابين في الله.

أفلا تستطيع أن تغض بصرك وفرجك عن الحرام؟ فتكون ممن قال لأخوات امرأة العزيز من الكاسيات العاريات: إني أخاف الله.

أفلا تستطيع أن تتصدق بصدقة ولو صغيرة، تخفيها عن أعين الناس، تبغي بها نجاة في يوم تنكشف فيه السرائر؟!

أفلا تستطيع أن تقوم ليلة لله، خاشعًا متدبرًا، في خلوة عن أعين الناس، لا يراك إلا علام الغيوب، ترتل آيات من كتاب ربك وتتدبرها؛ فيرق لها قلبك، وتدمع لها عينك؟! بلى والله، إنك لتستطيع، ولكن استعن بالله ﷻ، ولا تعجز.



على المسافر الحريص أخذ زاده من هذه المرحلة قبل مغادرتها، ويتمثل في:

(١) المحافظة على صلاة الجماعة في المسجد؛ حتى تكون رجلًا قلبه معلق بالمساجد.

(٢) صدقة في السر ولو بالقليل من المال.

(٣) الحرص على غض البصر، واجتناب مشاهدة ما حرم الله من الأفلام والمسلسلات.

(٤) ابحث لك عن رفيق صالح لتحبه في الله، وتجتمع معه على طاعة، كحفظ قرآن، أو تعلم قراءته وتجويده.

وبالمحافظة على هذا الزاد؛ نرجو أن يكون المسافر قد بدأ الطريق إلى تحصيل مرتبة:

[شاب نشأ في طاعة الله]



المرحلة الخامسة: دار البوار

أما وقد وصلنا إلى تلك المرحلة في رحلتنا إلى الدار الآخرة؛ فقد وصلنا إلى أعظم ما خوَّف الله ﷻ به عباده من الآيات والنذر، إنها دار البوار والخسار، نهاية مستقر المفرطين والمعرضين عن سبيل رب العالمين، إنها دار الحسرة الأبدية، والندامة التي لا تنقطع، إنها دار عقاب الرب ﷻ، لمن عصاه وأدبر عن طريقه؛ فلم يستأهل رحمة الله التي وسعت كل شيء، فكم أعطاه الله من فرص ومنح، وكم أمهله من أيام وسنين، كم حلم عليه ولم يعاجله بالعقوبة، كم أرسل له النذر تلو النذر، والآيات تلو الآيات؛ لعله يتعظ أو يرجع.

لكن صاحبنا بالغ في الغفلة، وسدر في الغي والعصيان؛ فأسرف على نفسه، وفرط في جنب ربه، في غير أسف ولا ندم، ولا حزن على ما ضيَّع من حظه من الله ﷻ؛ حتى زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا؛ فجعل يبارز الله ﷻ بالكبائر ولا يبالي، يفعل العظائم وينتهك الحرمات؛ فلا يهتز له جفن أو يطرف له رمش، فكان أن لقي ربه بجبال من الخطايا والبلايا، بعد أن خُتِم له بالسوء عياذًا بالله.

أنذرتكم النار

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب، ويقول: **((أنذرتكم النار، أنذرتكم النار))**، حتى لو أن رجلًا كان بالسوق، لسمعه من مقامي هذا، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[١].

هكذا كانت شفقة رسول الله ﷺ على أمته من عذاب دار البوار، هذا هو حاله ﷺ معنا، فما أعجب حالنا معه! كأنما هو يريد لنا الجنة، بينما نريد لأنفسنا النار، بأعمالنا وأحوالنا، وتفريطنا في حق ربنا ﷻ - إلا من رحم الله - تمامًا كما وصف النبي ﷺ تلك الحال قائلًا: ((**إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها**))[٢].

وفي رواية: ((**مثلي كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها؛ جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، وتقتحمون فيها**))[٣].

وها هو الحبيب ﷺ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يستعيذ بالله من عذاب

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (١٠٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٣٦٩٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته، (٤٢٣٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته، (٤٢٣٥).

جهنم، بل لقد كان يأمر أصحابه ﷺ أن يستعيذوا بالله من عذاب النار في آخر كل صلاة، فقد كان ﷺ يقول: ((**إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والمات، ومن شر فتنة المسيح الدجال، ثم يدعو لنفسه بما بدا له**))(١)، وقال أنس: (كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١])(٢).

وكيف لا يستعيذ رسول الله ﷺ من النار، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٤ – ١٥].

بعث النار

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((**يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، قال: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**))(٣).

فتنبه – يا رعاك الله – لهذه الكلمات، من كل ألف من البشر واحد إلى الجنة، وتسعمائة وتسع وتسعون إلى النار، ففرصة النجاة إذًا ضئيلة، تحتاج إلى سعي حثيث متواصل؛ من أجل أن يُزحزَح العبد عن النار ويدخل الجنة.

ولكن: لماذا تنكَّب معظم الخلق عن طريق الجنة، وآثروا طريق النار عياذًا بالله؟ يفصح لنا رسول الله ﷺ عن ذلك السر، فيقول: ((**لما خلق الله الجنة؛ قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حَفَّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب ثم نظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك، لقد خشيت ألا يدخلها أحد.**

فلما خلق الله النار؛ قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: أي رب، وعزتك، لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها))(٤).

هكذا أيها المسافر إلى ربه، لقد حُف طريق النار بالشهوات المزينة؛ ابتلاء للعباد من الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، (٩٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قوله ﷺ: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، (٥٩١٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (٣٠٩٩).

(٤) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، (٤١١٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٤٧٤٤).

تعالى، واختبارًا لهم؛ ليميز الله من عباده الطيب الذي يؤثر ربه، ويقدم أمره على مراد النفس الأمارة بالسوء وشهواتها التي لا تنتهي، من الخبيث الذي يتخذ هواه إلهًا يعبده من دون الله، فيقدِّم هوى نفسه ورغباتها على أمر ربه، تمامًا كما حدثنا ربنا عن هذين الصنفين في كتابه؛ فقال عزَّ من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

دار البوار كأنك تراها

وتعال الآن أيها المسافر، لترى وصف دار الخزي والندامة، كما أخبر الله ورسوله ﷺ عنها، تعال لنراها في الدنيا؛ عسى أن يحدونا ذلك إلى سلوك سبيل ربنا هربًا منها؛ فنُزحزح عنها في الآخرة برحمة الله، وما ذلك على الله بعزيز.

ولربما ونحن نذكر النار قد خطر ببالك أخي الحبيب، أنها تشبه نار الدنيا التي نعلم، ولكن الأمر ليس كذلك بالمرة، فليست هنالك مقارنة تصلح بين النارين، قال رسول الله ﷺ: ((**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءًا من حر جهنم،** قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، **قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلها مثل حرها**))[(١)].

بل إن شدة الحر التي نشكو منها في الدنيا، ونتقيها بما نملك من وسائل التبريد والتلطيف، إنما هي نَفَس من أنفاس جهنم، وكذلك البرد الذي نشكو زمهريره ورعشته، إنما هو بدوره نَفَس من أنفاس دار البوار، قال ﷺ: ((**اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير**))[(٢)]، وقال ﷺ: ((**أبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم**))[(٣)].

فلو لم يكن في النار إلا هذا الحر لكفى به واعظًا ورادعًا عن المعصية، فكيف والأمر أشد وأعظم؟ ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥ - ١٦].

فهذه النار تشوي لحم الوجه، وتنزع جلده، فتفقده شكله، وتسلبه حسنه، فما أبشعها من دار للعذاب والأنين، وقد امتلأت بأنواع المقامع والأغلال والأصفاد؛ طعامها مرير، وماؤها حار حميم، وكلها ذل ومهانة، وخزي وندامة، وحسرة تعض منها الأنامل، حتى ليود كل مجرم

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة نار جهنم، (٥٠٧٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، (٣٠٢٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، (٣٠١٩).

أن يفتدي نفسه من عذابها بفلذات كبده، ورفيقة عمره، وأهله وعشيرته، بل بالناس أجمعين، ولكن هيهات هيهات، بعد أن حق عليه العذاب: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١ – ١٤].

ولا تسل عن أكلها، وشرابها، وفراشها، ودركاتها، فهي جحيم ولظى، ونيران لا تفنى، أعدها الله لكل عاصٍ مستكبر، إذا ذُكِّر لم يتذكر، وإذا وُعظ لم يتعظ، وإذا سمع آيات الله اتخذها هزوًا ولعبًا.

قال رسول الله ﷺ: ((**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جواظٍ مستكبر**))[١]، وقال ﷺ: ((**صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا**))[٢].

لها سبعة أبواب.

ومن عظم خلق هذه الدار أن لها سبعة أبواب، أخبرنا الله تعالى عنها فقال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤].

(أي: قد كتب الله لكل باب منها جزءًا من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه ـ أجارنا الله منها ـ وكلٌّ يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بحسب عمله أيضًا)[٣].

فانظر إليهم وقد وردوا على أبوابها، وقد علا وجوههم الخزي والعار، فإذا بها تفجؤهم فتفتح أبوابها لهم؛ شوقًا وشغفًا باستقبال وقودها من عصاة الإنس والجن.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وحينئذ يدخلون إلى جهنم من تلك الأبواب السبعة، وتبشرهم ملائكة العذاب بالخلود في دار الهوان: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧٢].

ثم تبلغ الحسرة منهم كل مبلغ حينما يسمعون صوت أبواب الجحيم، وهي تغلق من خلفهم، وتغلق معها أبواب الأمل في مغادرتها، حتى لينقطع طمعهم في الخروج منها: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ٨ – ٩].

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، (٤٥٣٧)، والعتل: الفاحش الآثم، والجواظ: الغليظ الفظ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الزينة، باب النساء الكاسيات العاريات، (٣٩٧١).

(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٦٤).

دركات الجحيم.

وكما أن الجنة منازل ودرجات، فإن النار كذلك منازل ودركات، تتمايز في ألوان العذاب وشدته، بحسب إجرام أهلها وقبح أعمالهم في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

فلما كان المنافقون في ذروة الكفر في الدنيا، وشدة الدأب في الصد عن سبيل الله تعالى، ومحاربة دينه وأوليائه، فكان جزاؤهم من جنس عملهم؛ إذ بلغوا في النار أسفل دركاتها، وأشدها هولًا وعذابًا، وأما أهون الناس عذابًا في النار، فتأمل ما يقوله فيه نبينا ﷺ، فيما يرويه النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة، رجل على أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه**))[1].

فإذا كان هذا حال أهون الناس عذابًا يوم القيامة؛ فما بالك بغيره من أهل النار؟ بل وما بالك بأشد أهل النار عذابًا؟

وقودها الناس والحجارة.

أخي الحبيب، ما ظنك بنار وقودها الناس والحجارة؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦].

(وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت، توقد بها النار، ويقال: إن فيها خمسة أنواع من العذاب، ليست في غيرها: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت)[2].

سموم ويحموم وحميم.

إن الحر في هذه الدنيا يمكن أن يُتَّقى بما مد الله لعباده من الظل، وبما رزقهم من الماء الذي يرويهم من العطش، وبما أوجد لهم من الهواء والريح الباردة التي تلطف لهم الجو وتهون عليهم شدة الفيح، أما في جهنم عياذًا بالله، فإن هذه الثلاثة تنقلب عذابًا على أهلها فالهواء سموم، والظل يحموم، والماء حميم.

قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٠٧٧).

(٢) التخويف من النار ودار البوار، ابن رجب، ص(١٠١-١٠٢).

بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤]، وقال ﷻ: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣٣].

فعياذًا بالله من هذه النار، فشررها قطع ضخمة على قدر الحصون والقصور، يشبه الإبل السود في لونه من شدة السواد، أما دخانها فمتشعب إلى ثلاث شعب، وهو يحموم، لا يظل من حرها، ولا يغني من لهبها، فكيف صبرك - يا عبد الله - على هذا؟ فهلَّا أنقذت نفسك من هذا الخطر الجسيم؟ فما ظنك بنار يلفح حرها الوجوه، فيتركها عظامًا لا لحم فيها، قال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

بل وتصهر البطون، وما في أحشائها من أمعاء، قال تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

عليها تسعة عشر

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

فخزنة جهنم جبلهم الله تعالى على الغلظة والشدة مع أهل النار، بما يتناسب مع مهمتهم، فهم غلاظ على الكفار شداد عليهم، فلا يُغلبون، ولا يُقهرون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وقد ذكر الله جل وعلا عدتهم فتنة للمنافقين والكفار، فقال سبحانه: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

وقد افتتن المنافقون بذلك، فظنوا أنهم قادرون على هذا العدد القليل، فأعقب الله الآية بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [المدثر: ٣١].

فيها غلاظ شداد من ملائكة قلوبهم شدة أقوى من الحجر

هل من مزيد؟

وأما عن حجم دار البوار، فهي شاسعة واسعة، بعيد قعرها، مترامية أطرافها، فلا يعلم سعتها إلا الذي خلقها ﷻ، وتعرف تلك السعة الرهيبة من خلال تدبر كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق: ٣٠].

فتأمل كيف يدخلها تسعمائة وتسع وتسعون في الألف من البرية، ومع ذلك يبقى فيها متسع للمزيد، فما أشبهها بالطاحونة التي ينحدر إليها بلايين من أطنان الحبوب البشرية، فتدور

بذلك كله، لا تكل ولا تمل، وينتهي الحَب والطاحونة تدور انتظارًا للمزيد.

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((**لا تزال جهنم تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ حتى يضع رب العزة قدمه، فتقول: قط، قط، وعزتك، ويُزْوَى بعضها إلى بعض**))[١].

ثم ارجع بصر التأمل كرتين في هذا الحديث النبوي الشريف، ليرجع إليك البصر متعظًا وهو بصير، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمعنا وجبة، فقال النبي ﷺ: ((**أتدرون ما هذا؟**))، قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها**))[٢]، بل وصح عنه ﷺ أنه قال: ((**لو أن حجرًا مثل سبع خَلِفَات، ألقي من شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفًا، لا يبلغ قعرها**))[٣].

وارجع معي الآن إلى مشهد من مشاهد يوم التغابن، الذي عشنا معه في المحطة السابقة، يقول في وصفه رسول الهدى ﷺ: ((**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك**))[٤].

أي بلغة الأرقام (٤٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠) أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك يجرونها، ولك أن تتخيل عظم هذا المخلوق الرهيب، الذي احتاج إلى هذا العدد الهائل من الملائكة الأشداء الأقوياء، الذين لا يعلم مدى قوتهم إلا الله تبارك وتعالى، فاللهم سلِّم سلِّم يا أرحم الراحمين.

سلاسل وأغلال.

وكما كان أهل النار في الدنيا ممن قيَّدتهم سلاسل الشهوات، وكبلتهم أغلال المعاصي والمحرمات؛ فإن الله تعالى يجعل جزاءهم في دار الجحيم من جنس عملهم، فقد جعل الله في أعناقهم الأغلال يُسحبون منها؛ والسلاسل يقيدون بها، فتزيدهم عذابًا على عذاب، وخزيًا فوق خزي.

قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [غافر: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٢].

وما أعظم تلك السلاسل والأغلال، وتلك المقامع والأصفاد، وما أثقلها على أهل النار،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، (٦١٦٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم، (٥٠٧٨).

(٣) أورده هناد بن السري في كتاب الزهد، (٢٤٨)، عن أنس ﷺ، وابن أبي شيبة في مصنفه، (٨/ ٩٦)، واللفظ لهناد، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٥٢٤٨)، ومعنى خلفات: جمع خلفة، وهي الحامل من النوق.

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم، (٥٠٧٦).



ويا للهوان والذل الذي يجلبه منظرُ حاملها وسط الجحيم، فإنما قيدهم الله بها لا خشية هربهم، كما يقيَّد السجين في الدنيا، وإنما إمعانًا في إذلالهم، وإشعارهم بالخزي والمهانة والعار الذي يتجرعونه في عذاب الخلد في دار البوار.

الطعام ذو الغصة.

ومع توالي العذاب والنكال على أهل النار؛ يصيبهم الجوع والعطش؛ تُرى: بماذا يطعمهم ربهم في دار البوار؟ قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٦-٧].

أتدري أيها المسافر، ما الضريع؟ إنه نوع من الشوك المر النتن، الذي لا ينفع آكله ولا يشبعه، فإذا زاد عليهم الجوع واستغاثوا يطلبون الطعام، فتسعفهم خزنة جهنم بما يزيدهم جوعًا وعذابًا: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: ١٣].

فهو شوك يقف في حلوقهم، يعلق بها؛ فيمزقها، فلا هو ينزل إلى بطونهم فيشبعهم، ولا هو يخرج من أفواههم فيستريحون من هذا العذاب، وعند ذاك لا يجد أهل النار أمامهم إلا طريقة الاكتفاء الذاتي، فيلتفتون إلى قيحهم و صديدهم، فيطعمون منه ولا يستسيغونه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: ٣٦-٣٧].

فتأمل - يا رعاك الله - في هذا المشهد المشين، الذي تتقزز النفس من سماع وصفه، فضلًا عن رؤيته، وانظر إلى هؤلاء البؤساء في مشهدهم هذا، وهم يلعقون الضريع والقيح والغسلين، وألوان العذاب فوق رءوسهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، إنه الخزي والندامة، والحسرة والخسارة.

فيا ساهيًا في غمرة الجهل والهوى ... صريع الأماني عن قريب ستندم

أفق قد دنا الوقت الذي ليس بعده ... سوى جنة أو حر نار تضطرم

أما فاكهتهم؛ فإنها من شجرة الزقوم، وإنها لشجرة شنيعة المنظر، فظيعة المظهر، مُرَّة المذاق، قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٥-٦٨].

فأي نكال بعد هذا النكال، واسمع إلى قول رسول الله ﷺ وهو يصف تلك الشجرة: ((**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض؛ لأفسدت على أهل الدنيا معائشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟**))(١).

وأما شراب أهل النار؛ فإنه الحميم الشديد الحرارة، يشربونه من شدة العطش، فإذا قربوه من وجوههم؛ فإنه يشويها من شدة حرارته: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (٣٦٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٥٢٥٠).

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

فإذا نزل إلى البطون، فلا أقل من أن يقطع الأمعاء، ويمزق الأحشاء ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

فما أشقى هذه الحياة! وما أتعس أهلها! فيا من تعصي الله، تصوَّر نفسك وأنت في هذه الحال، وقد رُمِيت لهذا المآل، وقذف بك في جهنم، أتراك تفديك أموالك؟! أم تراك ينجيك جاهك وأولادك؟! تراك تنفعك غدراتك ومعاصيك؟! تراك تنجيك مخازيك التي خلوت بها عن أعين الناس، ونسيت فيها نظر الرقيب؟! فتب إلى الله، فقد أوشك الأفول، وقرب الحساب.

فما هـي إلا ساعة سوف تنقضي ويدرك غِبَّ السير من هو صابر

لباسهم فيها جحيم.

وتأمل كيف قَلَبَ الله لهم كل لذاتهم التي كانوا يلتذون بها في الدنيا ويعصونه ﷻ من أجلها، كيف قلبها عليهم في دار الجحيم إلى مصدر عذاب ونكال؛ فكما عذبهم ربهم بأنواع الطعام والشراب، فكذلك يعذبهم بأنواع الثياب واللباس.

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩].

كان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: (سبحان من خلق من النار ثيابًا)[١]، فهي لباس مقطعة تزيد لابسها عذابًا ونكالًا وألمًا.

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠].

والقطران هو النحاس المذاب، وتأمل كيف ألبسهم الله يوم القيامة ثيابًا مقطعة حامية؛ لما لبسوا في الدنيا لباس المعاصي والمحرمات، مثلًا بمثل، وجزاء بجزاء، ولا يظلم ربك أحدًا.

أولئك الذين خسروا أنفسهم

أما وقد وصفت لك الدار، فاسمح لي لكي تكتمل الصورة في الأذهان، أن أصف لك ساكنيها، فأعرني سمع العبرة وعين الاعتبار، فهيئة أهل النار عظيمة هائلة؛ فجسد الواحد منهم أضخم من الجبال الشواهق التي تراها في الدنيا، فلا تسل عن ضروسهم ورءوسهم وجلودهم، فهي من العظمة في الحجم والغلظة ما لا يستطيع أن يتخيله عقل؛ وما ذاك إلا ليذوقوا العذاب في أعلى صوره، وأنكى شدائده.

---

(١) التخويف من النار ودار البوار، ابن رجب، ص(١١٩).



فإنه كلما تضخمت أجسامهم، اشتد عليهم العذاب والألم، قال ﷺ: ((**ما بين منكبي الكافر في النار، مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع**))(١)، وقال ﷺ: ((**ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث**))(٢).

فتأمل يا عبد الله، في قدرة الله وحكمته، كيف ضخَّم أجسام الكفار؛ نكاية بهم وزيادة لهم في الشقاء والعذاب، وتصوَّر إذا كان ضرس الكافر مثل جبل أحد، فكيف سيكون شكله وهيئته وجسمه؟ إن العقل ليعجز عن تصور هذا الشكل الرهيب العظيم؛ فلا غرو أن كانت هذه الأجساد العظيمة وقودًا لنار جهنم بها تتسعر وتتقد، نسأل الله السلامة والعافية.

ذق إنك أنت العزيز الكريم

أيها المسافر إلى ربه، اعلم أن الله جل وعلا لا يظلم مثقال ذرة، فأهل النار يختلفون فيها من حيث شدة العذاب كلٌّ بحسب ذنوبه ومعاصيه؛ قال ﷺ: ((**... منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حُجزَته**(٣)**، ومنهم من تأخذه إلى عنقه**))(٤)، وفي رِواية ((**... إلى ترقوته...**))، وقد تقدم أن: ((**أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة، رجل على أخْمص قدميه جمرتان، يغلي منها دماغه**))(٥).

ومن أهل النار من تأكله النار حتى تصل إلى قلبه، قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ ﴾ [الهمزة: ٤ – ٧].

كان ثابت البناني يقول: (تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء!! لقد بلغ منهم العذاب)، ثم يبكي(٦).

ومنهم من تندلق أمعاؤه في النار، وذلك الذي يعظ بها لا يتعظ به، وينصح الناس وينسى نفسه، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ((**يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار؛ فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**))(٧).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٠٦٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، (٥٠٩٠).

(٣) معقد الإزار والسراويل.

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم، (٥٠٨٠).

(٥) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٠٧٧).

(٦) التخويف من النار ودار البوار، ابن رجب، ص(١٣٥).

(٧) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، (٣٠٢٧).

ومن أهل النار من تلفح النار وجهه؛ فيتقلى فيها كما تتقلى السمكة في الزيت الحار: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ولك أن تتصور حال وجوههم، وقد ذهب لحمها، وبقي عظمها فيا لها من بشاعة، ويا له من ألم ومهانة، تتقلب وجوههم في النار، وهم ينادون فلا يسمعون، ويصرخون ولا يُرحمون، ويطلبون الموت فلا يُجابون.

ومن شدة عذابهم واكتوائهم، تذوب جلودهم من عذاب الجحيم، وعلى الفور يبدلهم الله تعالى بجلود أخرى؛ ليذوقوا العذاب أضعافًا مضاعفة؛ إذ إن الجلد هو مركز الإحساس بالألم كما ثبت في علم الطب، فسبحان العليم القدير الذي ذكر تلك الحقيقة في كتابه المعجز، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء: ٥٦].

تلك أمانيهم

وأمام كل تلك الأصناف من عذاب الجحيم، لا يملك أهل النار إلا بضاعة مزجاة، لم تنفعهم في الدنيا، ومع ذلك يظنون أنها قد تنفعهم في دار البوار؛ إنها بضاعة الأماني، التي طالما خدَّرتهم في الدنيا؛ حتى أوردتهم موارد الهلاك، هكذا كان يعيش أهل النار في الدنيا، لا يملك أحدهم أمام نفسه إلا الأماني، يعلل نفسه بأنه سوف يتوب، وحتمًا في يوم ما سيرجع إلى ربه، ويسير على صراطه المستقيم.

يمنِّي نفسه، بأنه يومًا ما سيسلك طريق الهداية، ويترك ما هو مقيم عليه من مساخط الرب ﷻ، أما الآن فهو شاب، فليستمتع بشبابه، فهكذا الشباب، سن الطيش والمغامرات، وينسى هذا المسكين أن الموت لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا، وأنه كلما كبر سنه؛ ضعفت قوته، وتجذرت شجرة العصيان في قلبه أكثر وأكثر، وهكذا يقطع أيامه ولياليه بالأماني والتسويف، حتى يأتيه زائر الموت، وتنتهي دار العمل بغير رجعة، وتَقْدُم دار الجزاء بغير ذهاب.

والآن وقد أصبح هذا المفرِّط من أهل النار؛ لم يجد في جعبته أيضًا إلا الأماني، فكم هي كثيرة أماني أهل النار، ولكن ما من مجيب، إلا بجواب يزيد الحسرة والألم من قِبَل الرب تعالى، أو ملائكته بأمر منه سبحانه، فتكون أول تلك الأماني:



أمنية الخروج.

فبعدما ذاقوا من ألوان العذاب التي لا تنفد؛ إذا بهم يتمنون الخروج من جهنم، بعد أن أيقنوا أن عذابها لا ينقضي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

فها هم هؤلاء المجرمون، تبدو عليهم أمارات الذل والخزي والعار، وأي عار وخزي وذل أشد من دخول دار الجحيم؟ الآن يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، وكأنهم ما كانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا، نعم كانوا يملكون أعينًا ترى كل شيء إلا نور الهداية، وأذنًا تسمع كل شيء إلا كلام الله ورسوله ﷺ.

ألم يخبرهم ربهم بهذا المصير وهم بعد في دار العمل؟! بلى، ولكن ألهتهم في الدنيا بضاعة الأماني؛ حتى لاقوا هذا المصير، فالآن حين أبصروا الحقيقة، الآن حين احترقت منهم الجلود والأجساد، الآن فقط أيقنوا كم كانوا يعيشون في سراب؛ ومن ثم يقولون: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

الآن يا رب، أيقنا أن عذابك حق، وأن شهواتنا ومعاصينا التي آثرناها على مرضاتك إنما هي أحلام وأوهام، فالآن يا رب أرجعنا، سنصلي، سنحفظ كتابك، سنسير في الدنيا على خطى نبيك، سنحمل هم ديننا، سنبذل في سبيلك أرواحنا؛ وهنا يأتي الجواب المدوي من الواحد القهار: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٣- ١٤].

هيهات، هيهات، فقد فات أوان الندم، فكما نسيتم ربكم في الدنيا، فالآن ينساكم وأنتم في أمس الحاجة إليه.

أمنية التخفيف.

وبعدما ييأس أهل النار من إجابة مطلب الخروج المستحيل، يطمعون في أمنية أقل من الأولى، فيتنازلون في أمانيهم إلى أقل درجة؛ علَّ الله تعالى يجيبها لهم.

ولأنهم تعودوا في الدنيا على الوساطة والمحسوبية، فإنهم يظنون أن الأمر في الآخرة يمكن أن يكون بنفس الصورة، ففي هذه المرة لا يطلبون من الله تعالى مباشرة، وإنما يكلمون خزنة جهنم، أن يتوسطوا لهم عند الله تعالى في تخفيف يوم واحد فقط، يوم واحد فقط، يستريحون فيه من عذاب الجحيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩].

(إنهم يستشفعون حراس جهنم؛ ليدعوا ربهم، في رجاء يكشف عن شدة البلاء: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يومًا، يومًا واحدًا فقط، يومًا يلتقطون فيه أنفاسهم ويستريحون، فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة، فهم يعرفون الأصول، ويعرفون سنة الله، ويعرفون أن الأوان قد فات، وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابًا، بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٥٠].

وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار، وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار: ﴿ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ﴾ إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئًا، فتولوا أنتم الدعاء، وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء: ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ لا يبلغ ولا يصل، ولا ينتهي إلى جواب، إنما هو الإهمال والازدراء)[1].

أمنية اللجوء والاستجداء.

وإذ يفقد أهل النار أي أمل في استجابة من الله تعالى أو ملائكته، يلجئون بأمانيهم إلى أهل الجنة، إلى أولئك الطيبين، الذين طالما نصحوهم في الدنيا، وطلبوا منهم أن يرافقوهم في طريق الله ﷻ، ولكنهم أصموا آذانهم عن دعاة الفلاح، وأسلموها لدعاة الهوى والشهوات، والآن يستجدون منهم أن يبذلوا لهم أي طعام أو شراب؛ لعله يسد بعض جوعتهم أو يطفئ بعض ظمئهم، أو يخفف عنهم شيئًا من العذاب المتواصل: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

فكما أمضيتم أيامكم في لهو ولعب، مفتونين بالدنيا وزينتها، تنتهبون من أصناف اللذات والمحرمات كما تشاءون؛ فاليوم يعطيكم الله الجزاء مثلًا بمثل، جزاء وفاقًا، بعدما أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فليس لكم اليوم إلا الحرمان.

ثم إذا بصوت البشر عامة يتوارى لينطق رب العزة والجلالة، وصاحب الملك والحكم ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف: ٥١].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٣٠٨٥).



أمنية الهلاك.

وبعد ذلك اليأس المرير الذي يصيبهم بعدما خذلهم أهل الجنة، ومع توالي أصناف العذاب الذي لا تطيقه الأجساد، لا يجد أهل النار أمامهم إلا أمنية أخيرة، ظنوا أنها لحقارتها قد يجيبها الله جل وعلا، فتحدثوا إلى مالك خازن النار، يطلبون منه أن يشفع لهم عند ربه لا بالخروج أو التخفيف هذه المرة، ولكن بأن يقضي عليهم ويهلكهم: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

(إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق، من هناك، من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة، ولا في طلب الغوث، فهم مبلسون يائسون، إنها يصيحون في طلب الهلاك، الهلاك السريع الذي يريح، وحسب المنايا أن يكن أمانيا!

وإن هذا النداء ليلقي ظلًّا كثيفًا للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسًا أطار صوابها العذاب، وأجسامًا تجاوز الألم بها حد الطاقة؛ فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة: ﴿ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية، ولا اهتمام: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ فلا خلاص، ولا رجاء، ولا موت، ولا قضاء، إنكم ماكثون)[١]، وعند ذلك تنقطع بهم الأماني، ويوقنون أن لا رجاء هنالك، وأنهم ماكثون فيها إلى أبد الآبدين.

كم خاف منها الصالحون

ولأجل ما وصفناه لك من أهوال دار البوار، استقام الصالحون على طريق الله تعالى، بعدما وجلت منهم القلوب، وذرفت منهم العيون؛ خوفًا وإشفاقًا على أنفسهم من هذه الدار الرهيبة، وخذ هذه الباقة العطرة من أخبارهم؛ علك تسير على آثارهم؛ فتلحق بهم في زمرة الناجين من عذاب السموم.

(قال عمر بن الخطاب ﷺ: لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلًا واحدًا؛ لخفت أن أكون أنا هو، وقال الحسن رحمه الله: كان عمر ﷺ ربما توقد له النار، ثم يدني يديه منها، ثم يقول: يا ابن الخطاب، هل لك على هذا صبر؟! وسمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا يتهجد في الليل، ويقرأ سورة الطور فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧، ٨]، قال عمر ﷺ: قسم حق ورب الكعبة، ثم رجع إلى منزله، فمرض شهرًا يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه.

وعن عبد الله بن الرومي قال: بلغني أن عثمان ﷺ قال: لو أني بين الجنة والنار، ولا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٣٢٠٢).

أدري إلى أيتهما يؤمر بي؛ لاخترت أن أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير، وكان من السلف من إذا رأى النار اضطرب وتغيرت حاله، وقد قال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٣]، قال مجاهد وغيره رحمهم الله: يعني أن نار الدنيا تذكر بنار الآخرة، وعوتب يزيد الرقاشي على كثرة بكائه، وقيل له: لو كانت النار خلقت لك؛ ما زدت على هذا، فقال: وهل خلقت النار إلا لي ولأصحابي، ولإخواننا من الجن والإنس، أما تقرأ ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن:٣١]، ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرحمن:٣٥]، فقرأ حتى بلغ: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الرحمن:٤٤].

وعن أبي مهدي قال: ما كان سفيان الثوري ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ينادي: النار النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول على أثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار.

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح بالليل فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حس، حس، ثم يقول: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟

وقال مالك بن دينار: قالت ابنة الربيع بن خثيم: يا أبت، مالك لا تنام والناس ينامون؟!! فقال: إن النار لا تدع أباك ينام.

وقال الحسن: إن لله عبادًا كمن رأى أهل الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار معذبين، وقال أيضًا: والله ما صدَّق عبد بالنار قط؛ إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره؛ لم يصدق بها حتى يهجم عليها)[1].

ولو بشق تمرة

ولعلك الآن في نهاية هذه المرحلة تريد أن تسأل كما عودتني منك: كيف السبيل إلى النجاة من عذاب دار البوار؟ وهنا يأتيك الجواب غضًّا طريًّا، من فم الرحمة المهداة إلى الخلق أجمعين محمد ﷺ: **((ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة))**[2].

---

(١) الدار الآخرة، محمود المصري، ص(٥١٧ - ٥١٩)، بتصرف.

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء، (٦٩٥٨).



فهذا كلام الحبيب الذي أوتي جوامع الكلم ﷺ، يوصيك بهذه الوصية الغالية، إنها تقوى الله تعالى وحدها التي تنجي من عذاب دار البوار؛ تقوى الله العظيم التي تتمثل في طاعته، بامتثال ما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، فهي وحدها التي تقيك وتحميك من عذاب السموم، كما وعدك الحي القيوم: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزمر: ٦١].

واسمع إلى أبي هريرة ﷺ، يوضح لك صورتها العملية، لما سئل عن التقوى، فقال: (هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى)[١].

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التُّقى

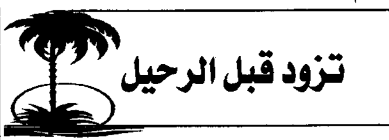
واصنع كماش فوق ... أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

واعتبر بما قصه عليك سليمان بن المغيرة: (لما عمل ذنبًا فاستصغره، فأتاه آتٍ في منامه، فقال له يا سليمان:

لا تحقرن من الذنوب صغيرًا ... إن الصغير غدًا يعود كبيرًا

إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مسطر تسطيرًا)[٢].



على المسافر الحريص أن يأخذ زاده من هذه المرحلة، والذي يتمثل في:

(١) اجلس مع نفسك في خلوة، واحص عدد الأوامر الشرعية التي تعلمها من الدين ولا تعمل بها، وعدد النواهي الشرعية التي تقع في ارتكابها، ثم طبق مفهوم التقوى على تلك الأوامر والنواهي.

(٢) اسأل الله جل وعلا كل يوم ثلاث مرات أن يجيرك من النار؛ فإن رسول الله ﷺ يقول: ((... **من استجار من النار ثلاث مرات؛ قالت النار: اللهم أجره من النار**))[٣].



(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص(١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٥٣).

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في وصف أنهار الجنة، (٢٤٩٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٧٢).

المرحلة السادسة: دار النعيم

أخي الحبيب، ها قد وصلنا إلى المرحلة السادسة من رحلتنا إلى دار القرار، إنها سفينة الرجاء وسط أمواج الخوف التي عشناها سويًّا، إنها الجنة، دار النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، وصلنا إليها سويًّا على هذه الصفحات، ونرجو من مولانا أن نصلها كذلك بعد الممات.

أخي، هل تعرف الجنة؟! إنها والله الدار التي يعجز عن وصفها الواصفون، مهما أوتوا من جمال الصياغة، وروعة التعبير، وكيف يفلح في وصفها واصف؟! وقد قال رسول الله ﷺ: ((**قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم:** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]))[١].

فهل عرفت الجنة؟! إنها دار خلود وبقاء، لا فيها بأس ولا شقاء، ولا أحزان ولا بكاء، لا تنقضي لذاتها، ولا تنتهي مسراتها، كل ما فيها يذهل العقل، ويسحر الفكر، ويسكر الرشد، ويصرع اللب.

هي جنة طابت وطاب نعيمها   فنعيمها باقٍ وليس بفانٍ

هي نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطَّرد، وفاكهة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَلٌ كثيرة في مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دور عالية بهيَّة، تتراءى لأهلها كما يتراءى الكوكب الدري الغائر في الأفق؛ عن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، مم خلق الخلق؟ قال: ((من الماء))، قلت: الجنة ما بناؤها؟ قال: ((**لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، وملاطها[٢] المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من دخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم...**))[٣]، فيا لها من لذة، وياله من نعيم: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥].

على أبواب الجنان

تعال بنا يا حبيبي في الله، ندخل معًا إلى الجنة، تعال نطل عليها في الدنيا، عبر نوافذ ربانية من كتاب الله تعالى، وأخرى نبوية من سنة حبيبه ﷺ؛ علَّ قلوبنا تتحرك؛ فتنقاد نفوسنا لربها؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣٠٠٥).

(٢) الملاط: الطين.

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، (٢٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٢٦).

لتستقيم على سلوك طريقه حتى الممات؛ فنكون من أهلها يوم نلقاه، وذلك هو الفوز العظيم.

أخي، ها هم عباد الرحمن قد عبروا الصراط بسلام، وازدحموا أمام أبواب الجنة الثمانية، ينتظرون الدخول إلى جنات عدن؛ ليظفروا بالنعيم الذي لا شقاء بعده.

على خطى الحبيب.

فأول ما ترى عيناك، مرأى رسول الله ﷺ وهو يطرق باب الجنة، نعم، فحبيبك ﷺ هو أول البشر دخولًا إلى الجنان، فلا تطأ قدما بشر دار النعيم قبل قدميه الشريفتين ﷺ؛ كما أخبرنا هو بذلك فقال ﷺ: ((**آتي باب الجنة فأستفتح؛ فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت؛ لا أفتح لأحد قبلك**))[١].

فإذا أردت دخولًا وراءه، إذا أردت أن تكون بقربه في الآخرة، بحيث تدخل الجنة في زمرته؛ فسر على خطاه في الدنيا تسر على خطاه إلى دار النعيم في الآخرة، مثلًا بمثل، وجزاء بجزاء، ولا يظلم ربك أحدًا.

اختر من الآن بابك.

ها هو رسول الله ﷺ قد دخل الجنة، ويليه أول زمرة يدخلونها بعده، أولئك أفذاذ المؤمنين وعمالقة الإيمان، الذين بلغوا المنازل العالية في الاستقامة والهدى؛ فاستحقوا أن يكونوا أول الناس دخولًا إلى دار النعيم، واسمع إلى حبيبك ﷺ وهو يصفهم فيقول: ((**إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة...**))[٢].

فهذه الزمرة المباركة تتقدم ركب المؤمنين إلى دخول دار النعيم من أبوابها الثمانية، نعم يا حبيبي في الله، فإن جنة وصفها الله تعالى بقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، جنة عرضها السموات والأرض، فما بالك بطولها؟ جنة بمثل تلك السعة الهائلة، لا يليق أن يكون لها باب واحد؛ فقد جعل الله تعالى لها ثمانية أبواب، وجعل لكل باب أهلًا وأصحابًا، تميزوا من بين عباد الله بتفردهم في طاعة من الطاعات؛ فبلغوا فيها ذرى العبودية لرب العالمين؛ فاستحقوا أن يُخصَّص لهم باب، ووصف رسول الله ﷺ سعته فقال: ((**ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام**))[٣].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ: أنا أول الناس يشفع، (٢٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه، وذريته، (٣٠٨٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه، (٥٢٦٨).

ثم وصف أهل الأبواب، فقال ﷺ: ((**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة؛ دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد؛ دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة؛ دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام؛ دُعي من باب الريان**)).

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، ما على أحد يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: ((**نعم، وأرجو أن تكون منهم**))[(١)]، فلله در أبي بكر من عملاق عالي الهمة، يطمح إلى معالي الأمور، فما ضره لو دخل الجنة من باب واحد، ما دام سيدخلها في النهاية، لكنها النفس التوّاقة إلى منازل الفراديس وجوار رب العالمين.

حفلة الاستقبال.

وما إن تطأ قدمك الجنة مع أفواج المؤمنين؛ وإذا بلجنة الاستقبال الملائكية قد أعدت لك حفلة رائعة ترحيبًا بك، وفرحًا بمقدمك من سفر الدنيا إلى دارك الأولى، التي خرج منها أبوك آدم أول مرة، فتستقبلك الملائكة، يهنئونك بسلامة الوصول، وفي مقدمتهم رضوان خازن الجنان.

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

ثم تقدم لهم الملائكة بعد السلام وجبة خفيفة من دار النعيم، يصفها رسول الله ﷺ لما سُئل:... فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: ((**زيادة كبد الحوت**))، قيل: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: ((**ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها**)) قيل: فما شرابهم عليه؟ قال: ((**من عين فيها تسمى سلسبيلًا...**))[(٢)].

نداء السعادة الأبدية.

ولئن خاف الناس في الدنيا من الفقر والمرض، ومن الشيخوخة والموت، ومن البؤس والشقاء؛ فإن أهل الجنة يأمنون من هذا كله، مع أول لحظة تطأ أقدامهم فيها أرض دار النعيم؛ فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: ((**إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذاك قول الله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا**

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، (١٧٠٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، (٤٧٣).

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٣]))(١).

فعلام إذًا - يا أخي - نبيع هذا النعيم المقيم، بنعيم بالٍ في الدنيا، منغَّص مكدر، سرعان ما يزول.

فيــا بائـعًا هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فــإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

إلى عشاق الجمال

وإذا كنت - يا أخي - من عشاق القوة والجمال في الدنيا؛ فأبشر؛ فإن الله تعالى لم يعطك في الجنة الصحة فحسب، وإنما أعطاك بجانب ذلك القوة والرشاقة، والحسن والجمال، فستلج دار النعيم إن شاء الله، وأنت على صورة أبيك آدم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

فلا أكمل ولا أتم من تلك الصورة والخلقة التي خلق الله عليها أبا البشر آدم، فقد خلقه الله تعالى بيده فأتم خلقه وأحسن تصويره، طوله في السماء ستون ذراعًا؛ فعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: ((**خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا... فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن**))(٢).

وإذ حباك الله تعالى في الجنة بحسن المظهر، وقوة الجسم وجماله، فإن من كرمه سبحانه وحبه لأوليائه أنه لا يدعك حتى يضيف إلى ذلك جمال الباطن، وصفاء النفس، وطهارة الروح.

ففي الحديث الذي يصف فيه الرسول ﷺ دخول أهل الجنة، ومنهم الزمرة الذين يدخلون الجنة نورهم كالبدر، قال: ((... **أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء**))(٣).

ولا يزال حسنك في ازدياد، وجمالك في تصاعد، فتكون أجردَ أمردَ، بلا لحية أو شارب، أكحل العينين، في عمر القوة والصحة، والفتوة والبأس، ابن ثلاث وثلاثين سنة، لا تعدوها أبدًا، فعن معاذ بن جبل ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: ((**يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جردًا مردًا مكحَّلين، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة**))(٤).

ثم إنك فوق ذلك كله منزه في دار النعيم عن كل قذارات الدنيا وأذاها: من بصاق أو مخاط، أو بول أوغائط، فإن أهل الجنة كما وصفهم رسول الله ﷺ: ((... **لا يبصقون، ولا**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، (٥٠٦٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب البدء بالسلام، (٥٧٥٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة، (٥٠٦٣).

(٤) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سن أهل الجنة، (٢٤٦٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٠٤٥).

يمتخطون، ولا يتغوطون...))[١].

ولكي يكون نعيمك فيها دائمًا متصلًا، لا يقطعه قاطع؛ فقد جعلك الله تعالى تحيا فيها في يقظة دائمة، بلا نوم يقطع عليك لذات النعيم؛ فقد جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: ((**النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة**))[٢].

إلى الخيام والقصور

وبعد تلك الحفلة الملائكية الباهرة، وذلك الاستقبال الرائع في جنات الخلود، آن الأوان أن تذهب إلى بيتك في الجنة، ولعلك تظن الآن أن الملائكة ستقودك إلى مسكنك الجديد في دار النعيم، عذرًا يا حبيبي في الله، فأنت مخطئ في هذا الظن، بل إنك ستذهب إلى منزلك من تلقاء نفسك، وكأنك ولدت فيه وترعرعت في ربوعه.

يقول ﷺ: ((**يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونُقوا؛ أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا**))[٣].

ولربما انزعجت قليلًا من كلمة الخيام، فهل صحيح أن في الجنة خيام؟ نعم والله إنها خيام، ولكن ليست كالخيام، فما في الجنة من الدنيا إلا الأسماء، أما المسميات فلا تمت لما في الدنيا بِصِلَة.

واسمع إلى وصف هذه الخيام من رسول الأنام ﷺ إذ يقول: ((**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن؛ فلا يرى بعضهم بعضًا**))[٤].

إنها لؤلؤة واحدة، طولها ستون ميلًا، هذه هي الخيمة، فما بالك بالقصر، الذي أعده الله لك في جنات عدن؟ قال تعالى يصف لك قصرك إن كنت من المتقين: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾ [الزمر: ٢٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (أخبر ﷻ عن عباده السعداء أن لهم غرفًا في الجنة، وهي القصور الشاهقة ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ طباق فوق طباق، مبنيات محكمات، مزخرفات عاليات)[٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣٠٠٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، (٩٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٥٥٩)، واللفظ للبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٦٨٠٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، (٦٠٥٤).

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة، (٥٠٧٠).

(٥) تفسير ابن كثير، (٤/ ١١).



ويتمم لك النبي ﷺ وصف قصرك، فيقول: ((**إن في الجنة لغرفًا يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**))، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: ((**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام**))[1].

دار النعيم كأنك تراها

والآن يا ولي الله، هل تحب أن تنزل من قصرك لتأخذ جولة في دار النعيم؟ اسمح لي إذًا أن أصحبك في تلك الجولة السريعة، عبر آيات الكتاب وأحاديث الحبيب ﷺ.

بناء الجنة وتربتها.

فأما أبنية الجنة، فكلها من ذهب وفضة، فالقصور لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وأما التراب الذي تمشي عليه، فمن الزعفران الطيب الرائحة، وأما الحصى الذي يتخلله؛ فمن اللؤلؤ والياقوت؛ هكذا وصف رسول الله ﷺ دار النعيم لما اشتاق إليها أصحابه كما تشتاق إليها أنت الآن، فسأله أبو هريرة ﷺ نائبًا عن جموع المشتاقين إلى دار المتقين: الجنة ما بناؤها؟

فقال ﷺ: ((**لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من دخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم...**))[2].

أشجار وثمار.

وبينما أنت تمرح في دار الخلود؛ إذ خلب لبك ما ترى من كثرة الأشجار، ووفرة طيب الثمار، وغرائب الأطيار، فأشجارها لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها، من كثرة أغصانها، وطول عمودها، وانسياب أركانها وأعوادها، ولقد أودع الله تعالى فيها من جمال الشكل، وحسن المنظر، وبهاء اللون، ورونق المظهر، وامتداد الظل، وطيب الثمار، ما لا يخطر على بال، ولا رأته عين، ولا سمعته أذن، ويكفي في ذلك قول رسولنا ﷺ: ((**ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب**))[3].

فتصور نفسك أيها المسافر، وأنت تملك واحدة من تلك الأشجار، كيف ستكون نشوتك؟ وكيف سيكون سرورك وفرحتك؟ وكيف وهي أشجار كثيرة، عديدة ومتنوعة، من رمان إلى أعناب، إلى ما لا يحصى من أنواع الفواكه التي تشتهيها نفسك، ما يربط بينها وبين ثمار الدنيا إلا الأسماء، لكنها في الطعم أحلى من العسل، وألين من الزبد، كأمثال القلال في الحجم

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، (١٩٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (١٩٨٤).

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، (٢٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٢٦).

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة شجر أهل الجنة، (٢٤٤٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٢٥).

والضخامة، لا فيها بذور أو قشور تنغص تمام التنعم بها.

﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النبأ: ٣١-٣٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٢].

يا طيب هاتيك الثمار وغرسها   في المسك ذاك الترب للبستان
وكذلك الماء الذي يُسقى به   يا طيب ذاك الوِرْد للظمآن

وأطرف ما تقع عليه عيناك من أشجار الجنة، شجرة طوبى التي هي مصنع الملابس الجاهزة المعد لسكان دار النعيم.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، فقال ﷺ: ((**طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني**))، قال له الرجل: وما طوبى؟ قال: ((**شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**))[1]، فإذا أردت امتلاكًا لهذه الأشجار في دار النعيم؛ فقدِّم غراسها في الدنيا أولًا كما ينبيك عنه نبينا ﷺ إذ يقول: ((**لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم: أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وغراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**))[2].

عيون وأنهار

أيها المسافر إلى ربه، هل تحلم بامتلاك قصر على ضفاف النهر؟ أو [فيلا] تطل على البحر مباشرة؟ إن طلبك هذا موجود في دار النعيم، فقد علم ربك أن نفسك تألف المياه والبساتين والأشجار وتسكن إليها؛ فزيَّن ﷻ بها الجنة، وألبسها من بهاء الأشجار وعلوها، وبركة الثمار ونموها، وجريان الأنهار وسيولها، وعذوبة العيون في أركانها، ما تقر به أعين عباد الله الصالحين، أما عيون الجنة التي أعدها الله لك، فيقول عنها ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحجر: ٤٥].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنٗا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا

(١) رواه أحمد في مسنده، (١١٢٤٥)، وابن حبان في صحيحه، (٧٥٣٦)، واللفظ لأحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (٣٩١٨).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، (٣٣٨٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٤٦٢).



تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٥-٦].

قال بعض السلف رحمهم الله: (معهم قضبان من حديد، حيثما مالوا مالت معهم)(١).

فتارة تُمزج العين التي تشرب منها بالكافور؛ فتكون باردة طيبة الرائحة، وأخرى بالزنجبيل؛ فتكون حارة طيبة الرائحة، قال تعالى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإنسان: ١٧-١٨].

وأما أنهار الجنة، فبين تلك القصور الذهبية، والخيام البهية، تجري أنهار عذبة، أعدها الله تعالى للمؤمنين، ونَوَّع أجناسها وشرابها: فمنها الماء، ومنها العسل، ومنها الخمر، ومنها اللبن؛ قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد: ١٥].

فماء الدنيا يأسن ويأجن من طول مكثه، لكن مياه أنهار الجنة لا تأسن، ولبن الدنيا تصيبه الحموضة إذا طال مكثه، لكن لبن الآخرة لا يتغير طعمه، وخمر الدنيا كريهة المذاق كريهة الرائحة، أما خمر الجنة ففيها من اللذة ما يبعث على الشرب، وعسل الدنيا تصيبه الأخلاط فلا يصفو، أما عسل الجنة فصافٍ لامع، فأين هي الدنيا من الآخرة؟ وكيف يحرص عاقل على لذة ناقصة فانية، ويترك اللذة الكاملة الباقية؟

وتأمل أخي في هذه الأنهار وما أودع الله فيها من خيرات، لم تجر العادة بمثلها في الدنيا، تأمل فيها وهي تجري في الجنة من غير أخدود، تحت القصور والمنازل، والغرف والأشجار، قال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾[البقرة: ٢٥]، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أما الكوثر فهو نهر من أنهار الجنة، أعطاه الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الكوثر: ١].

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: ((**بينما أنا أسير في الجنة؛ إذ أنا بنهر حافّتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طِيبه ـ أو طينه ـ مسك أذفر**))(٢).

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم، ص(٩٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، (٦٠٩٥).

ويا لجمال وروعة تلك الأنهار، التي تنساب متفجرة من الأعلى، ثم تنحدر في نزول، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**))(١)، وأخبر ﷺ: ((**إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تُشَقَّق الأنهار بعد**))(٢).

درجات الجنة.

وسبحان من خلق هذه الجنة، وأورثها عباده الصالحين، وجعلهم فيها متفاضلين متفاوتين؛ فإن الجنة درجات يفضل بعضها بعضًا، فضلًا من ربك وعدلًا؛ ليشمر ويثابر من اشتاقت نفسه إلى الجنة، وعلت همته لأعلى درجاتها في ذلك النعيم المقيم؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥].

وإنما يتفاوت المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

واسمع إلى هذا الحديث الرائع، الذي رواه المغيرة بن شعبة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((**سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال موسى: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه في كتاب الله** ﷻ:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، (٢٥٨١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة، (٢٤٩٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٧١).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]))[1].

فهذه الجنة، وهذه درجاتها، قد بنيت وهيئت، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ففيها ـ والله ـ يُحمد التنافس بالطاعة والقربات، وإليها تجب المسارعة بالخيرات والحسنات، فأين ذوو الهمم العالية، وقد دعوا إلى السباق؟ وأين طلاب السمو، وقد قرب اللحاق؟

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الأجسام

ألوان النعيم

وبعد هذه الجولة السريعة في ربوع دار النعيم، فما زالت هناك ألوان وألوان من نعيم لا يخطر على البال، ولا يحيط به الخيال.

من أنواع الطعام في دار الإنعام.

وكما أمسك أهل الجنة بطونهم عن كل حرام في الدنيا، وأخمصوها في صيام النهار طلبًا لرضا العزيز الغفار؛ فإن الله يجازيهم من جنس عملهم، فيجعل لهم في الجنة من أصناف الطعام ما لا يخطر على البال، يصف لك بعض أنواعه كتاب الله تعالى في آيات كثر؛ قال تعالى:

﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٨ – ٧١].

وقال تعالى: ﴿ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

ورغم ذلك التنعم بأصناف الطعام والشراب إلا أن أهل الجنة ليس لطعامهم فضلات، يحتاجون إلى إخراجها ببول أو بغائط، فأين يا ترى يذهب ذلك الطعام في أجسامهم؟ يجيبنا عن هذا السؤال حبيبنا محمد ﷺ، فيقول: ((**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس**))[2].

وهنا قد يخطر ببالك سؤال طريف: لماذا يأكل أهل الجنة، ويشربون، ويمتشطون؟ فإذا كان أهل الجنة فيها خالدون، وكانت الجنة خالية من الآلام والأوجاع والأمراض، لا جوع فيها ولا عطش، ولا قاذورات ولا أوساخ، فلماذا إذًا يأكل أهل الجنة فيها ويشربون؟ ولماذا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (٢٧٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها، (٥٠٦٦).

يتطيبون ويمتشطون؟

أجاب الإمام القرطبي رحمه الله عن هذا السؤال، فقال: (نعيم أهل الجنة وكسوتهم، ليس عن دفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية، ونعم متتابعة، ألا ترى قوله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه: ١١٨-١١٩].

وحكمة ذلك: أن الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل)(١).

الحُليُّ والحلل.

وإذا كنت من عشاق الأناقة والذوق الرفيع؛ فقد حباك الله تعالى في الجنة بأنواع الحلل الفاخرة، ومن أجود أنواع الحرير على اختلاف أصنافها؛ مما يدهش اللب ويحير العقل.

يقول الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٣١].

ويقول تعالى: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان: ٢١].

ويقول عنهم سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحج: ٢٣].

سوق الجنة.

وإلى هواة التجارة والبيع والشراء، أقول لهم: أبشروا؛ فقد أعد الله تعالى لكم في الجنة سوقًا مخصصًا لكم، ولئن كان الواحد منا في الدنيا يعود من جولة التسوق مرهقًا زَرِيَّ الهيئة والثياب؛ فإن الأمر في دار النعيم بخلاف ذلك.

قال رسول الله ﷺ: ((**إن في الجنة لسوقًا، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال؛ فتحثو في وجوههم وثيابهم؛ فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله، لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا**))(٢).

---

(١) التذكرة، القرطبي، ص(٤١٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة، (٥٠٦١).

خدم أهل الجنة.

ويخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله تعالى لخدمتهم، يكونون في غاية الجمال والكمال، كما قال ﷻ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة:١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان:١٩].

فيطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان، على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، فلو رأيت كثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم، وثيابهم وحليهم، وجمال منظرهم وهم يقضون حوائج السادة؛ لحسبتهم لؤلؤًا منثورًا.

نعيم التسبيح.

ومع أن الجنة دار جزاء وإنعام، لا دار تكليف واختبار، فإن رسول الله ﷺ يقول في أهلها: ((... **يسبحون الله فيها بكرة وعشيًا**))[١]، وهذا التسبيح إنما هو من باب التنعم بذكر الله تعالى، وليس من باب التكليف والعبادة، قال الإمام القرطبي رحمه الله: (هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام، وقد فسره جابر في حديثه عند مسلم بقوله: ((... **يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس**))[٢].

ووجه التشبيه: أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه، ولا بد منه، فجعل تنفسهم تسبيحًا، وسببه: أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه، وامتلأت بحبه، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره)[٣]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (هذا ليس من عمل التكليف، الذي يطلب له ثواب منفصل؛ بل نفس هذا العمل من النعيم الذي تتنعم به الأنفس، وتتلذذ به)[٤].

ورضوان من الله أكبر.

هل رأيت أيها المسافر، ذلك النعيم المقيم في دار النعيم؟ هل بهر لبك ما علمته من أصنافه وألوانه؟ فلتعلم إذًا أن هناك نعيمًا أعظم وأكبر منه، أتدري ما هو؟

ذكره لك الله ﷻ، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة: ٧٢].

وهل تقاس كل أصناف النعيم الحسي من الطعام والشراب واللباس برضوان ذي الجلال

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣٠٠٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة، (٥٠٦٦).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٣٢٦).

(٤) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، (٤/ ٣٣٠).

والكمال والجمال سبحانه، ولنسمع إلى رسول الله ﷺ يصف لنا نعيم الرضوان فيقول: ((**إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير بيديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**))(١).

فذلك هو النعيم الذي لا نعيم بعده؛ أن يرضى عنك الله جل وعلا رضًا دائمًا أبديًا لا سخط بعده؛ فتقر عينك بربك، وتأنس به، وتلك والله السعادة الحقيقة التي جعلها الله جل وعلا حكرًا على أوليائه في الدنيا والآخرة، نسأل الله من فضله.

مع الحور الحسان

وإلى أصحاب العفاف والحياء، إلى من ساروا على درب يوسف عليه السلام، لما دعتهم أخوات امرأة العزيز في الدنيا بنداء: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فرفعوا لهن جواب: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣]؛ فكافأهم الله تعالى بجزاء: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٧].

أبشروا أيها الصالحون، فلا والله ما ضاع صبركم على شهوات الدنيا هباء، فإن من ترك شيئًا لله؛ عوضه الله خيرًا منه في الدنيا والآخرة فتعال أيها المسافر، وانظر إلى كتاب ربك، وسنة حبيبك ﷺ؛ لتشاهد وصف زوجتك في الجنة، تلك الحسناء الرائعة، التي كمَّل الله خلقها وخلقتها، فأعظِم بجمالها وحسنها، فيا لها من غادة فاتنة، مُحَوَّرة العين، متوردة الخد، تكسوها النضرة، ويملؤها الجمال، أخاذة بنظرتها، ساحرة بحسنها.

أما عينها؛ فقال الله تعالى فيها: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٣]. فعينها واسعة ساحرة، قد اشتد سواد سوادها، وبياض بياضها، فزادها ذلك سحرًا وفتنة.

وأما بَشرتها؛ فيقول فيها تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٨]. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾[الصافات: ٤٩]. فجمعت بياضًا في حمرة، ونضرة ونعومة، حتى ليستحي من جمالها الشمس والقمر.

وأما رائحتها؛ فاسمع إلى حبيبك ﷺ يقول فيها: ((**ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض؛ لأضاءت ما بينهما - أي: المشرق والمغرب - ولملأت ما بينهما ريحًا، ولنصيفها - يعني:**

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب تعالى مع أهل الجنة، (٦٩٦٤).



الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها))[1].

فيا لهذه الساحرة من:

غادة ذات دلال ومرح	يجد الناعت فيها ما اقترح
زانها الله بوجه جُمعت	فيه أوصاف غريبات المُلَح
وبعين كحلها من غنجها	وبخد مِسْكه فيه رشح
ناعم تجري على صفحته	نضرة الملك ولألاء الفرح
وهي تدعوه بود صادق	مُلئ القلب به حتى طفح
يا حبيبًا لست أهوى غيره	بالخواتيم يتم المُفْتَتَح
لا تكونن كمن جَدَّ إلى	منتهى حاجته ثم جمح
لا فما يخطب مثلي من سها	إنما يخطب مثلي من ألَحّ

ونساء الجنة كلهن أبكار، لم يمسسهن أحد من الإنس أو الجن، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧].

والمرأة العروب: هي المتحببة إلى زوجها، التي تتقن فن ملاعبته ومغازلته، وأما أخلاقهن فإنها رفيعة عالية، جمعت طلاوة الحياء والحشمة، وحلاوة التودد والبسمة، وقصر الطرف وحسن الإقبال، وجمال الوجه ولطافة الإهلال.

قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن: ٧٠].

فالخيرات جمع خيرة، وحسان جمع حسنة، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، حسان الوجوه، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: ٧٢].

فهن محبوسات على أزواجهن، لا يرين غيرهم في الخيام، ولا يُردن غيرهم، ولا يطمحن إلى من سواهم؛ بما وهبهن الله من صدق العشرة وصفاء الحب والمودة، والإخلاص لأزواجهن، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصافات: ٤٨]، فيقصرن أبصارهن على أزواجهن، إعجابًا بهم وحبًّا.

ونساء الجنة، مع زهو جمالهن، ورقة أبدانهن، ونعومة شكلهن، وسحرهن وحسنهن، ومع ما تحلين به من دماثة الأخلاق، وحسن العشرة؛ قد وُهبن من الأصوات أحسنها، ومن الأغاني أعذبها وأطربها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٠٨٣).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم: ١٤-١٥]. والحُبرة: اللذة والسماع.

أو ما سمعت سماعهم فيها غناء ... الحور بالأصوات والألحان

واهًا لذيَّاك السماع فكم به ... للقلب من طرب ومن أشجان

واهًا لذيَّاك السماع وطيبه ... من مثل أقمار على أغصان

وإذا أردت استماعًا إلى عينة من ذلك الغناء العذب الرقراق؛ فاسمع إلى حبيبك ﷺ يصفه لك فيقول: ((**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط، إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرن بقُرَّة أعيان، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يَمُتنه، نحن الآمنات فلا يَخَفنه، نحن المقيمات فلا يَظعنَّ**))(١).

فإذا أردت أخيَّه أن تنال هذا النعيم، فعليك أن تقدم مهر حسناء الجنان، بلزوم الجد في طاعة الله، وتقديم مراده على مراد النفس؛ بأداء الصلوات، والذكر في الخلوات، والقيام في الظلمات.

هذا أبو سليمان الداراني رحمه الله، يقول: (في ليلة من الليالي كنت نائمًا، فرأيت فيما يرى النائم كأن حورية جاءتني، وقالت: ما هكذا يفعل الصالحون يا أبا سليمان، أتنام، وأنا أُرَبَّى لك في الخدور منذ خمسمائة عام؟ لا إله إلا الله! فما نام بعدها إلا قليلًا، جد وطلب ليلحق بها)(٢).

هؤلاء هم عباد الله الصالحون، الذين طيرت الجنة النوم من جفونهم؛ فتركوا الفراش، واتجهوا إلى الله في أسحارهم وفي لياليهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة: ١٦].

يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، يأتي أحدهم فيفرش فراشه، ثم يضع يده عليه ويقول: والله إنك للين لكن فراش الجنة ألين، فيقوم ليله كله لا ينام.

ولله كم حورية إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظم

فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ... ويا لذة الأسماع حين تكلم

فيا خاطب الحسناء إن كنت باغيًا ... فهذا زمان المهر فهو المقدم

فأقدم ولا تقنع بعيش منغص ... فما فاز باللذات من ليس يقدم

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يكُ فيها منزل لك يعلم

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٥٦١).

(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم، (٩/ ٣٥٩).



إلى الصالحات القانتات.

وإليك أنت أيتها الأخت الصالحة، يا من آثرتِ رضا مولاك على هواكِ، يا من صنت حياءك وعفافك في الدنيا؛ فصانك الله في الدنيا والآخرة وزانك.

اعلمي أيتها الجوهرة، أن لك في الجنة مثلما للرجال تمامًا من أصناف النعيم، وإن كان للرجال الحور العين؛ فأنت لك زوجك الذي كمله الله تعالى في الجنة بجمال الخلق والخلقة، والصحة والشباب والفتوة، وأما من لم تتزوج في الدنيا من الصالحات القانتات؛ فإن الله تعالى يزوجها بسيد من سادات المؤمنين في دار النعيم.

بل إن الله ﷻ فضَّلكِ على سائر الحور العين، في المنزلة والجمال والكمال، وكيف يساويكِ الله تعالى بهن، وقد سجدتِ لله تعالى في الدنيا وركعتِ، وجاهدتِ نفسك في ذات الله تعالى، وعلى طاعته استقمتِ؟

وإذا كنتِ قرأتِ معنا قول نبينا ﷺ في وصف غناء الحور العين: ((**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط، وإن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعيان، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يَمُتنه، نحن الآمنات فلا يَخَفنه، نحن المقيمات فلا يَظعنَّ**))[1].

فاسمعي أيضًا قول أُمِّنا عائشة رضي الله عنها، وهي تخبرك بما يقر عينك، ويسعد نفسك، فتقول: (إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة، أجابتهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، نحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، قالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن)[2].

تقابل النيِّرين[3].

واسمع أيها الغالي، واسمعي أيتها الغالية، إلى ذلك المشهد البهيج، عندما يقابل كل منكما زوجه في جنات النعيم، كما يصف ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله، إذ يقول: (وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم، فهن الكواعب الأتراب، اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٥٦١).

(٢) التذكرة، القرطبي، ص(٤٢٥).

(٣) النيران: الشمس والقمر.

واللطافة ما دارت عليه الخصور.

تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، وإذا قابلت حِبَّها فقل ما تشاء في تقابل النيِّرَين، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبين؟ وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين؟ يرى وجهه في صحن خدها، كما يرى في المرآة التي جلاها صقيلها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها، ولا عظمها، ولا حللها.

لو اطلعت على الدنيا؛ لملأت ما بين الأرض والسماء ريحًا، ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلًا وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن من على ظهرها بالله الحي القيوم.

ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها، لا تزداد على طول الأحقاب إلا حسنًا وجمالًا، ولا يزداد لها طول المدى إلا محبة ووصالًا، مبرأة من الحبل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفنى شبابها، ولا تبلى ثيابها، ولا يخلق ثوب جمالها، ولا يمل طيب وصالها، قد قصرت طرفها على زوجها، فلا تطمح لأحد سواه، وقصر طرفه عليها، فهي غاية أمنيته وهواه.

إن نظر إليها سرته، وإن أمرها بطاعته أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو معها في غاية الأماني والأمان، هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا ومنثورًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

إن سألت عن السن؛ فأتراب في أعدل سن الشباب، وإن سألت عن الحسن؛ فهل رأيت الشمس والقمر؟ وإن سألت عن الحِدَق؛ فأحسن سواد في أصفى بياض في أحسن حور، وإن سألت عن القدود؛ فهل رأيت أحسن الأغصان؟ وإن سألت عن النهود، فهن الكواعب نهودهن كألطف الرمان.

وإن سألت عن اللون؛ فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخلق؛ فهن الخيرات الحسان، اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان، فأعطين جمال الباطن والظاهر، فهن أفراح النفوس قرة النواظر.

وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنالك؛ فهن العُرُب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التي تمتزج بالروح أيَّ امتزاج، فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها؛ أضاءت الجنة من ضحكها! وإذا انتقلت من قصر إلى قصر؛ قلت: هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها! وإذا

حاضرت زوجها؛ فيا حسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة.

وحـديثها السحر الحلال لو أنه ... لم يجن قتـل المسلـم المتحرز

إن طـال لم يملل وإن هي حدثت ... ود المحـدث أنهـا لـم توجز

وإن غنت؛ فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن آنست وأمتعت؛ فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع، وإن قَبَّلت؛ فلا شيء أشهى إليه من ذلك التقبيل، وإن نولت؛ فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل)(١).

رفقة الخير في الانتظار

وكما كانت رفقة الخير معك في الدنيا تعينك على طاعة الله، وتأخذ بيديك في طريقه جل وعلا؛ فإن الله تعالى لا يحرمك منهم في دار النعيم، بل بينكم في الجنة تزاور الأحباب، وحديث الذكريات، بما كنتم في الدنيا تعبدون الله سويًّا في عصر الفتن والمغريات.

يقول رسول الله ﷺ: ((**إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ اشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، وسرير هذا إلى سرير هذا، حتى يجتمعا جميعًا، فيتكئ هذا، فيقول أحدهما لصاحبه: أتعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: نعم، يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله تعالى فغفر لنا**))(٢).

فهنيئًا لكم أيها الأحباب في الله، يوم كانت أخوتكم في الدنيا على طاعة الله؛ فكافأكم ربكم في دار النعيم، وحق فيكم قوله جل وعلا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

أعظم النعيم رؤية وجه الكريم

وأما أعظم النعيم في دار النعيم: فهو قرة عيون الموحدين، ولذة أبصار المؤمنين، إنه يوم المجيء، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

فما أعظم ذلك النعيم وأجله، أن ننظر إلى وجه ربنا المتعال، ذلك الرب الرحيم الكريم، الغفور الحليم، الذي طالما عبدناه في الدنيا ولم نره، طالما توجهنا إليه في صلاتنا، وناجيناه بأذكارنا وتلاوتنا، فالآن قد حان أوان اللقاء بذي الجلال والإكرام في دار الإنعام.

(فبينا أهل الجنة يرفلون في نعيمها، إذ بالمنادي يقرع أسماعهم: يا أهل الجنة، إن ربكم

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم، ص(١٢٩).

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، (٥/ ٧٣) بنحوه، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، (٢٢٣٧).

تعالى يستزيركم، فحي على زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم فيستوون على ظهورها مسرعين.

حتى إذا أتوا إلى الوادي الأفيح، الذي جعل لهم موعدًا، وجمعوا هناك، فلم يغادر الداعي منهم أحدًا؛ أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصب هناك، ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أدناهم ـ وحاشاهم أن يكون فيهم دني ـ جلس أدناهم على كثبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا.

حتى إذا استقرت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم؛ نادى المنادي: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار.

فبينما هم كذلك؛ إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة، فإذا الجبار جل جلاله، وتقدست أسماؤه، قد أشرق عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، فلا تُرَدُّ هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى، يضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة، ويكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني؟ هذا يوم المزيد، سلوني فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: أن قد رضينا؛ فارض عنا، فيقول: لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي، سلوني، فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: أن ربنا أرنا وجهك ننظر إليه.

فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب، ويتجلى لهم، فيغشاهم من نوره ما لولا أنه تعالى قد قضى ألا يحترقوا لاحترقوا؛ فلا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله تعالى محاضرة، وناظره مناظرة، حتى أنه يقول له: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا ـ يذكره ببعض غدراته في الدنيا ـ فيقول: يا رب، ألم تغفر لي؟ فيقول: لو لم أغفر لك، لما بلغت منزلتك هذه، فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا لذة الأنظار بتلك المناظرة، ويا قرة عيون الأبرار في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة)[١].

حكاية مشتاق إلى بلاد الأشواق

و لما علم الموفَّقون من عباد الله أن كل نعيم زائل إلا نعيم دار النعيم، وأن الدنيا مزرعة للآخرة؛ شمَّروا فيها عن سواعد الجد؛ فقطعوا أعمارهم في طاعة ربهم، يحدوهم في ذلك شوق إلى رؤية وجه الكريم في دار الإكرام، وهذا أحدهم، ننقل إليك نبأه العجيب وخبره الغريب؛ ليشعل في قلبك الشوق إلى أعالي الجنان.

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم، ص(١٢٩-١٣٠).

سعيد قلبه حارث.

قال رسول الله ﷺ: ((... **أحب الأسماء إلى الله: عبد الله، وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث، وهمام ...**))[١].

والحارث: هو الكبير النفس، صاحب الهمة العالية، وصاحبنا هذا سعيد بن الحارث قد جعل الله له نصيبًا كبيرًا من اسمه؛ فرزقه علو الهمة في طلب الجنة، وختم له بخاتمة السعداء، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا، يقص علينا رافع بن عبد الله خبره فيقول: (قال لي هشام بن يحيى الكناني: لأحدثنك حديثًا رأيته بعيني وشهدته بنفسي، قلت: حدثني يا أبا الوليد، قال: غزونا أرض الروم سنة ثمان وثلاثين، وكنا رفقة من أهل البصرة وأهل الجزيرة، وكنا نتناوب الخدمة والحراسة وإعداد الطعام.

وكان معنا رجل، يقال له سعيد بن الحارث، ذو حظ من عبادة، يصوم النهار، ويقوم الليل، وكنا نحرص على تخفيف النوبة عليه؛ لطول قيامه وكثرة صيامه، فكان يأبى إلا القيام بكل المهمات، وما رأيته في ليل ولا نهار إلا في حالة جد واجتهاد.

فأدركتني وإياه النوبة ذات ليلة في الحراسة، وكنا قد حاصرنا حصنًا من حصون الروم، فرأيت من سعيد في تلك الليلة من الجلد والصبر على العبادة ما جعلني أحتقر نفسي، لكنه فضل الله يوتيه من يشاء، فلما أصبح الصباح لم ينم، فقلت له: خفف على نفسك، فلنفسك عليك حق، والنبي ﷺ يقول: ((... **اكلفوا من العمل ما تطيقون**))[٢].

فقال لي: يا أخي، إنما هي أنفاس تعد، وعمر يفنى، وأيام تنقضي، فأنا رجل ينتظر الموت في أي لحظة؛ فبكيت لجوابه، ودعوت الله لي وله بالعون والتثبيت، ثم قلت: نم قليلًا لتستريح، فإنك لا تدري ما يحدث من أمر العدو، فنام تحت ظل خيمته، وتفرق أصحابنا في أرض المعركة، وأقمت موضعي أحرس رحالهم وأصلح طعامهم.

فبينما أنا كذلك، إذ سمعت كلامًا يأتي من ناحية الخيمة، فتعجبت، فليس هناك إلا سعيد نائمًا، ظننت أن أحدًا جاءه ولم أره، فذهبت إلى جانب الخيمة فلم أر أحدًا، وسعيد على حاله نائم، إلا أنه كان يتكلم في نومه ويضحك.

أصغيت إليه، وحفظت كلامه، ثم مد يده وهو نائم، كأنه يأخذ شيئًا، ثم ردها بلطف

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، (٤٢٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٤٩٥٠).
(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، (١٨٣٠).

وهو يضحك، ثم قال: الليلة إذًا، ثم وثب من نومه واستيقظ وهو يرتعد خائفًا، فاحتضنته إلى صدري حتى سكن وهدأ، وجعل يهلل ويكبر ويحمد الله، فقلت: ما شأنك؟ فقد رأيت منك عجبًا وسمعت منك عجبًا، فحدِّثني بما رأيت، قال: أعفني من ذلك، فذكرته حق الصحبة وقلت: لعل الله ينفعني بما تقول.

فحدثني عما رأى في منامه، قال: جاءني رجلان لم أر قط مثل صورتهما كمالًا وحسنًا، فقالا: أبشر يا سعيد، فقد غُفر ذنبك، وشُكر سعيك، وقُبل عملك، واستُجيب دعاؤك، وعُجلت لك البشرى في حياتك، فانطلق معنا حتى ترى ما أعد الله لك من النعيم.

قال: فأتيت على حور وقصور، وجوار وغلمان، وأنهار وأشجار، فأدخلوني في قصري ثم إلى دار فيه، حتى انتهيت إلى سرير عليه واحدة من الحور العين كأنها اللؤلؤ المكنون، فقالت لي: قد طال انتظارنا إياك، فقلت لها: أين أنا؟ قالت: أنت في جنة المأوى، قلت: ومن أنتِ؟ قالت: أنا زوجتك الخالدة.

فمددت يدي إليها، فردتها بلطف، وقالت: أما اليوم فلا، إنك راجع إلى الدنيا، قلت: لا أريد الرجوع، فقالت: لا بد من ذلك، وستقيم هناك - يعني في الدنيا - ثلاثًا، ثم تفطر عندنا، فقلت: بل الليلة، فقالت: إنه كان أمرًا مقضيًا، ثم قامت من مجلسها؛ فوثبت لقيامها، فإذا أنا قد استيقظت، وأنا أسألك بالله لا تحدث بحديثي هذا واسترني ما حييت.

قلت: أبشر، فلقد كشف الله لك ثواب عملك، ثم قام وتطهر واغتسل ومس طيبًا، ثم حمل سلاحه، ونزل إلى أرض القتال، وهو صائم وظل يقاتل حتى الليل.

فلما انصرف أصحابه وهو فيهم، قالوا لي: يا أبا الوليد، لقد رأينا من هذا الرجل عجبًا، حرصًا على الشهادة، وطرحًا لنفسه تحت السهام والرماح، وكل ذلك يُصرف عنه.

قلت في نفسي: لو تعلمون خبره لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، قال: فأفطر على قليل من الطعام وبات ليله قائمًا، فلما أصبح صنع كصنيعه بالأمس، ثم في آخر النهار عاد هو وأصحابه، وذكروا عنه مثلما ذكروا بالأمس.

حتى إذا كان اليوم الثالث؛ انطلقت معه، وقلت: لا بد أن أشهد أمره وأرى ما يكون، فلم يزل يقاتل، ويكبد الأعداء الخسائر، وينكل فيهم، ويصنع الأعاجيب، وهو يبحث عن القتل والموت مظانه، وأنا أراه وأرعاه بعيني، ولا أستطيع الدنو منه، حتى إذا نزلت الشمس للغروب، وهو أنشط ما كان، فإذا رجل من أعلى الحصن قد تعمده بسهم؛ فخر صريعًا، وأنا

أنظر إليه، فصحت بالناس فحملوه، وبه رمق من حياة، وجاءوا به إليَّ يحملونه.

فلما رأيته؛ قلت له: هنيئًا لك ما تفطر به الليلة، يا ليتني كنت معك؛ فأفوز فوزًا عظيمًا، فعض شفته السفلى، وأومأ لي ببصره وهو يضحك، وقال: اكتم أمري، والملتقى الجنة، ثم قال: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فوالله ما تكلم بشيء بعدها، ثم فاضت روحه، وآيات الله تبارك وتعالى تناديه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١])[1].

ألا إن سلعة الله غالية

أيها المسافر إلى ربه، أما إذ عرفت قدر دار النعيم، التي أعد الله تعالى فيها لعباده الصالحين من أصناف النعيم، ما لم يدر بخيال مخلوق؛ فاعلم إذًا أنها سلعة غالية، ولا بد أن يكون الثمن على قدر السلعة، كما قال ﷺ: ((**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**))[2].

إن ثمن الجنة أيها الحبيب، لا بد له من أن يتناسب مع قدرها ومكانتها، فلا يستطيعه كل كسلان بطال دنيِّ الهمة، قد باع النعيم المقيم الأبدي بشهوات فانية زائلة، لا تخلو من كدر وتنغيص، إنما يدفع ثمنها كل همام موفق، آثر الله على ما سواه؛ فعاش في الدنيا تبعًا لما يريد ربه، لا ما تريد نفسه وشيطانه.

ولو كان ثمن الجنة رخيصًا هينًا؛ لاستطاعه كل أحد، ولكنها حفت بالمكاره، كما جاء عن النبي ﷺ: ((**لما خلق الله الجنة؛ قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب ثم نظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك، لقد خشيت ألا يدخلها أحد**))[3].

إن أصحاب الجنة هم الرجال حقًّا، أصحاب الهمم العالية، والعزائم المتوقدة، الذين عقد الله ﷻ معهم صفقة التجارة الرابحة؛ فذكرهم تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) فكاهة الأذواق من مشارع الأشواق، اختصار محمود العالم، نقلًا عن رهبان الليل للعفاني، ص(٨٦-٩٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، (٢٣٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٤٥٠).

(٣) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، (٤١١٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٤٧٤٤).

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

نعم، فهذا هو ثمن الجنة، طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، والسير في طريقه والاستقامة عليه إلى أن تلقاه، ويا له من ثمن يسير على من يسره الله عليه، وعسير على كل محروم مخذول.

فهيا أيها الحبيب، تقدم إلى نفسك، واملك زمامها، وأقمها على طاعة مولاك، وامنعها أن تنساق وراء الأهواء والشهوات، وكن رجلًا حقيقيًّا، كما وصف الله في كتابه، فقال ﷻ: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٧].

فإن ونت أو توانت؛ فذكرها بقدر السلعة وقدر المبيع، مناديًا مع الإمام ابن القيم رحمه الله:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها ... إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن أين المشتري ... فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب ... فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن كيف تصبَّر ... الخطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها ... حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف ... وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ... ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى ... رب العلا بمشيئة الرحمن

تزود قبل الرحيل

على المسافر الحريص ألا يغادر هذه المرحلة، إلا وقد تزود منها بزاد:

(١) سل الله ثلاث مرات كل يوم أن يرزقك الجنة، فإن رسول الله ﷺ يقول: ((**من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة...**))[١].

(٢) عليك برباعية الجنة: وهي أربعة أعمال بسيطة، تجمع بينها في يوم واحد؛ لتحوز وعدًا

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في وصف أنهار الجنة، (٢٤٩٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٥٧٢).

بالجنة من النبي ﷺ، كما حازه من قبل أبو بكر الصديق ﷺ؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟**)) قال أبو بكر: أنا، **قال:** ((**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**)) قال أبو بكر: أنا، **قال:** ((**فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟**)) قال أبو بكر: أنا، **قال:** ((**فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟**)) قال أبو بكر: أنا، **فقال رسول الله** ﷺ: ((**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**))[1].



(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، (٤٤٠٠).

الوقفة الثانية

وما قدروا الله حق قدره

الوقفة الثانية : وما قدروا الله حق قدره

أيها المسافر إلى ربه، أما وقد قطعنا تلك الرحلة الرهيبة إلى دار القرار؛ فقد قطعنا الآن ثلث المسافة إلى محطة الخوف من الله تعالى، ونشرع وإياك الآن في قطع الثلث الثاني عبر وقفتنا الثانية، والتي نقفها هذه المرة مع عظمة الخالق الجليل سبحانه.

ووالله إنها لوقفة أشد رهبة وإجلالًا من سابقتها، بل إن كل ما مضى معنا من أهوال وشدائد يشيب لهولها الولدان؛ ما بين ملاقاة النهاية المجهولة في يوم السكرات، مرورًا بالواعظ الصامت، ثم بيوم التغابن، وانتهاء بدار البوار، ثم ما في دار الأبرار من أنواع النعيم المقيم التي لم تسمع بها أذن، أو تبصرها عين، أو تخطر لبشر على بال؛ ما كل ذلك إلا أثر من آثار عظمة الرب الجليل ﷻ.

فتعال معنا يا أخانا، وافتح عين قلبك لتعرف ربك، لتعرف هذا الخالق العظيم الذي تعجز عن وصف عظمته الكلمات، لتعرف أي إله هذا الذي تسير إليه، ولتتعجب من نفسي ونفسك كيف نتقاعس عن الاستجابة لأمره جل وعلا؟

ولتعرف سر قول الملائكة الكرام، الذين هم سجود منذ خلقهم الله تعالى إلى أن تقوم الساعة، حينما يرفعون رءوسهم بإذن ربهم، ثم يقولون: ((... **سبحانك، ما عبدناك كما ينبغي لك**))[١].

من هو الله ؟

لا شيء أعظم من الله، ولا حديث أحسن من الحديث عنه؛ فذكره دواء، وكتابه شفاء، واتباع أمره نجاء، فالله تعالى هو العظيم المتفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى،كمل فيها وعظم، فما من صفة عظيمة إلا وهي فيه أتم شيء: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

فلا يداخله نقص، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وليس له شريك في الملك، وليس له ولي من الذل، له الخلق والأمر، تبارك وتعالى، عز وتكبر، هيمن وتجبر، فاطر السموات والأرض، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار.

نور السموات والأرض ومن فيهن، وهو يطعم ولا يطعم، وهو القاهر فوق عباده، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا في كتاب مبين، قال أعلم الخلق بربه ﷺ: ((... **لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**))[٢].

---

(١) أورده أبو الشيخ الأصفهاني في العظمة، (٢/ ٢٣)، والمتقي الهندي في كنز العمال، (٢٩٨٣٦)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، (١٩٨٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٧٥١).

(وكيف نحصي خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء، وكل مجد، وكل جلال، وكل عز، وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبر؛ فله ومنه ﷻ.

فما ذُكر هذا الاسم في قليل إلا كثَّره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسعه.

ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العز، ولا فقير إلا صيَّره غنيًّا، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه.

فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات.

وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسموات، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء)[1].

فهو العليم أحاط علمًا بالذي	في الكون من سر ومن إعلان
والسمع منه واسع الأصوات لا	يخفى عليه بعيدها والداني
وهو البصير يرى دبيب النملة	السوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها	ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها	إي والذي برأ الورى وبراني

وتعال بنا الآن أيها المسافر، لنلج باب كتاب الله جل وعلا، نتعرف من خلاله على بعض صفات العظمة، التي وصف بها العظيم سبحانه نفسه؛ فلا أحد يعرف قدر عظمة الله إلا الخالق البارئ المصور سبحانه، لا نحصي ثناء عليه، فهو كما أثنى على نفسه.

ونعرض هنا إلى جانبين عظيمين من صفات الله جل وعلا، من خلالهما تتضح لكل ذي عينين بعض عظمة هذا الخالق الجليل ﷻ.

أولًا - صفات العلم والإحاطة

العليم.

فالله تعالى عليم بكل شيء لم يسبق معرفته جهل، ولا يجوز على معرفته نسيان، وهو ﷻ العليم، وعلمه هو العلم الكامل الذي لم يسبق بجهل، ولم يلحقه نسيان، فعلم الله تعالى محيط بالأمس واليوم والغد، بالظاهر والباطن، بالدنيا والآخرة.

(١) نقله عن ابن القيم، صاحب فتح المجيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، ص(١٣).

قد يعرف الإنسان شيئًا عن حاضره، وقد يذكر طرفًا من ماضيه وما وراء ذلك؛ ولكن الواحد منا جاهل بمستقبله، لا يعلم ما يغيب له بعد دقيقة أو ثانية، لكن الله وحده يحصي أعمالنا الماضية ساعة ساعة، ويسجل أحوال العالم الغابر دولة دولة، وحادثة حادثة، قال ﷻ: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه: ٥١- ٥٢].

إنه علم يشرق على كل شيء؛ فيُجلِّي بواطنه وخوافيه، ويكشف بداياته ونهاياته، فالغيب والشهادة، والقريب والبعيد، والقاصي والداني لديه سواء: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴾ [فصلت: ٤٧].

يعلم عدد ما في صحاري الأرض من ذرات الرمال، وما في بحار الدنيا من قطرات المياه، وما في الأشجار من أوراق، وما في الأغصان من ثمار، وما في السنابل من حبوب، وما في الجبال من صخور، وما في الصخور من ذرات، وما في رءوس البشر وجلودهم من شعر.

ثم ما يمكن أن يطرأ على هذه الأعداد الكثيرة من أحوال شتى، مما تحتاج إليه في وجودها من قوى متجددة، وما يعتريها من أوصاف متغايرة، كل ذلك يحيط به علم الله سبحانه الذي لا تبلغ عقولنا منه مثقال ذرة: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣- ١٤].

أرواحنا هذه التي في أقفاص صدورنا، هذه التي في جنبات أبداننا، أرواحنا هذه التي نتحرك بها؛ نحن لا نعلم عن كنهها شيئًا، فلا يعلم كنهها إلا الذي خلقها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

فالله تعالى هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

السميع.

قال الله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ [النساء: ١٣٤].

كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين صفة السمع والبصر، فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات.

فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها، سرها وعلنها، وكأنها لديه

صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد، والسر والعلانية عنده سواء: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة: ١].

قالت عائشة رضي الله عنها: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾)[1].

وسمعه تبارك وتعالى نوعان: أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها، الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين، والداعين، والعابدين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقول المصلي: (سمع الله لمن حمده)، أي: استجاب.

البصير

(الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها، فيرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة، وسريان القوت في أعضائها الدقيقة.

ويرى سريان الماء في أغصان الأشجار وعروقها، وجميع النباتات على اختلاف أنواعها، وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة، وأصغر من ذلك.

فسبحان من تحيرت العقول في عظمته، وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمته ولطفه، وخبرته بالغيب والشهادة، والحاضر والغائب، وسبحان من يرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٨ – ٢٢٠]، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة: ٦]، أي: مُطَّلع، ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات)[2].

---

(١) رواه ابن ماجة، باب فيما أنكرت الجهمية، (١٨٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (١٨٨)

(٢) شرح النونية، خليل هراس، (٢/ ٧٢).

يا من يرى مد البعوض جناحها — في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها — والمخ من تلك العظام النُّحَّل
ويرى خرير الدم في أوداجها — متنقلًا من مفصل في مفصل
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها — في ظلمة الأحشا بغير تنقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها — في سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حسها ودبيبها — في قاع بحر مظلم متهول
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها — ما كان مني في الزمان الأول

ثانيًا ـ صفات القوة والقدرة

العزيز، القدير، القادر، المقتدر، القوي، المتين: هذه الأسماء العظيمة الجليلة تحمل معانٍ متقاربة، فهو تعالى كامل القوة، عظيم القدرة، شامل العزة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٦].

فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم:

(١) عزة القوة.

فهو سبحانه القوي المتين العظيم، الذي لا تبلغ قوة جميع المخلوقات ـ وإن عظمت ـ ذرة من قوته وعظمته.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

(٢) عزة الامتناع.

فإنه هو الغني بذاته؛ فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضروه، ولا نفعه فينفعوه، بل هو الضار النافع، المعطي المانع.



(٣) عزة القهر والغلبة لكل الكائنات.

فهي كلها مقهورة لله، خاضعة لعظمته، منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها ساكن، ولا يسكن منها متحرك، ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به.

فمن قوته واقتداره: أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق، ثم يميتهم، ثم يحييهم، ثم إليه يرجعون: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [الروم: ٢٧].

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة، فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين، والكفار الظالمين من أنواع العقوبات، وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم، ولا جنودهم، ولا حصونهم من عذاب الله من شيء؛ لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصًا في هذه الأوقات.

فإن هذه القوة الهائلة، والمخترعات الباهرة، التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم، هي من إقدار الله لهم، وتعليمه لهم مالم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قوَّاهم وقدرهم، وهذه مخترعاتهم لم تغن عنهم شيئًا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن آثار قدرته: ما ذكره تعالى في كتابه من نصره أولياءه، على قلة عددهم وعُدَدِهم على أعدائهم، الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء؛ قال الله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾ [البقرة: ١٤٨].

دلائل العظمة

والمتأمل في هذا الكون الشاسع، على مدى الزمان والمكان، بكل ما فيه من مخلوقات وأحداث؛ ليجد آيات لا حصر لها، تنطق كلها بعظمة الخالق الجليل، الذي برأ هذا الكون وسواه، وقدر فيه كل تلك الحوادث على مر التاريخ.

وتعال بنا الآن أيها المسافر إلى ربه، بعد أن تصفحنا كتاب الله؛ نفتح سويًّا بعض صفحات كتاب الكون، لنطَّلع من خلالها على جانب يسير من عظمة خالقنا ﷻ.

ويتفكرون في خلق السماوات والأرض

هذا الكون الشاسع المهول، الذي لا يعلم مداه إلا الذي خلقه وسواه جل وعلا، فمنه ما هو من عالم الغيب الذي لا تصل إليه الأبصار، ولا تدركه العلوم والعقول، بل أخبرنا به الله ﷻ على لسان رسوله ﷺ، ومنه ما هو في عالم الشهادة؛ مما يكشف العلماء كل يوم فيه جديدًا، وفي كلا العالمين آيات لا تنحصر، ولا يكاد يتصورها العقل، تدل دلالة أكيدة على عظمة هذا الخالق الواحد الأحد.

أولاً: من عالم الغيب.

ولقد أخبرنا رسولنا ﷺ بآيات غيبية عظيمة، يقف المرء أمامها مذهولًا من عظمة ربه، مسبحًا بحمده، وساجدًا لجلاله وعظمته، فمنها:

(١) مخلوقات عجيبة.

قال ﷺ: ((**إن الله جل ذكره أذن لي أن أحدث عن ديك؛ قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه منثني تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظم ربنا، فيرد عليه: ما يعلم ذلك من حلف بي كاذبًا**))[1]، فتأمل في هذه المخلوقات العظيمة، التي تعرف عظمة ربها وجلاله؛ حتى أنها لا تتصور أن يقدم مخلوق على عصيان هذا الرب العظيم الجليل.

وقال رسول الله ﷺ: ((**ما السماوات عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**))[2].

يا الله، ما هذه الأحجام المهولة؟ إن العقل ليكاد يصاب بالدوار والإغماء من مجرد التفكير

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (٧٩٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير، (٩١٥)، واللفظ للطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١٧١٤).

(٢) أورده الذهبي في العلو للعلي الغفار، (١/ ١٢٥)، وصححه الألباني في مختصر العلو، ص(٧٥).

فيها، تُرى: ما حجم كرتنا الأرضية بالنسبة لهذه المخلوقات؟ لكي تتصور ذلك، فاعلم أن السماء الدنيا التي نحيا تحتها، لا تمثل ذرة في الحجم بالنسبة للتي تليها، وكل سماء هكذا بالنسبة إلى التي تليها، وبين كل سماء وأخرى مسيرة خمسمائة عام، وكل علوم البشر عن علم الكون والفلك لا تتجاوز هذه السماء الدنيا التي تظللنا، فتأمل في ذلك، ثم سل نفسك: ما حجمي وحجمك في هذا الكون الواسع الشاسع؟ إنه يساوي صفر تقريبًا، ومع ذلك نتجرأ على معصية هذا الخالق العظيم، فسبحانه ما أحلمه على من عصاه!!

(٢) الكرام البررة.

إنهم ملائكة الرحمن ﷻ، تلك المخلوقات العظيمة التي خلقها الله ﷻ من نور، كما خلق الإنسان من طين لازب، وخلق الجان من مارج من نار؛ ليكون في ذلك آية باهرة، تدل على عظمته وقدرته، هذه المخلوقات النورانية، قد قص علينا النبي ﷺ طرفًا من وصف خلقتهم، لا تملك أمامه إلا أن تفغر فاك قائلًا: سبحان الله العظيم!!

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((**أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه، مسيرة سبعمائة عام**))[(١)]، وقال ﷺ: ((**أُذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش؛ رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول الملك: سبحانك حيث كنت**))[(٢)].

هذا ملك واحد من ملائكة الله جل وعلا، له مثل تلك الضخامة التي يعجز أقوى العقول عن مجرد تخيلها، فضلًا عن إدراكها.

وأما جبريل عليه السلام ملك الوحي، أمين السماء، فتأمل ماذا قال فيه أمين الأرض محمد ﷺ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ: ((**رأيت جبريل عليه السلام، له ستمائة جناح**))[(٣)]، وفي رواية: ((**قد سد الأفق**))[(٤)]، ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الملائكية التي خلقه الله تعالى عليها مرتين؛ هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣].

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣-١٥]، عندما عرج به إلى السموات العلا، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هاتين

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية، (٤١٠٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٤٧٢٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، (٦٦٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٨٥٣).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (١٠٢٧١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٣٤٦٤).

(٤) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النجم، (٣٢٠٠)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، (٣٢٧٨).

الآيتين، فقال ﷺ: ((**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء، سادًا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض**))(١).

هل رأيت مدى عِظمة هذه الملائكة؟ هل عرفت عظمة خالقها؟ انظر ماذا يكون حال هذه المخلوقات العظيمة أمام عظمة خالقها: قال ﷺ: ((**إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سَلسَلة على صفوان،** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟﴾ **للذي قال:** ﴿ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾))(٢).

فتأمل كيف لا تعقل كلام ربها لأول وهلة، من عظم المهابة والخشية والإجلال لرب العالمين، ويقول ﷺ: ((**مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحِلْس البالي من خشية الله ﷻ**))(٣).

فهذا جبريل عليه السلام، الذي يملك ستمائة جناح، يسد بها ما بين السماء والأرض، لما ضرب بطرف أحدها قرى قوم لوط؛ جعل عاليها سافلها ودمرها تدميرًا، كل ذلك بضربة واحدة من طرف جناحه، ثم يكون أمام خالقه كالحصيرة البالية؛ إشفاقًا ووجلًا، وتعظيمًا لربه وخالقه.

ثانيًا: من عالم الشهادة(٤).

وأما في عالم الشهادة؛ ففي كل يوم يكتشف العلماء عشرات الظواهر العلمية، التي تدل دلالة قاطعة على أن وراء هذا الكون الواسع خالقًا عظيمًا، هو الذي أبدع نظامه، في دقة متناهية، وإحكام لا محدود، لا يقدر عليه إلا الخالق العظيم الجليل سبحانه، فمن هذه الاكتشافات:

مفهوم الاتساع في الفضاء.

قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ويحتوي الكون على أنظمة خارقة ورائعة وبديعة، يعجز عقل الإنسان عن استيعابها، وعلى سبيل المثال: كلنا يعلم مدى اتساع الكون وكبره، ولكن لو بدأنا بالتفكير حول حدود كبر الكون؛ لبدت أمامنا مفاهيم لا يمكن أن نتخيلها.

فقطر الشمس أكبر (١٠٣) مرة من قطر الأرض، ولنبسط هذا المثال نفترض أن الأرض

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾، (٢٥٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، (٤٤٦٢).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، (٤٨٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٥٨٦٤).

(٤) راجع: العظمة في كل مكان، هارون يحيى.

بحجم الدعبل ـ الكرة الزجاجية الصغيرة التي يلعب بها الأطفال ـ عندئذٍ تكون الشمس بحجم كرة القدم.

والمثير هنا هو المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس، فلو رجعنا إلى المثال المبسط؛ تكون الكرة الزجاجية على بعد (٢٨٠) مترًا من كرة القدم، اعتمادًا على المقاييس الحقيقية ونسبة تصغيرها، أما الكواكب السيارة الخارجية الموجودة في مجموعتنا الشمسية؛ فتكون عندئذٍ على مسافة كيلومترات عديدة.

ومن خلال هذا المثال؛ نستطيع أن نتخيل حجم مجموعتنا الشمسية الهائل، ولكن لو قارنا حجمها بحجم مجرة درب التبانة، التي هي جزء منها؛ فالنتيجة تكون هائلة جدًّا؛ لأن هذه المجرة تحوي نجومًا غير شمسنا، وأغلبها أكبر حجمًا، ويربو عددها على(٢٥٠) مليار نجمة.

وتستقر شمسنا على أحد أذرع مجرة درب التبانة ذات الشكل الحلزوني، والمحير هنا أن مجرتنا تغدو صغيرة جدًّا لو قارناها بالفضاء الشاسع المترامي الأطراف؛ لأن الفضاء يحتوي على مجرات أخرى يقدر العلماء عددها (٣٠٠) مليار مجرة.

إن هذه الأمثلة التي أوردناها عن حجم الأجرام السماوية، وطريقة توزيعها في الكون، والعظمة التي هي عليها؛ تعكس لنا قدرة الله التي لا حد لها، وأنه لا شريك له في هذه القدرة، وأن الله ذو القوة المتين سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧ – ٢٩].

ناطحات السحاب التي ينشئها النمل الأبيض الأعمى.

هل يمكن لعمال عميان أن ينشئوا ناطحات سحاب عملاقة مثل مبنى [الإمباير ستايت][(١)]؟ إن هذا مستحيل بالنسبة إلى الإنسان، ولكن النمل الأبيض الأعمى يستطيع أن يشيد مثل هذه الأبنية طوال حياته، وهذه الأبنية تعد ناطحات للسحاب بالمقارنة مع حجم النمل الصغير جدًّا، وقبل أن نخوض في الحديث عن المقارنة بين أعشاش النمل الأبيض وناطحات السحاب التي يبنيها الإنسان، يحسن بنا أن نتعرف أولًا ـ ولو بصورة عامة ـ على النمل الأبيض.

إن من أهم الخصائص المعروفة للنمل الأبيض هي مقدرته على بناء أعشاش قوية للغاية، لا يستطيع حتى الإنسان أن يهدمها بسهولة، وكل نوع من أنواع النمل الأبيض يبني عشه

(١) ناطحات سحاب مشهورة في أمريكا.

بالشكل الذي يلبي احتياجاته؛ فهناك نوع يبني عشه بالشكل الذي يقيه من الحر القائظ، ونوع آخر يبني عشه كي يقيه من الأمطار الغزيرة، ومنها ما يبنيه في جوف الأشجار، ومنها ما يبنيه تحت التربة، ومنها ما يبنيه فوقها.

ومن يفتح عش النمل الأبيض؛ سيرى لأول وهلة شكلًا شبيهًا بالإسفنج، ويتألف كل عش من أعداد هائلة من الغرف الصغيرة التي يكون طولها (٢,٥) سم تقريبًا، وترتبط هذه الغرف فيما بينها بقنوات رابطة ضيقة، ولا يستطيع إلا النمل الأبيض المرور من خلالها.

أما المواد الخام التي يستخدمها النمل الأبيض في بناء هذه الأعشاش الخارقة؛ فتتألف من التراب، وإفرازاته الخاصة، وفضلاته فقط، أي أن هذا النمل الأبيض يستطيع بناء هذه الأعشاش المتينة، التي لا يمكن هدم بعضها إلا بالديناميت ـ بواسطة مواد خام بسيطة للغاية، وهذه الأعشاش تحتوي على قنوات للتهوية، وممرات خاصة، ومتاهات للتمويه.

إن الخاصية الإعجازية الملفتة للانتباه لدى النمل الأبيض هي كونه أعمى تمامًا، وعلى الرغم من هذا العمى؛ يستطيع أن يبني هذه الأعشاش الشبيهة بالأبراج العالية، وهذا الأمر يثير الحيرة طبعًا؛ فالنمل الأبيض لا يستطيع رؤية القنوات التي ينشئها، ولا المواد الخام التي يستخدمها في البناء، ولا التراب الذي يعد المادة الأساسية في البناء، ولا الغرف التي يشيدها على ارتفاع عالٍ جدًا.

ولو قارنا بين الأعشاش التي يشيدها النمل الأبيض، والأبنية التي يشيدها الإنسان؛ لكانت النتيجة محيرة للعقول إلى درجة كبيرة، ولاستيعاب نتيجة هذه المقارنة يمكن الرجوع إلى ناطحات السحاب (الإمباير ستايت) الموجودة في أمريكا، فارتفاع العمارة الشاهقة يبلغ (٤٤٣) مترًا، أما طول النمل الأبيض فيبلغ (١-٢) سم، وعلى الرغم من هذا القصر فإنه يستطيع بناء عش يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار.

ولو كان النمل الأبيض بطول الإنسان العادي؛ لاستطاع بناء ناطحة سحاب، ارتفاعها أربعة أمثال (الإمباير ستايت)، وهذا العمل الذي يعجز عنه الإنسان يقوم بإنجازه النمل الأبيض الأعمى، منذ أن وجد على وجه البسيطة منذ ملايين السنين.

فالنمل الأبيض خلق بهذه الخصائص الباهرة من قِبَل الله ﷻ، فهذه الأعشاش التي يبنيها، تعكس لنا القدرة الإلهية في الخلق، وتكشف لنا آية أخرى من آياته العظيمة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢].



طيور الماكاو، والترياق المقاوم للسموم.

توجد كائنات حية في الطبيعة لها علم كامل بالسموم، ودون الحصول على أي دورة تدريبية، ولنطلع معًا على مثال يخص تلك السلوكيات الشعورية، التي تنتجها الحيوانات في علاج نفسها بنفسها.

ومثالنا هو طيور الببغاء المسماة [ماكاو]، والتي تعيش في المناطق الاستوائية الأمريكية، وهي طيور مثيرة جدًّا بألوانها الزاهية، ولكن الأكثر إثارة أنها تقتات على البذور المسمومة، ومنقارها ضخم كأنه خطاف كبير، ويستخدم الماكاو منقاره في كسر القشور الصلبة جدًّا، وهو خبير في البذور المسمومة وهذه ميزة مثيرة جدًّا؛ لأن المفروض أن يتسمم حال تناوله لهذه البذور المسمومة، ولكن شيئًا من هذا لا يحدث أبدًا، فبعد تناوله لهذه البذور يطير مباشرة إلى تلك الأماكن التي تكثر فيها الصخور الطينية؛ ليتناول أجزاء منها ويبتلعها.

وهذا السلوك يرجع سببه إلى كون هذه القطع الصخرية تحتوي على مواد تمتص تلك السموم الموجودة في البذور، وتزيل تأثيرها نهائيًّا، وبهذه الطريقة؛ يستطيع طائر الماكاو أن يهضم البذور دون أن يتأثر بما فيها من سموم، إنه من المستحيل على طير الماكاو أن يعرف الطريقة التي تزيل تأثير سموم هذه النباتات من تلقاء نفسه.

إن مثل هذه السلوكيات الشعورية لدى الحيوانات، لا يمكن أن يكون الحيوان نفسه هو مصدرها، والواضح أنه من غير المحتمل أبدًا أن تكون هناك قوة أخرى في الطبيعة، أو عاملٍ طَبَعي يقود إلى هذه السلوكيات الشعورية.

إذًا: هناك قوة خفية تسيطر على سلوك الحيوانات، وبمعنى آخر: تلهمها سلوكها، وتهديها إلى طريقها، وهذه القوة الخفية هي قوة العلي القدير، وهو البصير بعباده، واللطيف بأحوالهم.

متانة الهيكل العظمي.

لقد خلقت العظام، ومنحت صلابة وقوة؛ كي تؤدي وظائفها في حماية الجسم، وحمل أجزائه على أكمل وجه، ومثال على ذلك: عظم الفخذ الذي يستطيع ـ وهو في وضع القيام ـ أن يتحمل طنًّا كاملًا من الثقل.

وفي الحقيقة إن كل خطوة تخطوها؛ تسبب حملًا على هذا العظم مقداره ثلاثة أضعاف وزن الإنسان، والشيء نفسه يذكر عندما يقوم رياضي ما بالقفز بالزانة، فعند انتهائه من القفزة واقتراب جسمه من الأرض؛ فإن عظام الحوض تتحمل ثقلًا مقداره ١٤٠٠ كيلو جرام في كل سم.

ولاستيعاب الصفات الخارقة للعظام يمكن أن نسوق التشبيه التالي: يعد الفولاذ من أكثر المواد متانة، واستخدامًا من قِبَل الإنسان، ويرجع السبب في ذلك إلى كون الفولاذ قويًا ومرنًا في آن واحد، إلا أن العظام أكثر متانة، وأكثر مرونة بعشرة أضعاف من الفولاذ، والعظام أيضًا أفضل من الفولاذ من ناحية الثقل؛ فالهيكل الفولاذي المستخدم في الأبنية؛ أثقل بثلاث مرات بالمقارنة مع الهيكل العظمي للإنسان.

إن هذه المقارنة بين العظام والأبنية الحالية، تساعدنا كثيرًا على إدراك الصفات الخارقة للعظام، فإنشاء الأبنية الكبيرة والعالية، كانت تشكل عملية صعبة بالنسبة إلى الإنسان، وتستغرق منه مدة طويلة، وتكاليف باهظة، واستمر هذا الحال حتى أواسط القرن العشرين.

ولكن التطور التقني أدى إلى استحداث أساليب جديدة، في تشييد تلك الأبنية، ومن أهمها: الأسلوب المسمى بالشبكة المعدنية، ويتلخص هذا الأسلوب في تشييد البناء عن طريق استخدام أجزاء متعددة من القضبان الفولاذية، التي تركب بعضها مع بعض؛ لتشكل بمجموعها الهيكل الذي يقوم عليه البناء.

واستحدث هذا الأسلوب عوضًا عن الأسلوب القديم، أو أسلوب البناء من قطعة واحدة، وتستخدم حاليًا أجهزة الحاسوب في القيام بالحسابات اللازمة، لتشييد الأبنية الصناعية والجسور بهذا الأسلوب الحديث؛ وبذلك تم التوصل إلى تشييد أبنية أكثر متانة وأقل من حيث التكاليف.

إن العظام في تركيبها الداخلي شبيهة أيضًا بتركيب الأبنية والجسور التي تشيد بالأسلوب الحديث، فلو تفحصنا مقطعًا عرضيًّا لعظم؛ لوجدنا فيه تراكيب عجيبة، فنحن نجد الآلاف من القضبان الصغيرة المتداخلة بعضها مع بعض، مُشَكِّلة نظامًا معقدًا داخل العظم.

إن هذا التركيب يمثل نظام الشبكة في بناء العظام، وبواسطة هذا النظام تتميز العظام بالقوة الكاملة والخفة المتناهية التي تمكن الإنسان من استخدامها بسهولة، ولو كان العكس ـ أي: لو كانت العظام صلبة مثل سطحها الخارجي ـ؛ لأصبحت ثقيلة إلى درجة لا يستطيع الإنسان حملها، وكذلك فإنها بصلابتها تكون معرضة للكسر أثناء الصدمات والضربات التي تواجهها.

إن هذه الخصائص العجيبة للعظام ـ والتي كانت مصدر إلهام للفنيين والمهندسين في استنباطهم لأساليب جديدة في البناء ـ ليست سوى دليل آخر، من الأدلة الكثيرة التي تثبت المقدرة الإلهية على الخلق والإبداع والتصوير، ويجب على كل إنسان أن ينظر إلى جسمه أولًا، ويتأمل في الآيات الباهرة فيه، والتي تنطق جميعها بلسان واحد: إن الله عظيم في قدرته فريد في صنعته، والحمد لله الذي خلقنا في أحسن تقويم.



الحامض النووي DNA بنك مصغَّر للمعلومات.

يعد الحامض النووي DNA (ثنائي أكسيد الرايبوز النووي) بنكًا للمعلومات المتعلقة بجسم الإنسان، جل بنظرك فيما حولك من الناس، وتأمل في صفاتهم وشمائلهم وسماتهم، وفكر قليلًا، فإن كل ما تراه من صفات مثل لون العين، وطول الجسم، ونوع الشعر ولونه، والصوت، ولون البشرة، وما شابه ذلك من صفات أخرى، مسجلة جميعها في الحامض النووي المسمى DNA.

إن هذا البنك يحتوي على المعلومات المتعلقة بالخلية، التي هو موجود ضمنها، وكذلك المعلومات المتعلقة بالخلايا الجسمية الأخرى، وهذه المعلومات تحتوي على كل شيء، كالتركيب والاحتياجات المختلفة.

ولو شبهنا جسم الإنسان بالبناء؛ فإن جميع المعلومات الدقيقة، والخرائط والمخططات المتعلقة بجسم الإنسان موجودة في الحامض النووي DNA لكل خلية، ويتم الحفاظ على هذا الحامض النووي الخطير داخل نواة الخلية الحية، ولو تذكرنا أن قطر الخلية ـ التي يبلغ عددها في جسم الإنسان حوالي (١٠٠) تريليون خلية ـ لا يتجاوز (١٪) من المليمتر، عندئذ نستطيع أن نتصور مدى صغر الحيز الذي نتحدث عنه الآن، إن جزئية DNA العجيبة تعد إحدى آيات الله ﷻ في الخلق، ودليلًا على عظمته.

إن المعلومات الموجودة في هذا الحامض النووي، لا تحتوي فقط على الصفات المظهرية؛ بل تسيطر أيضًا على نشاط الخلية، وعلى الملايين من الفعاليات الحيوية الجارية داخل الجسم، ومثال على ذلك: ضغط الدم الذي يتم رفعه أو خفضه، اعتمادًا على المعلومات الموجودة في DNA.

ويقوم العلماء باستخدام مقاييس معينة للتعبير عن الصفات الوراثية للإنسان ومدى كثرتها وغرابة تركيبها، فالمعلومات التي يحتوي عليها الحامض النووي DNA كثيرة جدًّا، إلى درجة أنها لو كُتبت في كتب ورتبت هذه الكتب فوق بعضها؛ لأصبح ارتفاع هذه الكتب (٧٠) مترًا.

وقد حسب العلماء أيضًا الفترة اللازمة لكتابة المعلومات المتعلقة بالصفات الوراثية للإنسان، بواسطة الآلة الكاتبة، وكانت النتيجة (٥٠) سنة، على فرض أن الشخص الذي يضرب على الآلة الكاتبة، يستطيع كتابة (٦٠) كلمة في الدقيقة، ويعمل (٨) ساعات يوميًّا، إلى جانب ذلك؛ فإن المعلومات الموجودة في هذا الحامض النووي تملأ (٢٠٠) دليل للهاتف، وكل دليل يتألف من (٥٠٠) صفحة.

إن هذا الترتيب المدهش للذرات التي لا ترى بالعين المجردة، ويبلغ حجمها واحدًا بالمليار

من المليمتر، وهذا التناسق في السلاسل المتولدة عنها والمعلومات المتمخضة عنها، والتي تنظم حياة الكائن الحي بكل تفاصيلها يعد دليلًا واضحًا وقاطعًا على حدوث عملية الخلق.

والله ﷻ عندما خلق هذا الحامض النووي، وأودع فيه هذه المعلومات الوراثية، فإنه ﷻ يخاطب البشر، بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له، وهو القهار العزيز الحكيم، وهذا مصداق ما ورد في كتاب الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩].

عندما يغضب الجبار

هذا الإله العظيم، هذا الخالق الجليل، رغم كل تلك العظمة والقدرة التي لا تحدها حدود؛ فإنه سبحانه حليم صبور، يصبر على عباده، ويحلم عليهم، ويمهلهم، ولكن إذا زاد طغيان الطاغين عن حده؛ فإنه تعالى يغضب، وينتقم ممن عصاه، وخالف أمره وتحداه.

وحينئذٍ لا يقوم لغضب الجبار شيء، كما فعل ربنا بمن عصاه ممن طغى وتجبر من الأمم السابقة، وما قوم لوط أو قوم صالح، أو قوم هود أو قوم نوح منا ببعيد، فتأمل كيف أهلكهم الله تعالى عن بكرة أبيهم، فتارة بالخسف والقصف، وتارة بالطوفان والغرق، وتارة بالصيحة، فله جل وعلا جنود السماوات والأرض، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأمره بين الكاف والنون، يقول للشيء كن فيكون.

وفي عصرنا هذا تعود تلك الآيات الباهرة، والتي هي صور من بطشه ﷻ، وانتقامه ممن عصاه وخالف أمره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

واسمع إلى هذه الحادثة التي فيها والله عبرة لمن يعتبر:

وكذلك أخذ ربك.

(لقد كانت ليلة ماجنة في تلك القاعدة البحرية الحربية في تركيا، بشهر أغسطس عام ١٩٩٩م، حيث حضر حوالي (٣٠) جنرالًا إسرائيليًا، وأكثر من (٣٠) جنرالًا أمريكيًا، وأكثر من (٣٠) جنرالًا تركيًا.

ومناسبة هذا الاحتفال الماجن: كانت على إثر إحالة بعض الضباط الأتراك إلى التقاعد، وبدأت الحفلة، وأثناء هذه الحفلة الماجنة، طلب جنرال إحضار القرآن الكريم، والذي أحضره له ضابط برتبة نقيب.

حضر النقيب ومعه القرآن الكريم، حيث كلفه الجنرال بقراءة القرآن الكريم فقرأ، ثم

طلب منه تفسير الآيات القرآنية التي قرأها النقيب، إلا أن الأخير اعتذر عن تفسير الآيات القرآنية لعدم معرفته.

ثم أخذ الجنرال التركي القرآن الكريم فمزقه وألقى به، قائلًا: أين الذي أنزل هذا القرآن، وقال فيه: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون؟ فأين هو ليحفظه، ويدافع عن قرآنه؟

أحس الضابط النقيب الذي أحضر القرآن بالخوف الشديد من تصرف الجنرال، فغادر القاعدة مسرعًا، حتى يمكنه الله من أن يروي الحقائق، ابتداء بالعقوبة الإلهية غيرة على القرآن الكريم، وانتهاء بالزلزال المدمر، والذي بدأ أولًا: بضوء شديد لونه زهري، غطى تلك المنطقة، وثانيًا: شق الله البحر، ثم تصاعدت منه نيران ملتهبة، يرافقها انفجار شديد.

وثالثًا: ألقى الله ﷻ المنتقم الجبار، بتلك القاعدة البحرية الحربية وسط النيران الملتهبة، وسط البحر الذي خلقه وشقه ﷻ، ثم امتد الزلزال إلى المناطق الأخرى.

أما رابعًا: فحتى الآن أمريكا و إسرائيل وتركيا لم يستطيعوا انتشال جثة ضابط من أولئك الذين أغرقهم الله ﷻ.

وعن عدد الأشخاص الذين كانوا على القاعدة البحرية، ولاقوا مصرعهم أثناء الحفلة الماجنة نتيجة الزلزال المدمر، ما بين ضباط وجنود، وحرس وخدم، وراقصات، حوالي ثلاثة آلاف شخص، جميعهم صهروا في تلك النيران الملتهبة)[1].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].

قلوب تعظم العظيم

ولما عرف الموفقون ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، امتلأت قلوبهم بإجلال الله وتعظيمه، فانطلقت ألسنتهم وجوارحهم تضرب تلك الأمثلة الرائعة، في الخشية والتعظيم، لمالك الملك ذي الجلال والإكرام، وإليك أيها المسافر، بعض مسكهم وعبيرهم.

ثلاثة يخشون الله.

وأول هؤلاء: ثلاثة من الموفقين؛ ينشر لنا مسكهم نبينا محمد ﷺ عبر لسانه الطاهر، الذي انطلق يقول لصحابته ﷺ، يربيهم على رهبة العظيم: ((**بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون؛ إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا**

---

(١) ذكرها الشيخ عبد المنعم أبو زلط، نقلًا عن صحيفة شيحان الأردنية.

ينجيكم إلا الصدق؛ فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه.

فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير، عمل لي على فَرَقٍ(١) من أرز، فذهب وتركه، وأني عمدت إلى ذلك الفرق، فزرعته؛ فصار من أمره أني اشتريت منه بقرًا، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون(٢) من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فَيَسْتَكِنَّا(٣) لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليَّ، وأني راودتها عن نفسها؛ فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها، فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها؛ قالت: اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم؛ فخرجوا))(٤).

قيام بين يدي العظيم.

(كان علي بن الحسين إذا توضأ يصفرّ فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!)(٥).

عظَّم الله فعظَّم الله اسمه.

(نزل إبراهيم بن أدهم إلى السوق، وكان مسرفًا على نفسه في الذنوب، فوجد ورقة ملقاة في الأرض، مكتوبًا عليها اسم الله تبارك وتعالى، والناس يطئونها بأقدامهم، وهم داخلون إلى السوق وخارجون منه ولا يعلمون، فأخذ القرطاس، فإذا فيه اسم الله؛ فبكى، وقال:

---

(١) الفرق: مكيال يكال به.

(٢) الضُّغَاء: الصياح بالبكاء.

(٣) ويستكنا لشربتهما: أي يضعفهما لأن ترك العشاء يُهرِم، فتح الباري، ابن حجر، (٢/ ٣٢٠٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، (٣٢٠٦).

(٥) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ١٩٤).



سبحانك! يهان اسمك هنا، لا والله، فأخذ هذه الورقة، وطيَّبها ورفعها في بيته، فلما أمسى سمع هاتفًا يقول: يا من طيب اسم الله، ورفع اسم الله؛ ليعظمن الله اسمك، يا من طيب اسم الله، وعظم اسم الله؛ ليعظمن الله اسمك.

فهداه الله إلى التوبة النصوح؛ فأصبح من عباد الإسلام، ولما توفي اجتمعت في جنازته ألوف مؤلفة من الأمراء، وقادة الجيش، والفقراء، والمساكين، حتى وصلوا المقبرة وقد تقطعت أحذيتهم من كثرة الناس وازدحامهم وبعد الطريق)(١).

تعظيم الله حتى في المنام.

قال محمد بن سيرين رحمه الله: (ما أتيت امرأة في نوم ولا يقظة، إلا أم عبد الله [يعني زوجته]، وقال: إني أرى المرأة في المنام، فأعرف أنها لا تحل لي فأصرف بصري عنها)(٢).

عمل قليلاً وربح كثيرًا.

(وحكي عن عبد الواحد بن زيد، قال: كنت في مركب، فطرحتنا الريح إلى جزيرة، وإذا فيها رجل يعبد صنمًا، فقلنا له: يا رجل من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم، فقلنا: إن معنا في المركب من يسوِّي مثل هذا، وليس هذا إله يعبد، قال: فأنتم، من تعبدون؟ قلنا: الله، قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه.

فقال: كيف علمتم به؟ قلنا: وجه إلينا هذا الملك رسولًا كريمًا؛ فأخبرنا بذلك، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: أدى الرسالة، ثم قبضه الله، قال: فما ترك عندكم علامة؟ قلنا: بلى، ترك عندنا كتاب الملك، فقال: أروني كتاب الملك؛ فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانًا.

فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا، فقرأنا عليه سورة من القرآن، فلم نزل نقرأ ويبكي، حتى ختمنا السورة، فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام ألا يعصى، ثم أسلم، وحملناه معنا، وعلمناه شرائع الإسلام، وسورًا من القرآن.

وكنا حين جَنَّ الليل، وصلينا العشاء، وأخذنا مضاجعنا؛ قال لنا: يا قوم هذا الإله الذي دللتموني عليه، إذا جَنَّه الليل ينام؟ قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيوم لا ينام، قال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام؛ فأعجبنا كلامه.

فلما قدمنا عبادان؛ قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام، فجمعنا له دراهم وأعطيناه،

---

(١) من محاضرة للشيخ عائض القرني، بعنوان: تعظيم شعائر الله.

(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر، (٥٣/ ٢٠٥).

فقال: ما هذا؟ قلنا: تنفقها، فقال: لا إله إلا الله، دللتموني على طريق ما سلكتموها، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنمًا من دونه ولم يضيعني، أيضيعني وأنا أعرفه؟

فلما كان بعد أيام قيل لي: إنه في الموت، فأتيته، فقلت له: هل من حاجة؟ فقال: قضى حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي، قال عبد الواحد: فحملتني عيني، فنمت عنده، فرأيت مقابر عبادان روضة وفيها قبة، وفي القبة سرير عليه جارية لم يُر أحسن منها.

فقالت: سألتك بالله إلا ما عجلت به، فقد اشتد شوقي إليه، فانتبهت، وإذا به قد فارق الدنيا، فقمت إليه، فغسلته، وكفنته، وواريته، فلما جن الليل، نمت؛ فرأيته في القبة مع الجارية وهو يقرأ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤])[1].

مالكم لا ترجون لله وقارًا؟

وبإزاء تلك القلوب الطاهرة التي عظمت ربها، وعرفت له حقه جل وعلا، فإن هناك قلوبًا أخرى سوداء مظلمة، قال الله في أصحابها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن أصحاب هذه القلوب لا زالوا يبارزون الله تعالى بالذنب تلو الذنب؛ حتى علا قلوبهم الران، فما عادوا يستشعرون عظمة الله تعالى، حتى فعلوا من الأفاعيل ما تشيب لهوله الولدان، وكأنهم لا يعلمون أن الله تعالى يسمع ويرى.

ألم يعلم بأن الله يرى؟

يقول الدكتور عبد المحسن الأحمد: (وهذه قصة حدثني بها أحد المشايخ ممن نثق فيه - ونحسبه والله حسيبه - يقول: شاب وفتاة، تواعدا على معصية الله، على مرأى ومسمع من الله، فركبت معه في سيارته، كانت ضحكات صاخبة، لكنها حذرة، وقلوب وجلة من خوف الناس، وفي ظل أمن من رب الناس سبحانه.

وبعد أن أقنعها بأنه قد شغف قلبه بحبها، وأنه صار هيمانًا بها، وقلبه مشتاق لها، وساعده ثالثهما الشيطان؛ فوافقت بعد خوف وتردد، بعد أن أقنعها أن السيارة لا تصلح للقاء، لأن الناس حولنا والسيارات، فبعد الخوف والتردد والإلحاح وافقت، لكن بشرط: أن يذهبا إلى مكان آمن؛ لأنها كانت تحس بالخوف، مكان آمن لا يراهما فيه الناس.

---

(١) كتاب التوابين، ابن قدامة، ص(٧٦).

فاستغل تلك المبادرة، وقال مستهترًا، متظاهرًا بثقته: مكان لا يرانا فيه الناس، والله لآخذك إلى مكان ... ثم تبرأ منه اللسان، قال: مكان لا يرانا فيه الناس، والله لآخذك إلى مكان، الله ما يرانا فيه، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

انظر وانظري إلى أين أوصله الشيطان!! رب كلمة يقولها المرء لا يلقي لها بالًا، يكتب الله بها عليه سخطه إلى يوم يلقاه (والله لأوديكي لمكان، الله ما يرانا فيه)، فسمعه مَن؟ سمعه الله، سمعه جبار السموات والأرض، الذي يراه، الذي حرك قلبه، وأجرى دماءه، سمعه الجبار الذي خسف بقارون، سمعه الجبار الذي أغرق فرعون.

فأطلق الجبار أوامره من فوق عرشه سبحانه، أوامره التي لا ترد ولا معقب لها، فإذا بمداهمته ليست كالمداهمة، مداهمة تحركت من فوق السماوات، فإذ بها مداهمة لا تأخذ الأجساد، بل تأخذ الأرواح، فلما اختفيا من الناس، وأمنا من مكر الله، وتوارت عنهما أعين الناس، وظنا أن لا رقيب: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: ٢٢].

لما خلع ملابسه؛ إذا به يخر من طوله، أوقف الله قلبه، وعطل أركانه وأخرس لسانه؛ فإذا به يخر منكبًّا على وجهه عليها، قامت تقلبه يمنة ويسرة تلمس نبضه، تحس أنفاسه، لا أنفاس ولا نبض!! فإذا بها كالمجنونة، كأن صاعقة نزلت عليها من السماء، خرجت، ونسيت نفسها وهي تصرخ بعد أن مات، وهي تقول: (يقول ما يشوفه ... أخذ روحه)، (يقول ما يشوفه... أخذ روحه)، ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[الزخرف:٥٥]، أي: لما أغضبونا انتقمنا منهم، ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ [أي: أن يعجزونا] سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ: ١٩].

لكن كيف وجد تلك النهاية؟ بل كيف انتزعت الروح؟ وكيف انتزعها ذلك الملك؟ وعلى أي حال صعدت روحه إلى السماء؟ بل ماذا حكم عليه رب الأرض والسماء؟ وكيف قابله منكر ونكير؟ وكيف حاله الآن؟ وقد سالت العيون على الخدود؟ بل كيف به وقد عاش في أنفه وبطنه الدود؟ وكيف سيقف مع هذه الخاتمة؟ كيف وقفته أمام الجبار ذي البطش الشديد؟ ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦])[1].

(١) من محاضرة للشيخ عبد المحسن الأحمد بعنوان: وغارت الحوراء.

هل لك بالعظيم طاقة؟

أيها المسافر إلى ربه، بعد هذه الجولة حول ساحل عظمة الله ﷻ، هل عرفت قدرك؟ من أنت أيها الحبيب، أمام قدرة الله تعالى؟ من أنت أمام الجبار العظيم الجليل الحسيب المنتقم؟

تذكر أيها الحبيب، كم عصيته وأمهلك؟ كم رآك مقيمًا على الخطايا وبالعقوبة ما عاجلك؟ كم رآك مبارزًا إياه بالقبائح وما فضحك؟ بل حلم عليك وسترك، بل كم جاوزت حدك معه بعصيانه، وما زال يوالي عليك نعمه وما حرمك؟ فخبرني أخي، هل لك بغضبه طاقة؟ هذا الإله العظيم الجليل، الذي خلق الكون وسواه، أيعجز أن ينتقم ممن عصاه؟ هل أخذت صكًّا بالأمان من غضبه وانتقامه منك في الدنيا والآخرة؟ علام تعول في النجاة من غضب الجبار؟ الذي لا يعجزه شيء، وليس له مع أحد من عباده نسب إلا تقواه جل وعلا.

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟!

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فأفق أيها المسافر، قبل أن يحل عليك غضبه في الدنيا، أو تقدم عليه لتذوق مر عقابه في الآخرة، وارجع إلى ربك بتوبة واستغفار، وإنابة في الأسحار، وأنت تردد:

يا رب عدت إلى رحابك تائبًا ... مستسلمًا مستمسكًا بعراكَ

إني أويت لكل مأوى في الحياة ... فما رأيت أعز من مأواكَ

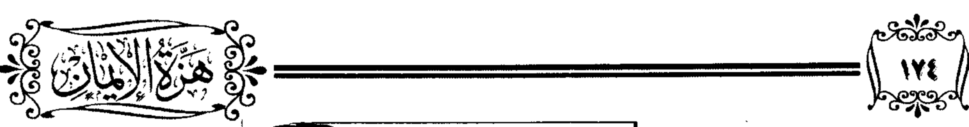
وتلمست نفسي السبيل إلى النجاة ... فلم تجد منجى سوى منجاكَ

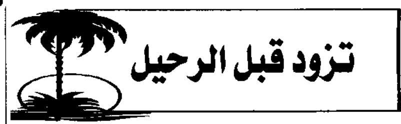
وبحثت عن سر السعادة جاهدًا ... فوجدت هذا السر في تقواكَ

فليرض عني الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعد أسعى لغير رضاكَ

أدعوك يا ربي لتغفر حوبتي ... وتعينني وتمدني بهداكَ

فاقبل دعائي واستجب لرجاوتي ... ما خاب يومًا من دعا ورجاكَ





على المسافر الحريص ألا يغادر هذه المحطة، قبل أن يتزود منها بزاد:

(١) مطالعة كتاب: (العظمة في كل مكان)، للدكتور هارون يحيى، وهو متوافر بموقعه على الإنترنت، www.harunyahya.com.

(٢) سماع شريط: (دعوة للتأمل) للشيخ علي القرني.



الوقفة الثالثة

أشواك على الطريق

الوقفة الثالثة: أشواك على الطريق

أيها المسافر إلى الله، إن لكل طريق عقبات ومصاعب ينبغي لكل طالب للوصول إلى هدفه أن يقطعها؛ حتى يصل إلى مقصوده وهدفه.

وبعد أن قطعت تلك المسافة في الطريق إلى الله، عشت خلالها مع تلك الرحلة الرهيبة إلى دار القرار، عرفت فيها الحقيقة، واستشعرت فيها المصير، وعلمت أن الأمر جد لا هزل فيه، فإنما هو جنة أبدًا أو نار أبدًا، ثم توقفت أمام عظمة الكبير المتعال، المالك المقتدر، جبار السموات والأرض، فعند هذه المسافة تبرز لك تلك العقبة الكئود التي تعوق سيرك عن الله تعالى.

تلك هي: أشواك المعاصي والذنوب التي نثرها الشيطان أمامك، ليقطع بها سيرك إلى ربك، إنها تلك الشهوات البراقة التي يغري بريقها الزائف أكثر الناس؛ فيعميهم عن حقيقة قبحها، وآثارها المهلكة التي تفسد على العبد دينه ودنياه، وتعال بنا الآن؛ نصحبك في جولة سريعة لتتعرف على بعض آثار تلك الأشواك الدامية.

عقوبات الآثام(١)

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (مما ينبغي أن يُعلَم: أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء، إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة؛ دار اللذة والنعيم، والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه؟ وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم؛ حتى علا الماء فوق رءوس الجبال؟ وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد؛ حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم، وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة؛ حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية؛ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قَلَبها عليهم، فجعل عاليها سافلها؛ فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟

---

(١) راجع: الداء والدواء لابن القيم، وتهذيبه لصالح الهبدان، وتحذير الداني والقاصي لأحمد فريد.



وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رءوسهم؛ أمطر عليهم نارًا تلظى؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم؛ فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟ وما الذي خسف بقارون، وداره، وماله، وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟ وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة، حتى خمدوا عن آخرهم؟ وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد؛ فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذراري والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية؛ فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبَّروا[1] ما علو تتبيرًا؟ وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات؟ مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير).

وإليك الآن هذه الجولة التفصيلية، في آثار الذنوب والمعاصي، لتعلم أي خسارة تجنيها، وأي غبن يلحقك، عندما تقدم على مخالفة مولاك، فإن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله:

أولاً: عقوبات في الحياة الدنيا.

حرمان نور العلم.

فإن العلم بشريعة الله نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه؛ أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا؛ فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصٍ

حرمان الرزق.

فكما أن تقوى الله تعالى مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استُجلِب رزق بمثل ترك المعاصي، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) تبَّر: أهلك وحطم.

تعسير أموره عليه.

فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه، أو متعسرًا عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا؛ فمن عطَّل التقوى جعل الله له من أمره عسرًا، ويا للعجب!! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه؛ وهو لا يعلم من أين أُتِي؟!

توهن القلب والبدن.

أما وهنها للقلب؛ فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية، وأما وهنها للبدن؛ فإن المؤمن قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه؛ قوي بدنه، وأما العاصي؛ فإنه وإن كان قوي البدن، فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم؛ كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

حرمان الطاعة.

فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أنه يصد عن طاعة تكون بادية، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه طريق ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرًّا؛ لكفى، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما فيها، وهذا كرجل أكل أكلة؛ أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

الثمار الخبيثة.

المعاصي تزرع أمثالها، وتولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة؛ السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة؛ الحسنة بعدها.

فالعبد إذا عمل حسنة؛ قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضًا؛ فإذا عملها، قالت الثالثة كذلك وهلم جرًّا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات، وكذلك كانت السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة، وصفات لازمة، وملكات ثابتة.

وحيل بينهم وبين ما يشتهون.

فالمعاصي تضعف القلب عن إرادته؛ فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه؛ لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصر عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.



إلف المعصية.

حيث إنه ينسلخ من القلب استقباحها؛ فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له عليها، ولا كلامهم فيه! وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك، وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملتُ كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي ﷺ: ((**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملًا، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان، قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه؛ ويصبح يكشف ستر الله عنه**))[1].

هانوا على الله فعصوه.

فالمعصية سبب لهوان العبد على ربه، وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري: (هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم)، وإذا هان العبد على الله؛ لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وإن عظَّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم؛ فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

الاستهانة بالعصيان.

فالعبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى يهون عليه الذنب ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك؛ فإن الذنب كلما صغر في عين العبد؛ عظم عند الله، وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ قال: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا؛ فطار)[2].

ذل المعصية.

فالمعصية تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠].

أي: فليطلبها بطاعة الله؛ فإنه لا يجدها إلا في طاعته، قال الحسن البصري: (إنهم، وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين؛ فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه)، وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، (٥٣٠٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، (٥٨٣٣).

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانها

تكاثر، فطبع، فغفلة، فموت.

فالذنوب إذا تكاثرت؛ طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤].

(قال: هو الذنب بعد الذنب، وقال الحسن رحمه الله: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم؛ أحاطت بقلوبهم)[١].

وأصل هذا: أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت؛ غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة؛ انتكس فصار أعلاه أسفله؛ فحينئذٍ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

ليذيقهم بعض الذي عملوا.

ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه، والهواء، والزرع، والثمار، والمساكن، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يحل بها من الخسف، والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مر رسول الله ﷺ مع صحبه على ديار ثمود؛ فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم حتى إنه ﷺ أمر ألا يُعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الإبل؛ لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قريب).

دياثة المعاصي.

فالمعصية تطفئ من القلب نار الغيرة، التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فإن الغيرة حرارته، وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة؛ كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم همة؛ أشدهم غيرة على

---

(١) الدر المنثور، السيوطي، (٦/ ٥٤١).

نفسه وخاصته وعموم الناس.

ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه؛ كما ثبت في الصحيح عنه أنه قال: ((**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني**))[١]، والمقصود: أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب؛ أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا؛ فلا يستقبح بعد ذلك القبيح، لا من نفسه، ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد؛ فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسِّن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله، ولهذا كان الدَّيُّوث أخبث خلق الله، والجنة عليه حرام، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره، فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة؟

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب، فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب، فتموت الجوارح، فلا يبقى عندها دفع ألبتة، ومثل الغيرة في القلب؛ مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة؛ وجد الداء المحل قابلًا، ولم يجد دافعًا، فتمكن، فكان الهلاك، ومثلها مثل صياصي الجاموس[٢] التي تدفع بها عن نفسه وولده؛ فإذا كسرت طمع فيه عدوه.

مالكم لا ترجون لله وقارًا؟!

والمعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد؛ لما تجرأ على معاصيه، وكفى بالعاصي عقوبة؛ أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله ﷻ مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به؛ كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظمه الناس.

وكيف ينتهك عبد حرمات الله؛ ويطمع ألا ينتهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حق الله، ولا يُهوِّنه الله على الناس؟! أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟! ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج: ١٨].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلًا فقتله، (٦٣٤٠).

(٢) صياصي الجاموس: قرونه ومفردها صيصة.

فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه؛ أهانهم الله فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟! أو يهين من أكرمه الله؟

نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

والمعاصي تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

فترى العاصي مهملًا لمصالح نفسه مضيعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يُخدع

وأعظم العقوبات: نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعة حظها ونصيبها من الله، وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الأثمان، فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

فالله ﷻ يعوض عن كل ما سواه، ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء.

فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟! وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه؛ فيخسرها، ويظلمها أعظم الظلم؟! فما ظلم العبد ربه، ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه.

قيود الذل.

فالمعاصي تأسر القلب وتقيده، ومن ثم تُضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه وتُوقفه وتعطفه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه؛ فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكِّس الطالب.

والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب؛ ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن



زالت بالكلية؛ انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه، والله المستعان.

زوال النعم وحلول النقم.

فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: (ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة)، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن المعاصي تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد   فرب العباد سريع النقم

جبن وخوف وخور.

ومن آثارها القبيحة، ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي؛ فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا، فإن الطاعة حصن الله الأعظم، الذي من دخله؛ كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه؛ أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف.

فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر؛ إن حركت الريح الباب؛ قال: جاء الطلب! وإن سمع وقع قدم؛ خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصد إليه، فمن خاف الله؛ آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله؛ أخافه من كل شيء.

عيش المستوحشين مر.

فيجد المذنب نفسه مستوحشًا، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأمَرُّ العيش: عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش: عيش المستأنسين، فلو نظر العاقل ووازَنَ بين لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة؛ لعلم سوء حاله وعظيم غبنه؛ إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها، بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له، كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب   فدعها إذا شئت واستأنس

سوء الخاتمة.

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين، وجدتهم يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة؛ عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

فربما تعذر عليه النطق بالشهادة؛ كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم قل: لا إله إلا الله، فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها، وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فقال: شاه رخ(١)، غَلَبْتُك! ثم قضى، وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء، ويقول: تاتا تنتنتا، حتى قضى، وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول؟ ولم أدع معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني؟ وما أعلم أني صليت لله تعالى صلاة، ثم قضى ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك، فقال: أنا كافر بما تقول، وقضى، وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها!! وسبحان الله!! كم شاهد الناس من هذا عبرًا! والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه، قد تمكن منه الشيطان، واستعمله بما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله، وعطل لسانه من ذكره، وجوارحه عن طاعته؛ فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وقد جمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه؛ لينال منه فرصته؟!

فإن ذلك آخر العمل؛ فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة، فمن ترى يسلم على ذلك؟! فهناك: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فُرُطًا؟!! فبعيد على من قلبه بعيد من الله تعالى، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته ـ أن يوفق لحسن الخاتمة.

ثانيًا: عقوبات في الآخرة.

ومن عقوبات المعاصي: ما رواه البخاري في صحيحه، من حديث سمرة بن جندب ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: ((**هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**)) قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: ((**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني،**

---

(١) شاه ورخ: قطعتان من قطع الشطرنج، والمحتضر يذكرهما لأنهما أخذا عليه لبه وعقله من كثرة اللعب، فنسأل الله حسن الخاتمة.

وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه؛ فيثلغ[١] رأسه؛ فيتدهده[٢] الحجر ها هنا، فيَتبَع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب[٣] من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر شدقه[٤] إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب؛ حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثلما فعل المرة الأولى، قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لي: انطلق، انطلق.

فانطلقنا فأتينا على مثل التنور[٥]، قال: وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط[٦] وأصوات، قال: فاطَّلعنا فيه؛ فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب؛ ضوضوا[٧]، قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على نهر، حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل، قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه، فيلقمه حجرًا، فينطلق يسبح ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه؛ فغر له فاه، فألقمه حجرًا، قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

قال: فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المَرْآة[٨]، أكره ما أنت راءٍ رجلًا مرآة، وإذا عنده نار يحشُّها[٩] ويسعى حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على روضة معتمة[١٠]، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة

---

(١) يثلغ: يشدخ.

(٢) يتدهده: ينحط من علوٍ إلى أسفل.

(٣) كلوب: خطاف، حديدة معوجه الرأس لتعليق الأشياء.

(٤) فيشرشر شدقه: يقطع جانب الفم.

(٥) التنور: الفرن.

(٦) اللغط: الضجيج غير المفهوم.

(٧) ضوضوا: رفعوا أصواتهم مختلطة.

(٨) المرآة: المنظر.

(٩) يحش: يوقد.

(١٠) معتمة: كثيرة النبت غطاها الخصب.

رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

فانطلقنا، فانتهينا إلى روضة عظيمة، لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالا لي: ارق فيها، فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب، ولبن فضة.

فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلناها فتلقانا فيها رجال؛ شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحضُ[١] في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا؛ قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك.

قال: فسما بصري صعدًا[٢]؛ فإذا قصر مثل الربابة[٣] البيضاء، قال: قالا لي: هذا منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما؛ ذراني فأدخله، قالا: أما الآن؛ فلا، وأنت داخله، قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا؛ فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك:

أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يُثلغ رأسه بالحجر: فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه: فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور: فإنهم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر: فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها: فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ، وأما الولدان الذين حوله: فكل مولود مات على الفطرة))، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: ((وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسنًا، وشطر قبيحًا؛ فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، تجاوز الله عنهم))[٤].

إنما هو استدراج.

وربما اتكل بعض المغترين، على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور؛ فعن

---

(١) المحض: اللبن الخالص الذي لا شائبة فيه.

(٢) صعدًا: صاعدًا في ارتفاع كثير.

(٣) الربابة: السحابة.

(٤) رواه أحمد في مسنده، (١٩٢٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٥٧٨).

عقبة ابن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج**))، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤][1].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله ﷻ يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على معاصيه؛ فاحذره، فإنما هو استدراج منه، يستدرجك به، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣ – ٣٥].

وقد رد ﷻ على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفجر: ١٥ – ١٧].

أي: ليس كل من نَعَّمْتُه ووسَّعتُ عليه رزقه؛ أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه؛ أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء، وعنه ﷺ: ((**... وإن الله يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب...**))[2].

وقال بعض السلف: (ربَّ مُستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم).

لا تتعجل عقوبة الذنب.

وها هنا نكتة دقيقة، يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يُغِير بعد ذلك؟!! وسبحان الله!! كم أهلكت هذه النكتة من الخلق؟! وكم أزالت من نعمة؟! وكم جلبت من نقمة؟! وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلًا عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقضُّ ولو بعد حين، كما ينقض السهم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل[3].

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ: (اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلًا يغنيكم خير من كثير يطغيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم

---

(١) رواه أحمد في المسند، (١٦٦٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٥٦١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، (٩٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه، (٨/ ١٦١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٢٧١٤).

(٣) المندمل: اندمل الجرح، أي: تماثل للشفاء وصلح، الغش والدغل: الفساد الذي يكون في الجرح من قيح وصديد ونحو ذلك.

لا ينسى)[١]، هذا مع أن للذنب نقدًا معجلًا لا يتأخر عنه؛ قال سليمان التيمي: (إن الرجل ليصيب الذنب في السر؛ فيصبح وعليه مذلته)[٢].

أعظم العقوبة ألا تشعر بالعقوبة.

(اعلموا إخواني ومن يقبل نصيحتي، أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافًا مضاعفة، والمجازي بالمرصاد لا يسبقه شيء ولا يفوته؛ فوا أسفًا لمضروب بالسياط ما يحس بالألم، ولمثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبر، ولمتقلب في عقوبة ما يدري بها، ولعمري إن أعظم العقوبة ألا يدري بالعقوبة!

فوا عجبًا للمغالط نفسه، يرضي نفسه بشهوة، ثم يرضي ربه بطاعة، ويقول حسنة وسيئة، ويحك، من كيسك تنفق! ومن بضاعتك تهدم! ووجه جاهك تشين! رب جراحة قتلت، ورب عثرة أهلكت، ورب فارط لا يُستَدرك، ويحك، انتبه لنفسك، ما الذي تنتظر بأوبتك؟ وماذا تترقب بتوبتك؟ المشيب؟ فها هو ذا أوهن العظم، وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللحاق؛ قَدِّر أنما تؤمله من الدنيا قد حصل، فكان ماذا؟ ما هو عاجل فشغلك عاجلًا، ثم آخر جرعة اللذة شَرقة، وإما أن تفارق محبوبك أو يفارقك.

فيا لها من جرعة مريرة تود عندها أن لو لم تره، آهٍ لمحجوب العقل عن التأمل، ولمصدود عن الورود وهو يرى المنهل، أما في هذه القبور نذير؟ أما في كرور الزمان زاجر؟ نادهم في ناديهم: هيهات، صموا عن مناديهم، فلو أن ما بهم الموت؛ إنما هنيهة، ثم القبور.

العمل حصل يا معدومًا بالأمس، يا متلاشي الأشلاء في الغد، بأي وجه تلقى ربك؟ أيساوي ما تناله من الهوى لفظ عتاب؟ بالله إن الرحمة بعد المعاتبة، ربما لم تستوف قَلْع البغضة من صميم القلب، فكيف إن أعقب العتاب عقاب؟)[٣].

فإن له معيشة ضنكًا

آهات المذنبين.

وها هي بعض الزفرات والآهات، التي يبعث بها إليك بعض من أمضوا أيامهم ولياليهم، في معاناة أشواك المعاصي والآثام، يبثونك إياها أيها المسافر، لعل لك فيها عبرة، ألا تعاني مثل معاناتهم، وتقاسي مثل مقاساتهم، فاسمع إليها تنبيك عن بعض آلام الأشواك، وقانا الله منها وإياك.

---

(١) الزهد، الإمام أحمد، ص(١٦٨).

(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم، (٣/ ٣١).

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص(٢٤٤).

مؤدب العصاة.

(هذا شاب يقول عن نفسه في آخر حياته: بعد أن أنهيت الثانوية، جاءني أحد رفقاء السوء، فقال لي: يا فلان، أتحب السفر معنا؟ قلت: إلى أين؟ قال: إلى تلك البلاد، بلاد آسيوية، فيها المنكر والفساد جهارًا نهارًا بأبخس الأثمان، فقلت: كيف؟ قالوا: اطلب من أبيك المال، وسافر معنا، والأمر بسيط، أيامًا معدودات ثم نرجع، قال: فجئت إلى أبي، فقلت: يا أبي، قد نجحت في الثانوية، وحصلت على التقدير العالي، وأريد مكافأة؟ قال: ماذا تريد؟ قال: أريد مالًا؛ لأذهب وأسافر مع أصحابي، فقال الأب: إلى أين؟ قال: إلى تلك البلاد، قال: لا بأس، فأعطاه المال، قال: فسافرت لأول مرة، فذهبنا إلى تلك البلاد.

والغريب أنني رأيت شبابًا من أبناء بلادنا، دخلوا أماكن حمراء، أماكن مظلمة، أماكن فيها الفساد والشهوات، يفعلون الفواحش والمنكرات، فدخلت معهم، وفعلت ما لم أظن أنني أفعله في حياتي يومًا من الأيام، صنعت المنكرات، وفعلت الفواحش، وأتيت الشهوات.

يقول: فتلذذت مرة بعد الأخرى، حتى رجعت إلى بلادي، فاشتقت إلى الرجوع، فأخذت من أبي مالًا مرة أخرى، وهكذا توالت الأسفار بعد الأسفار، حتى وقعت في وكر المخدرات، يقول: فلما نفذت الأموال، بدأت أسرق؛ لأسافر إلى تلك البلاد، السفر صار في دمي، والمخدرات تجري في عروقي، ومرت الأيام والسنون.

حتى جاء ذلك اليوم، أحسست بإعياء شديد، فسقطت على الفراش، فذهب بي أصحابي إلى الطبيب، وبعد التحاليل والفحوصات، جاءني الطبيب يفاجئني، وقال: يا فلان! إن الأمر صعب، قال: أخبرني يا طبيب، قال: بعد التحاليل اكتشفنا أنك مصاب بفيروس الإيدز.

يقول: فكأن الدنيا قد أظلمت أمامي، أحلامي تبددت، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، أيها الطبيب، ربما أخطأتم! قال: سنعيد الكرة، فأعادوا التحليل مرة أخرى، لكن النتيجة هي النتيجة، يقول: ذهبت إلى طبيب آخر، وإلى مستشفى آخر، ولكن النتيجة هي النتيجة، ثم رجعت إلى بلادي مسود الوجه، قد أظلمت الدنيا أمامي، يقول: وأنا الآن أكتب إليكم قصتي، وأنا على فراش الموت أنتظر الموت)[1].

---

(١) من محاضرة للشيخ نبيل العوضي بعنوان: قصص واقعية.

لحظة الاختيار.

وهذه مجموعة من الدعاة، سافروا إلى إحدى الدول الغربية، فلما أتوا إلى مسجد من المساجد، وبعد انقضاء الصلاة، سألوا الإمام: أتعرف أحدًا من المسلمين يسكن حول المسجد، وهو لا يصلي؟ فقال لهم: نعم، أعرف جارًا للمسجد، وهو من إحدى الدول العربية، مسلم، لكنه لم يأت إلى المسجد يومًا من الأيام، إنه من الأغنياء فاذهبوا إليه، ربما يهديه الله.

يقول الداعية: فذهبنا إليه وطرقنا الباب، فلم يأت، واستمر أحدنا يدق عليه الجرس لعله يخرج، وانتظرنا مدة من الزمن، حتى خرج عابس الوجه مكفهرًا، قال: ماذا تريدون؟

قالوا بعد أن سلموا عليه: نحن إخوانك، جئنا نزورك في الله، قال: وماذا تريدون؟ قالوا: نريد زيارتك، لا نريد إلا وجه الله، قال: وبعد ذلك ماذا تريدون؟ قالوا: نطلب منك أن تأتي معنا إلى المسجد، قال: إن شاء الله اذهبوا إلى المسجد، وأنا أدرككم، قالوا: لا، لن نبرح من هذا المكان حتى تأتي معنا، قال: اذهبوا، وسوف أتوضأ وآتيكم، قالوا: نحن منتظرون، قال: سبحان الله! أقول لكم سوف آتي، قالوا: لن نبرح من هذا المكان حتى تأتينا، فذهب ورجع بعد قليل، وقد بدل ملابسه، وجاء متوضئًا، وذهب معهم إلى المسجد، وقال: أصلي وأرجع.

فلما صلى قام أحد الدعاة، وجلس الرجل ينصت، فسمع بعض الآيات والأحاديث وبعض العبر، كان يريد الذهاب، ولكن الحديث الجميل أجلسه، وبعد أن أنهى الشيخ كلامه، نظروا إليه فإذا عيناه تذرفان، فجلس معهم وقال: أين تذهبون؟ وإلى أي مكان تغادرون؟ قالوا: نحن نتجول في المساجد، من مسجد إلى آخر، ندعو إلى الله ﷻ، قال: أنا أريد أن أذهب معكم، ما الشروط؟ قالوا: لا شروط، تعال واذهب معنا، وفعلًا ذهب معهم، ومرت الأيام حتى أصبح هذا الأخ التائب من الدعاة إلى الله ﷻ، وسخَّر ملايينه كلها في الدعوة إلى الله.

ومرت الأيام، فقال هذا الرجل للشيخ ذات يوم: يا شيخ! أتذكر ذلك اليوم الذي أتيتم فيه إلى منزلي؟ قال: نعم، قال: أتدري ماذا كنت أفعل حينها؟ قال: لا، وما يدريني! قال: كنت في ذلك اليوم قد ضاقت عليَّ الدنيا جميعها، عندي الملايين لكن الدنيا أظلمت في وجهي، تعاسة وهَمٌّ وغم.

كنت واضعًا كرسيًا في إحدى الغرف، ووقفت على الكرسي، وعلقت الحبل في السقف، وربطت الحبل في عنقي، وهممت بدفع الكرسي لأسقط، وفعلًا دفعت الكرسي، لكنه لم يسقط، حينها سمعت الجرس، فقلت في نفسي: هل أرد على الباب، أو أنتهي من الدنيا؟ فقالت لي نفسي: انته من الدنيا، وجاءني منادٍ في قلبي، يقول لي: لا، رد على صاحب الباب، فربما تجد شيئًا

من الأمل، فدفعت الكرسي، لكنه لم يسقط، فقلت: أنزل، فأرد على الباب ثم أرجع فأنتحر، فيقول: أرأيت؟ إنها ثوانٍ معدودة، أرسلكم الله ﷻ إليَّ، ولو لم تأتوا إليَّ في ذلك اليوم؛ لانتحرت وساءت خاتمتي)(١).

رسالة إلى غريق

أيها المسافر إلى ربه، أبعث إليك بهذه الرسالة، من قلب محب لك، مشفق عليك، يود والله لو يرضى عنك ربك، لا لشيء إلا لأن يكون رفيقك في دار النعيم.

فوالله يا أخيَّه، إني لأحبك في الله، فأنت تحمل في قلبك إيمانًا صادقًا، على الرغم من تقصيرك وتفريطك، لكنها سحب الغفلة التي غطت على نفاسة معدنك، وصدق إيمانك، فاسمع مني يا أخيه هذه الكلمات، التي صدرت عن قلب لك محب وعليك حريص.

أخي الحبيب، نعيش أيامًا قلائل، لحظات معدودات، ثم لا بد لنا من الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢].

فنحن نهدم في أعمارنا على قصرها، منذ استهل أحدنا صارخًا من بطن أمه، وندنوا لحظة بعد أخرى من لقاء ربنا: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

عن ابن عمر ﷺ، قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي (وفي رواية بمنكبي)، فقال: ((**يا عبد الله، كن في الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور**))، وكان ابن عمر ﷺ يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك)(٢).

حتى متى لا ترعوي يا صاحبي؟ حتى متى؟ حتى متى؟ وإلى متى؟
والليل يذهب والنهار وفيهما عِبَر تمر وفكرة لأولي النهى

وأمامنا أيها الحبيب، في هذا السفر الطويل عقبات كئود، حدثتك عن بعضها بين ثنايا هذا الكتاب، هل تذكر ما أمامنا؟ أمامنا سكرات الموت، وظلمة القبر، وأهوال يوم التغابن، أمامنا وقوف طويل بين يدي رب العالمين ليحاسبنا فيه على الصغير والكبير، أمامنا ميزان دقيق يُبيِّن فيه مثقال الذرة من الحسنات والسيئات، أمامنا صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، وعلى جانبيه كلاليب تخطف المارين إلى قعر جهنم إلا من أدركته رحمة ربه.

---

(١) من محاضرة للشيخ نبيل العوضي بعنوان: قصص واقعية.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب، (٥٩٣٧).

فبأي حال نلقى الله؟! وبأي جواب نعتذر إليه من أعمالنا؟! بماذا نجيبه إذا سألنا عن عمرنا فيما أفنيناه، وعن شبابنا فيما أبليناه، وعن مالنا فيما أنفقناه، وعن علمنا ماذا فعلنا فيه؟!

فوا خجلتاه يوم العرض الأكبر على الله، ووا أسفاه على أعمار انقضت في غير طاعة الله، ووا حزناه على لحظات مرت، كرت ففرت، لم تملأ بما يقرب من الله، ووا سوأتاه، فبأي جواب نعتذر من الله؟! ووا وجلاه لأهوال عظام، وكربات جسام بين أيدينا في سفرنا إلى الله، فماذا أعددنا من الزاد لهذه العقبات؟

يقول النبي ﷺ: ((**والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**))[1].

فماذا استفدنا أيها الحبيب، من بُعدنا عن ربنا؟ ما الذي كسبناه من وقوعنا في أسر المحرمات؟ كم رتعنا في الشهوات، وكم انتهبنا من اللذات فأين هي الآن؟ تُرى: هل بقي من لذتها شيء؟ لا والذي يقلب القلوب، إنما هي سحابة صيف مرت، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه؛ لم يجده شيئًا، بل ووجد الله عنده في يوم المعاد؛ ليوفيه حسابه، بعد أن دفع حساب الأشواك في الدنيا من عقوبات، لا تقوم للواحدة منها أمثال الجبال من لذات المعاصي والشهوات.

فيا حبيبي في ربي، ويا رفيقي في دربي:

تزود للذي لا بد منه	فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم	لهم زاد وأنت بغير زاد؟!

فإذا أردت أيها الحبيب، أن تنجو من آثار هذه الأشواك، في دنياك وأخراك؛ فدونك وسبيل النجاة من الغرق في لجج المعاصي والآثام، نصفه لك في المحطة الثانية من محطات السفر إلى الله، ندعوك فيها أن تهجر العصيان، ونعلمك السبيل إلى ذلك من كلام الواحد الديان، وكلام رسوله العدنان، نرفع فيها معًا شعار:

((وعجلت إليك رب لترضى))

ولكن قبلها أهيب بك كما عودتك أن ...

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، (٢٢٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٣١٢).



تزود قبل الرحيل

على المسافر الحريص، ألا يغادر هذه المحطة إلا وقد تزود منها بزاد:

(١) استعرض عناوين آثار الذنوب والمعاصي، وتدبر فيها جيدًا، واعرض حياتك عليها؛ لتعلم كم جنيت من آثار الأشواك في عمرك الماضي.

(٢) اشتغل هذا الأسبوع بدعاء النبي ﷺ: **((اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا، ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا))**[١]، وقوله ﷺ **((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى))**[٢].



(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، (٣٤٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٥٠٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، (٤٨٩٨).

المحطة الثانية

وعجلت إليك رب لترضى

المحطة الثانية: وعجلت إليك رب لترضى

أيها المسافر إلى ربه، لعلك الآن قد سَرت في قلبك رجفة الخشية من الرب الجليل، بعد أن عرفت خطر الخاتمة، وعاينت ألم السكرات في يوم السكرات، ثم أصغيت إلى نداء ذلك الواعظ الصامت، وأدركت خطر الوقوف بين يدي الحسيب الرقيب في يوم التغابن، ورأيت ما يعانيه المفرطون من أنواع النكال في دار البوار، ثم استنشق قلبك عبير الأنس والشوق إلى بلاد الأشواق، في جوار أرحم الراحمين في جنات النعيم.

ثم عادت رجفة الهيبة والتعظيم للرب الجليل تدب في أوصالك، بعد أن اطلعت على لمحة من آثار عظمته، وعرفت كذلك مغبة السير على أشواك المعاصي في الدنيا والآخرة، من آثار خطيرة، وعواقب وخيمة، تفتك بدين المرء قبل دنياه.

إذا كنت كذلك أيها الحبيب؛ فأبشر، فقد قطعت بذلك أول مرحلة إلى ربك، والآن: آن الأوان لأن نخطو إلى الله تعالى خطوة أخرى.

آن الأوان لأن نترجم تلك الخشية التي دبَّت في أوصال قلوبنا إلى واقع عملي ملموس، يجنبنا تلك الأهوال، ويقربنا من ربنا المتعال، آن الأوان لنا أن نعود إلى ربنا، فنفر منه إليه ﷻ.

آن الأوان أن تعيش خير يوم طلعت عليك فيه الشمس، منذ أن جئت إلى هذه الدنيا، أتدري ما ذلك اليوم؟! هذا رسول الله ﷺ ينبيك عنه، يوم أن يُبشِّر كعب بن مالك ؓ في اليوم الذي تاب الله تبارك وتعالى فيه عليه، فيقول له الرحمة المهداة، ووجهه الشريف يتلألأ نورًا: ((**أبشر بخير يوم طلعت عليك فيه الشمس منذ ولدتك أمك**))[1].

نعم أيها الحبيب، إن خير أيامك في الدنيا يوم أن تعود إلى ربك، يوم أن تحطم قيد الذنب، وتتحرر من أسر الشهوات، ولسان حالك يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: ٨٤].

الباب المفتوح

أيها المسافر، هل عظمت عندك ذنوبك، وتكاثرت لديك خطاياك؟ هل تشعر أنك ارتكبت ذنوبًا تنوء بحملها الجبال؟ هل تستعظم تلك الزلات التي صدرت منك في غفلة عن ربك؟ إذا كنت كذلك؛ فأبشر، فإن هذه علامة المؤمن، الذي يقول فيه النبي ﷺ: ((... **من سرته حسنته، وساءته معصيته، فذلكم المؤمن**))[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، (٤٠٦٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، (٢٠٩١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢١٦٥).



ويشرح ذلك عبد الله بن مسعود ﷺ فيقول: (المؤمن يرى ذنوبه كجبل يوشك أن يقع على رأسه، والمنافق يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا؛ فطار)[١].

ولكن أيها الحبيب، احذر أن يقودك ذلك الشعور باستعظام ذنوبك، إلى الوقوع في شَرَك اليأس والقنوط من رحمة الله، فلئن كانت ذنوبك عظيمة؛ فعفو ربك ورحمته أعظم، ولئن كنت العبد المقصر المفرط؛ فإنك تتعامل مع رب غفور رحيم، اسمه التواب الغفار، رحمته سبقت غضبه، وعفوه سبق انتقامه.

لو أن الإنس والجن والأولين والآخرين كانوا على أفجر قلب رجل من أهل الأرض في صعيد واحد، فسألوه غفران ذنوبهم فغفر لهم؛ ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، يقول عن نفسه: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ١٤٧].

اسمه الغفور التواب، ولو لم تذنب؛ لما عرف بهذا الوصف في آي الكتاب، وهل من مغفرة أو توبة من غير ذنب؟! بل من أعظم الذنوب عنده: استقلال عفوه، واستبعاد رحمته، فسبحانه من رب رحيم غفور تواب، ينتظر من عبده كلمات الرجاء: يا رب أذنبت، يا رب أخطأت، يا رب أسأت، ليسعفه بكلمات القبول: يا عبد غفرت، يا عبد سامحت، يا عبد صفحت.

وتعال أيها الحبيب، لنطوف في بستان الكتاب والسنة، نستنشق من عبير آيات الله وسنة الحبيب ﷺ، ما يسكب في قلوبنا الأمل في رحمته سبحانه سكبًا.

الأسلمي يسلمك المفتاح.

عن بريدة قال: جاء ماعز بن مالك ﷺ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: ((**ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه**))، فقال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك.

حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله ﷺ: ((**فيم أطهرك؟**))، قال: من الزنى، قال رسول الله ﷺ: ((**أَبه جنون؟**))، فأُخبر أنه ليس بمجنون، فقال: ((**أشرب خمرًا؟**))، فقام رجل فاستنكهه؛ فلم يجد منه ريح خمر، فقال: ((**أزنيت؟**))، قال: نعم، فأمر به فرجم، فلبثوا يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ.

فقال: ((**استغفروا لماعز بن مالك، لقد تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لوسعتهم**))[٢]، وفي رواية: ((**والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة، ينغمس فيها**))[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، (٥٨٣٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، (٥٦٢٣).

(٣) رواه الدارقطني في سننه، (٣٤٩١)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، (٢٩٥٧).

وقاتل المائة يفتح لك الباب.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدُل على راهب، فأتاه، فقال: إني قتلت تسعة وتسعين نفسًا، فهل لي من توبة؟ فقال: لا، فقتله؛ فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدُل على رجل عالم، فقال: إني قتلت مائة نفس فهل لي من توبة؟ فقال العالم: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق، حتى إذا نَصفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط.

فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد؛ فقبضته ملائكة الرحمة))، قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت؛ نأى بصدره ـ أي: استدار بصدره ـ جهة أرض الخير[١].

قراب بقراب من الرحيم الوهاب.

وما أعظمه من رب رحيم تواب، حينما يفتح لعباده أبواب الرحمة على مصراعيها، فيناديهم جل وعلا قائلًا في الحديث القدسي: ((يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرتِ لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة))[٢]؛ فمهما عظم ذنبك أيها المسافر؛ فرحمة الله أعظم، كما هو مذهب الإمام الشافعي، الذي قال عند موته يناجي ربه:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما[٣]

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٤٩٦٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، (٣٤٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٥٤٠).

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ٢٣٦).

هذا وصف المتقين.

ثم إليك هذه المفاجأة، هل تعلم أن الله تعالى وصف عباده المتقين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

(يا لسماحة هذا الدين! إن الله سبحانه لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من سماحته ﷻ معهم؛ ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا: إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين، ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾.

والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله، ولا تجعلهم في ذيل القافلة، قافلة المؤمنين، إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة، مرتبة المتقين، على شرط واحد، شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته، أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء، وبعبارة أخرى: أن يكونوا في إطار العبودية لله والاستسلام له في النهاية؛ فيظلوا في كنف الله، وفي محيط عفوه ورحمته وفضله.

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري، الذي تهبط به ثقلة الجسد أحيانًا إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم؛ فينزو نزوة الحيوان في حُمَّى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته، إلى المخالفة عن أمر الله في حُمَّى الاندفاع.

يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه، حين يرتكب الفاحشة، المعصية الكبيرة، وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفىء، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطىء، وأن له ربًا يغفر.

وإذًا فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير، إنه سائر في الدرب، لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة، لم ينقطع به الحبل، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر، فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه والحبل في يده، ما دام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره، ويقر بالعبودية له، ولا يتبجح بمعصيته.

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذًا حائرًا في التيه،

ولا يدعه مطرودًا خائفًا من المآب، إنه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق، ويأخذ بيده المرتعشة، ويسند خطوته المتعثرة، وينير له الطريق، ليفيء إلى الحِمى الآمن، ويثوب إلى الكنف الأمين.

شيء واحد يتطلبه: ألا يجف قلبه وتظلم روحه؛ فينسى الله، وما دام يذكر الله، ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي، ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي، ما دام في قلبه ذلك الندى البليل؛ فسيطلع النور في روحه من جديد، وسيئوب إلى الحِمى الآمن من جديد، وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطيء ويعرف أن السوط لا سواه في الدار؛ سيروح آبقًا شاردًا لا يثوب إلى الدار أبدًا، فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدًا حانية، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة؛ فإنه سيعود.

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه، فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب الثقلة رفرفة، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقًا ربانية.

فهو يعطف عليه في لحظة الضعف؛ ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود، ويربت عليه في لحظة العثرة؛ ليحلق به إلى الأفق من جديد، ما دام يذكر الله ولا ينساه، ولا يصر على الخطيئة، وهو يعلم أنها الخطيئة، والإسلام لا يدعو بهذا إلى الترخص، ولا يمجد العاثر الهابط، ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف [الواقعية]، إنما هو يقيل عثرة الضعف؛ ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء، كما يستجيش فيها الحياء، فالمغفرة من الله، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ تُخجِل ولا تُطمِع، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار، فأما الذين يستهترون ويصرون؛ فهم هنالك خارج الأسوار، موصدة في وجوههم الأسوار.

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا، والرحمة بهذه البشرية التي يعلم قدرتها، ويفتح أمامها باب الرجاء أبدًا، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها)[1].

أرجى آية في كتاب الله.

ثم إليك هذه الآية الناسفة، التي تنسف اليأس من قلبك، يقول الرحيم الرحمن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

(إنها الرحمة الواسعة، التي تسع كل معصية، كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأوبة، دعوة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٤٧٦-٤٧٧).

العصاة المسرفين الشاردين المبتعدين في تيه الضلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله؛ إن الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم، ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق، ويجلب عليهم بخيله ورجله، وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث.

ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واهٍ، وأنه مسكين سرعان ما يسقط، إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده، وأنما ركب في كيانه من وظائف، ومن ميول، ومن شهوات؛ سرعان ما ينحرف عن التوازن، فيشط به هنا أو هناك، ويوقعه في المعصية، وهو ضعيف عاجز عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا؛ فيمد له في العون، ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصيته؛ حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه، ويقيم خطاه على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يقبل ولا يستقبل.

في هذه اللحظة، لحظة اليأس والقنوط؛ يسمع نداء الرحمة النديِّ اللطيف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وليس بينه وقد أسرف في المعصية، ولَجَّ في الذنب، وأبق عن الحِمَى، وشرد عن الطريق، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية، وظلالها السمحة المحيية، ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة، التوبة وحدها، الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بوَّاب يمنع، ولا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان))[1].

ابشر وكبِّر.

عن أبي طويل شطب الممدود، أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجَّة ولا داجَّة[2] إلا أتاها؛ فهل لذلك من توبة؟

فقال رسول الله ﷺ: ((**هل أسلمت؟**))، قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: ((**تفعل الخيرات، وتترك السيئات؛ فيجعلهن الله لك خيرات كلهن**))، قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: ((**نعم**))، قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى[3].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٣٠٥٨).

(٢) حاجَّة ولا داجَّة: أي صغيرة ولا كبيرة، انظر النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير، (٢/ ٢١٧).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٢٧٠٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٣١٦٤).

أرأيت رحمة كهذه الرحمة، وكرمًا كذلك الكرم؟ إن ربنا الرحيم الكريم، لا يكتفي أنه يعفو ويغفر، بل يبدل التائب بزلاته حسنات، وبسقطاته درجات، فيا أرحم الراحمين، ماذا نقول في مدحك والثناء عليك؟ سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، يا أكرم الأكرمين؛ فماذا تنتظر إذًا أيها المسافر؟ أقبل على ربك، تب إليه، عد إليه، يغفر ويرحم، ويبدلك بسيئاتك حسنات.

متى يغلق الباب؟

لا يغلق باب التوبة المفتوح إلا عند:

طلوع الشمس من المغرب.

وهذا عند قيام الساعة وظهور علاماتها، لقول النبي ﷺ: ((**إن للتوبة بابًا، عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب، لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها**))، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨][1].

الغرغرة ومعاينة الملائكة.

قال رسول الله ﷺ: ((**إن الله تعالى يقبل توبة العبد، ما لم يغرغر**))[2]؛ لأنه في هذه الساعة تنكشف له الحجب؛ فيرى الملائكة حاضرة لتقبض روحه، وعندها فقط يصدق ويؤمن، وهذا إيمان لا قيمة له، وتوبة لا طائل من ورائها.

التوبة لماذا؟

لئن كانت تلك الباقة العطرة من رياحين الكتاب والسنة، قد بددت من قلبك رائحة اليأس والقنوط من رحمة الله؛ فإن هناك أسبابًا أخرى، تدعوك إلى الرجوع إلى ربك، وتدفعك دفعًا إلى الارتماء على باب الكريم؛ لتنهل بتوبتك من رحمته وغفرانه ورضاه، فتأمل في هذه الأسباب، وأْمُر نفسك تأخذ بأحسنها؛ ألّا ينزلك الله منازل الخاسرين.

أمر الله يا عبد الله.

أيها المسافر إلى ربه، ألست من عباد الله المؤمنين رغم تقصيرك؟ ألست عبدًا لله ﷻ رغم تفريطك؟ فاعلم إذًا أن الله ﷻ قد فرض عليك فرضًا جازمًا أن تتوب إليه، وأنك إن لم تتب؛ فقد أضفت ذنبًا آخر على ذنوبك، يسمى ذنب تأخير التوبة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٧٢٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (٢١٧٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، (٣٤٦٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٥٣٧).



إنه أمر الله الملك المهيمن، مالك الملك، الذي ينبغي أن نمتثل ونذعن لأمره، فقد أمرك وأمر كل مؤمن معك بالتوبة، بل ويحذرك عاقبة تأخيرها فيقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

فالعباد إما تائب أو ظالم، فمن لم يتب على الفور؛ كان عند الله من الظالمين، حيث ظلم نفسه أولًا: بسيره حيث خالف ربه، ثم ثانيًا: بإصراره على ذنبه وانصرافه عن الرجوع إلى خالقه وباريه، أما إن تبت ورجعت إليه؛ فيا بشراك من إلهك ومولاك الذي يقول لك ولكل مؤمن: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

حتى يفرح الرحمن.

عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِيَّة مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته**))[١]، وفي رواية: ((**ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**))[٢].

يا الله، يا أرحم الراحمين ـ تأمل أيها المسافر ـ في ذلك الحديث، ليملأ قلبك بالحب لهذا الرب الكريم، فليس العجب أن يفرح العبد بربه حين يتوب عليه، فذلك أمر طبعي، أما العجيب حقًّا فهو أن يفرح ذلك الرب العظيم، الحليم الكريم التواب، بعودة عبده الفقير الذليل، المذنب المفرط، إلى رحاب ربه مرة أخرى!!

بل وفرحه بك إن عدت إليه لا يتصوره عقل، فليست هناك فرحة على ظهر الأرض أعظم من فرحة ذلك الموشك على الهلاك إن كتبت له النجاة، ففرحة الله بعودتك إليه أشد من أعظم صور الفرحة التي يمكن أن يتخيلها عقلك، ولماذا يفرح بك؟ هل تزيد في ملكه شيئًا بعودتك؟ هل تنقص من ملكه شيئًا بمعصيتك؟ كلا وحاشا، فهو القائل في الحديث القدسي: ((**... يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.**

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، (٤٩٢٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، (٤٩٣٢).

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا...))[(١)].

إنما يفرح سبحانه بعودتك إليه؛ لأنه كريم يحب العفو والرحمة؛ لأنه يحبك، ولو لم يحبك لما جعلك مسلمًا، وأنت في صلب أبيك آدم، فهيا أخيَّه، عد إلى ربك ليفرح بك وتفرح به، وتلك والله الفرحة الحقيقية: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٨].

المعصوم يتوب وأنت ما تتوب؟!

عن الأغر المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **((يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة))**[(٢)].

(وكان أصحابه يعدُّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: **((رب اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور))**، مائة مرة، وما صلَّى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ١ - ٣]، إلا قال فيها: **((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي))**[(٣)]، فصلوات الله وسلامه عليه، أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها)[(٤)].

فإذا كان رسول الله ﷺ أشرف المرسلين، وخير خلق الله أجمعين، المعصوم من معصية رب العالمين، يتوب في اليوم مائة مرة بل أكثر؛ فما بالي وبالك لا نتوب؟ كم نحتاج من توبات وتوبات، ونحن أصحاب المعاصي والزلات؟!

كيف نعود إلى الله؟

وتبقى الإجابة على السؤال الخطير: كيف نتوب إلى الله تعالى؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال؛ أحضر أيها المسافر قلبك، بل كيانك كله، فربما يكون هذا أخطر سؤال تسأله في عمرك؛ إذ عليه تتوقف نجاتك عند ربك.

فأعرني قلبك وجوارحك يا رعاك الله، واسمع إلى ربك، يصف لك تلك التوبة التي

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٤٦٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والإكثار منه، (٤٨٧١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، (٧٥٢).

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(١٠٨).

يريدها منك، بل ومن كل مؤمن فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

فما هي إذًا تلك التوبة النصوح، التي يغفر الله بها الذنوب، ويكفر بها السيئات، ويدخل بها الجنات؟ إنها مشتقة من النصح والنصيحة، فمن قوَّتها وصدقها؛ تنصحك وتردك عن الذنب كلما أردت العودة إليه.

(قال عنها عمر بن الخطاب ﷺ: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقال الحسن البصري رحمه الله: هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على ألا يعود فيه، وقال الكلبي: يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن، وقال سعيد بن المسيب: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان)[١]، ومن مجموع هذه الدرر المنظومة، من كلام هؤلاء السادات، يتبين لنا أن أركان التوبة النصوح هي:

(١) ترك وإقلاع.

وهو حقيقة التوبة، أن تترك المعصية لله جل وعلا، أن تقلع عن الذنوب وتعود إلى علام الغيوب، فما أكذب عبد يقول: يا رب تب عليَّ، وكأس الخمر ما زال في يده! وما أقبح شاب يهتف: يا رب غفرانك، وما زال مقيمًا على علاقة مع فتاة!

فلا يكون المرء تائبًا إلا بعد أن يتخلص من معصيته، ومن كل ما يمت لها بصلة، ويسد جميع الأبواب التي تؤدي إليها، أو يمكن أن توقعه فيها، ومعنى هذا:

❁ أن التائب عن علاقة محرمة مع فتاة، ولم يمزق خطاباتها، ويقذف بصورها في صندوق القمامة؛ هو كاذب في دعوى التوبة.

❁ أن الذي يتوب عن الذهاب للمراقص والملاهي، وتناول المحرمات، ولا زال على عهده بصحبة السوء التي أوقعته فيها؛ إنما هو كاذب في دعوى التوبة.

❁ أن التي تتوب عن محادثة الشباب على غرف الشات، ثم لا تزال تدمن الدخول إلى هذه الغرف؛ هي كاذبة في دعوى التوبة.

سؤال مُلِح.

(سئل الحارث المحاسبي: إذا الرجل التائب عاد إلى النظر المحرم، بعد أن تاب منه، فهل تصح له توبة، أم أنها توبة كاذبة؟ فأجاب قائلًا: ينقسم الناس في ذلك إلى قسمين:

---

(١) التوبة، الحارث المحاسبي، ص(٥٩).

الأول: صادق في توبته الأولى، لم يصر على ذنبه، وليس في نيته العودة إليه عند التوبة، ثم عرض له فيها بعد ذلك ذنب آخر، دون إعداد ولا ترتيب له، ولا علم بوقوعه، فارتكبه، سواء أكان ذلك الذنب هو الأول أو غيره من الذنوب، وحينئذٍ؛ يجب على المذنب أن يسارع بالتوبة لشروطها، وصحت توبته الأولى والثانية، مهما تكرر منه الذنب بشرط عدم الإصرار، وعدم التفكير والترتيب لارتكابه.

الثاني: تائب من ذنبه الأول على حب له، وتمنٍ لمقارفته مرة أخرى، لم يقتلع حب المحرم من قلبه، ثم عرض له الذنب؛ فارتكبه، فهذا مستهزئ بربه، وتسمى توبته توبة الكذّابين؛ لأنه يتوب بلسانه على نية العودة إلى الذنب بقلبه)[1].

(٢) اكتواء بنار الندم.

قال رسول الله ﷺ: ((**الندم توبة**))[2]، وأي إنسان أحق بالندم ممن عصى الله جل وعلا؟ فعلام يندم الإنسان إذا لم يندم على تفريطه في جنب ربه؟ ألا يندم على تسويد قلبه بالسيئات، وجنيه لأشواك الزلات؟

ألا يندم على إغضابه لربه وخالقه، وإسعاده لشيطانه وعدوه؟ ألا يندم على إنفاقه عمره ورأس ماله لا في مباح بغير فائدة؛ بل فيما يحرق شمعة حياته، ويعرضه لسوء الخاتمة؟ ألا يندم على أنه قابل الإحسان بالإساءة، والنعم بالكفران، والإمهال بالتمادي؟ ألا يندم على أنه قد يكون قد اطلع عليه ربه في تلك اللحظة، فقال له: اذهب، فلا غفرت لك؟ ألا يندم على أنه بذلك الذنب قد هان على ربه، ولو كان له كرامة عند خالقه لعصمه، فأي مخلوق أحق بالندم ممن هذا شأنه؟!

ماء العين من عين الندم.

فإذا تفجرت عين الندم في أرض القلب؛ فلا بد أن تفيض إلى أن تبلغ العين، حتى تجود بدمعها، فتسقط على خدين قد احمرَّا خجلًا من علام الغيوب، فإن سقطت من عينك هذه الدمعات؛ رفعك الله جل وعلا بها إلى مقام التائبين، وحينها فيا بشراك من رسولك ﷺ بالنجاة من دار البوار؛ ((**عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**))[3]، وفي رواية: ((**عينان لا تمسهما النار أبدًا؛ عين بكت من خشية الله...**))[4].

---

(١) التوبة، الحارث المحاسبي، ص(٥٩).

(٢) رواه ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، (٤٢٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (٤٢٥٢).

(٣) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، (١٥٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (١٦٣٩).

(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، (٥٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٤١١٣).



وأيما مسافر تائب لم تواته عيناه على البكاء عفوًا؛ فليتكلف البكاء إلى أن يرزقه الله هذه الدمعة الرافعة، كما هي وصية الصديق ﷺ: (من استطاع أن يبك فليبك، ومن لم يستطع فليتباك)[١].

أيها المسافر التائب، لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على ضياع ما مضى منه من طاعة؛ لكان خليقًا أن يحزنه ذلك حتى المات، فكيف بمن يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من عصيانه؟! هب أن المسيء قد غفر له، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟! أخي التائب، اهتف في جوف الليل، ناد في الأسحار، وارفع صوتك بالنداء:

يا رب إن ذنوبي اليوم قد كثرت	فما أطيق لها حصرًا ولا عددا
وليس لي بعذاب النار من قِبَل	ولا أطيق لها صبرًا ولا جلدا
فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي	ولا تذقني حرًّا للجحيم غدا

(٣) عزم أكيد لا يفله الحديد.

فلا بد للتائب من عزم أكيد، ويقين من حديد، أنه لن يعود إلى ذلك الذنب مرة أخرى، ما دام في صدره نفس يتردد، وهذه ثمرة طبعية لما وجده التائب الصادق من حرارة الندم، بعد أن زلت قدمه في أشواك الطريق.

أما من يتوب، وقد وقر في نفسه أنه سيعود؛ فهذا لم يتب بعد، فليرجع إلى توبته ليصححها، فإن هذا مظنة الرجوع إلى حمأة الذنب عن قريب، وقانا الله وإياك شر الخذلان.

فإن كثيرًا ممن يتوب توبة الكذابين، تراه دائم القول: إنني أعلم بأني سأعود، فلا تقل مثل هؤلاء، ولكن قل بثقة المطمئن إلى ربه: لن أعود بإذن الله، واستعن بمولاك، وإياك أن تعجز، كما يفعل بعضهم ممن يفت الشيطان في عضده، يوهن له نفسه ويخذِّله؛ فيقول له: إنك لن تستطيع؛ فيقول [أي صاحب التوبة الكاذبة]: لا ضير في أن أتوب ثم أعود، إن هذا الخاطر لا يجب أن يرد على تفكيرك أصلًا، وإنما تب وأنت تعزم يقينًا أنك لن تعود.

فإذا صح منك العزم أيها المسافر، على عدم العود للذنوب؛ فيبشرك أبو حازم رحمه الله فيقول: (عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أتته الفتوح)[٢]، فتوح من ربك بالتثبيت على الطريق، وذوق حلاوة الإيمان، والتوفيق لعمل الطاعات، ورفعة الدرجات.

وأما إن كانت الأخرى، فنحيلك على تقريع ابن القيم علَّك تفيق، فأنصت إليه وهو ينادي على كل خائر قد أثقله قيد الذنب فانحل عزمه: (يا مخنث العزم، أين أنت؟ والطريق تعب فيه آدم،

---

(١) الزهد، ابن المبارك، ص(١٨).

(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم، (٣/ ٤٩٨).

وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ)(١).

هلم إلى الله.

أخي الحبيب، وبعد أن علمت شروط التوبة المقبولة عند ربنا الرحمن، ففيم انتظارك؟ (هلم إلى الدخول إلى الله تعالى، ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر، بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار؛ وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب، ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب.

وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة، وليس هو عملًا بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة، تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه التوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته؛ أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكرتُ؛ نجوتَ وفزتَ بالراحة واللذة والنعيم.

وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها، وأعظم تحصيلًا لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت؛ فهي والله أيامك الخالية، التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلًا إلى ربك؛ بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر، في هذه المدة اليسيرة، التي لا نسبة لها إلى الأبد.

وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب؛ انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم، الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر على طاعته، ومخالفة الهوى لأجله)(٢).

لا يا قيود الذل

أيها المسافر التائب، أما إذ وفقك الله للتوبة إليه؛ فاحذر أن تقع مرة أخرى أسيرًا لقيود الذنوب، فإن للذنوب أغلالًا وقيودًا تقيد صاحبها، وأسرًا وجاذبية لمن أدمن عليها، تدفعه دومًا للالتصاق بها، والحنين إليها، والإصرار عليها، حتى يتعلق قلب العبد بها، ولا يستطيع فكاكًا من أسرها، إلا أن تداركه رحمة من ربه.

---

(١) الفوائد، ابن القيم، ص(٥٦).

(٢) الفوائد، ابن القيم، ص(١٠٤-١٠٥).

وإليك أيها الحبيب، هذه الوصايا الذهبية، التي تقيك شر النكوص على عقبيك، وتذهب من قلبك تعلقه بالذنب، بإذن من مقلب القلوب.

إياك ومحنة الفراغ.

فالفراغ والبطالة سبب مباشر للانحراف، فإذا اشتغلت بما ينفعك في دينك ودنياك؛ قَلَّت بطالتك، ولم تجد فرصة للفساد والإفساد، ونفسك أيها المسافر، إن لم تشغلها بالحق؛ شغلتك بالباطل.

أغلق أبواب المعاصي.

فكل ما من شأنه أن يثير فيك دواعي المعصية ونوازع الشر، ويحرك فيك الغريزة لمزاولة الحرام قولًا وعملًا، سواء أكان ذلك سماعًا أو مشاهدة أو قراءة، فابتعد عنه، واقطع صلتك به، كأشخاص يفتحون لك أبواب المعاصي، أو أصحاب يحركون فيك نوازع الشر، وهكذا النساء الأجانب عنك، والأماكن التي يكثر ارتيادها وتسهل فيها المعصية؛ كالنوادي والمقاهي والملاهي، وهكذا الابتعاد عن مجالس اللغو واللغط، والابتعاد عن الفتن، وضبط النفس فيها، ومن ذلك التخلص من آثار المعاصي وأدواتها؛ كخطابات أو صور، ومجلات أو شرائط.

الزم حاملي المسك.

فإذا صاحبت جليسًا صالحًا؛ حيَا قلبك، وانشرح صدرك، واستنار فكرك، وبصَّرك بعيوبك، وأعانك على الطاعة، ودلَّك على أهل الخير، وجليس الخير يذكرك بالله، ويحفظك في حضرتك ومغيبك، ويحافظ على سمعتك، ومجالس الخير تغشاها الرحمة، وتحفها الملائكة، وتتنزل عليها السكينة فاحرص على رفقة الطيبين المستقيمين، ولا تعد عيناك عنهم؛ فإنهم خير معين على طريق التوبة.

تجنب نافخي الكير.

فاحذر رفيق السوء، فإنه يفسد عليك دينك، ويخفي عنك عيوبك، يحسِّن لك القبيح، ويقبِّح لك الحسن، يجرُّك إلى الرذيلة، ويباعدك من كل فضيلة، حتى يُجَرِّئك على فعل الموبقات والآثام، والصاحب ساحب، وقد يقودك إلى الفضيحة والخزي والعار، وليكن أمام ناظريك أبدًا حديث رسولنا ﷺ: ((**مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة**))[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، (٥١٠٨).

تذكر عزة الانتصار.

فكلما همَّت نفسك باقتراف منكر أو حنَّت لمزاولة خطيئة؛ تذكر أنك إن أعرضت عنها، واجتهدت في اجتنابها، ولم تقرب أسبابها؛ فسوف تنال قوة القلب، وراحة البدن، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، وقلة الهم والغم والحزن، وصلاح المعاش، ومحبة الخلق، وحفظ الجاه، وصون العرض، وبقاء المروءة.

والمخرج من كل شيء، مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق لك من حيث لا تحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليك، وتيسير العلم، فضلًا عن أن تسمع الثناء الحسن من الناس، وكثرة الدعاء لك، وترزق الحلاوة التي يكتسبها وجهك، والمهابة التي تلقى لك في قلوب الناس، وسرعة إجابة دعائك، وزوال الوحشة التي بينك وبين الله، وقرب الملائكة منك، وبُعد شياطين الإنس والجن عنك.

هذا كله في الدنيا، أما في الآخرة فإذا مت؛ تلقَّتك الملائكة بالبشرى من ربك بالجنة، وأنه لا خوف عليك ولا حزن، تنتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، تنعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، وكان الناس في الحر والعرق؛ كنت في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله تبارك وتعالى؛ أخذ الله بك ذات اليمين مع أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤].

إنك إن استحضرت ذلك كله؛ فأيقن بالخلاص من الولوغ في مستنقع الرذيلة.

تذكر آلام الأشواك.

فكلما أردت مزاولة الحرام؛ ذكِّر نفسك أنك إن فعلت شيئًا من ذلك؛ فسوف تُحرَم من العلم والرزق، وسوف تلقى وحشة في قلبك بينك وبين ربك، وبينك وبين الناس.

وأن المعصية تلو المعصية تجلب لك تعسير الأمور، وسواد الوجه، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق بركته، وأنها سبب لظلمة القلب وضيقه، وحزنه وألمه، وانحصاره وشدة قلقه، واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعرِّيه من زينته.

استحضر أن المعصية تورث الذل، وتفسد العقل، وتقوي إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة، وتزرع أمثالها، وتدخلك تحت اللعنة، وتحرمك من دعوة الرسول ﷺ ودعوة المؤمنين، ودعوة الملائكة، بل هي سبب لهوانك على الله، وتُضعِف سيرك إلى الله والدار الآخرة، وأنها تطفئ نار الغيرة من قلبك، وتَذهب بالحياء، وتُضعِف في قلبك تعظيم ربك، وتستدعي نسيان الله لك، وأن شؤم المعصية لا يقتصر عليك؛ بل يعود على غيرك من الناس والدواب.



علامات القبول

إن للتوبة المقبولة الصحيحة علامات تعرف بها، وأمارات تدل على صدقها، تميزها عن التوبة الزائفة، وتبين من بكى ممن تباكى، والنائحة الثكلى من أختها المستأجرة، فاعرض نفسك عليها أيها المسافر التائب، لتختبر بها توبتك:

وعمل صالحًا.

علامة قبول التوبة: أن تكون بعد التوبة خيرًا مما كنت قبل أن تتوب؛ وذلك لأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى يبين لك تلك العلامة: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

فإن تائبًا لا يتبع سيئته بحسنة، ومعصيته بطاعة؛ فتوبته معلولة، ذلك أنه إذا اكتوى القلب بنار الندم على ما فات الإنسان من المكانة عند ربه بهذا الذنب؛ فإن ذلك يولد في قلبه حافزًا قويًّا على طاعة الله، ابتغاء محاولة التعويض، كما كان دأب السلف الميامين:

(فهذا عمر بن الخطاب شغله بستانه عن الصلاة فتصدق به، وكان ابنه عبد الله بن عمر على نفس الطريق، كان إذا فاتته صلاة الجماعة صلى إلى الصلاة التي تليها تطوعًا وتنفلًا، فتنشغل بإزالة آثار العدوان، وبناء ما انهدم من الإيمان، مستبشرًا بقول الله ﷻ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود: ١١٤].

مستأنسًا ببشارة النبي ﷺ: ((... **وأتبع السيئة الحسنة تمحها**...))[(١)]، تبدو نواجذك من شدة فرحك بقول واعظ الشام أحمد بن عاصم الأنطاكي: أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضى)[(٢)].

أنا الفقير إليك.

(ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة، تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، وقد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، فليس شيء أحب إلى الله تعالى من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، (١٩١٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (١٩٨٧).

(٢) هبي يا ريح الإيمان، خالد أبو شادي، ص(٥١).

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني، وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورَغِم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبه؛ فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه؛ فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها)[1].

فارس التوبة

نعم أيها المسافر، إن التائبين فرسان ولا شك، سلُّوا سيف العزيمة، وأشهروا رمح الإرادة، وامتطوا صهوة جواد العزم، يرفعون راية الجهاد ضد أعدائهم الأربعة، نفس أمارة بالسوء، وشهوات مغرية زائفة، وشيطان لحوح يغوي، ودنيا غرورة مزينة.

فلما صدقوا مع ربهم، وأتقنوا فن الضراعة للقوي العزيز؛ أمدهم القوي بقوته، وأسعفهم القدير بقدرته؛ فانتصروا في تلك المعركة الضارية، وانتصبوا شامات في جبين أمتنا، يدعون كل مفرط إلى أن ينضم إلى كتيبتهم، وينحاز إلى معسكرهم.

فإليك نموذجًا من أروع نماذج أولئك الفرسان، في أحداث واقعية، تذكرك ـ والله ـ بسلف هذه الأمة الأبرار، إنه حفيد ماعز بن مالك الأسلمي، ذلك الذي أسلمك من قبل المفتاح، والذي كانت معصيته سببًا في دخوله الجنان، قد قدَّر الله قصة هذا الفارس؛ لينتصب حجة على كل شاب، يسوف التوبة، يتعلل بكثرة الفتن، وإلحاح المغريات، فها هو شاب لعله في مثل سنك، لكنه صار بتوبته ـ نحسبه والله حسيبه ـ نجمًا في سماء الإيمان، فدونك أيها المسافر، وقصته:

حفيد الأسلمي في القرن العشرين.

يقول راوي هذه القصة[2]: كنت ذاهبًا في مهمة عمل إلى دولة عربية مجاورة، يستغرق مدة السفر في هذه المهمة يومًا واحدًا، ورجعت إلى المطار استعدادًا للإياب، وقد أنهكني التعب، لم أجد فندقًا نظيفًا، ولم أتعود السفر، دخلت فندقًا لأول وهلة، فإذا بالنساء والرجال، والفساد والعهر والدعارة، فقال لي رجل: ما الذي جاء بك إلى هنا ـ لما رأى من حسن مظهره، وصلاح سمته ـ فقال: هي ـ والله ـ أول مرة آتي هنا، وليس لي حاجة سوى مهمة تدوم يومًا واحدًا.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(١١٣-١١٤).

(٢) من محاضرة للشيخ سعد البريك بعنوان: التوبة الصادقة.

فقال: اخرج يا شيخ عن هذا المكان، فليس لائقًا بمثلك وأمثالك، قلت: كيف أفعل، والنهار يمضي، والليل مقبل؟ فمضيت إلى حديقة أجلس فيها، حتى بزغ الصباح، وأنهيت مهمتي، وعدت إلى المطار استعدادًا للإياب، وأنا في تعب ونصب من هذه الرحلة، التي ما ذقت فيها النوم إلا غفوات، فالتفت يمنة ويسرة، أبحث عن مكان أجلس فيه؛ فوجدت مكانًا أعد للصلاة في زاوية هذا المطار، وجدت مصلى صغيرًا، فذهبت، ونمت فيه نومًا عميقًا لأنني متعب.

وقبيل الظهر، استيقظت على بكاء شاب يصلي، فالتفت فإذا بشاب فوق العشرين ودون الثلاثين يصلي، ويبكي بكاء مريرًا، يبكي بكاء زوجة فقدت زوجها وهي تنظر، أو بكاء ثكلى فقدت ولدها من بين يديها، قال: فعدت، وقد أعياني التعب والنصب لنومي، ثم دنا ذلك الباكي بعد لحظات، وأيقظني للصلاة، ثم قال لي: هل تستطيع أن تنام؟! هل تستطيع أن تنام؟! قلت: نعم، قال: أما أنا فلا أقدر على النوم، ولا أستطيع أن أذوق طعمه، فقلت له: نصلي، وبعد الصلاة يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

بداية الحكاية.

أقبلت عليه بعد ذلك، قلت له: ما شأنك؟ قال: أنا من أسرة غنية، كل ما نريده مهيأ لنا من المال والملبس والمركب، لكنني مللت الروتين والحياة فأردت أن أخرج خارج البلاد، فأجلت النظر، هل أذهب إلى دولة يذهب إليها الناس؟! فخشيت أن يعرفوني فيفضحوني، فاخترت من بين دول عدة، وقررت الذهاب إلى هذه البلاد التي أنا وإياك في مطارها، حتى لا يعرفني أحد، وما كان همي فعل فاحشة، بل لعب وقضاء وقت ولهو وتفسح.

لحظة السقوط.

خرج وهذا همه، فلما وصل إذا برفقة سوء كانت قد أحاطت به، إحاطة السوار بالمعصم، فاطمأن إليها بادئ الأمر، وما زالوا معه من ملاهٍ إلى ملاهٍ، ومن لعب إلى عبث، حتى أتوا به رويدًا رويدًا إلى خطوات الزنى.

جروه إلى بدايات الزنى مع النساء، والفتيات الغانيات الساقطات، وما زالوا به حتى انفرد بواحدة منهن، وما زالت تلاعبه حتى زنى بها، ولما بلغ به الأمر مبلغه، وبلغت فيه الشهوة ذروتها، وأخرج ما في جوفه، إذا بلسعة حرارة تلسع قلبه، وتضرب ظهره، وسياطًا في فؤاده يجدها، فجعل يبكي، وقام عنها وهو يبكي، ويصيح: زنيت، وأول مرة أزني! كيف انتهكت هذا الجدار، وهذا السور المنيع من الفاحشة؟!! كيف وقعت في الزنى؟!! إني سأحرم حور الجنة.

حرارة المعصية.

انطلق به شأن غريب وأمر عجيب، فخرج من الباب باكيًا، وإذا بفاجر من القوادين ينتظره، فقال: ما لك تبكي؟ قال: لقد زنيت، أتعرف كيف؟! لقد زنيت، ماذا قال ذلك الماجن الداعر؟! قال: الأمر هين، خذ كأسًا من الخمر تنسى ما أنت فيه، قال: حتى أنتم ما زلتم بي حتى فقدت حور الجنة بفعل هذا الزنى! وتريد أن تحرمني خمر الجنة، تقدم لي هذا الكأس!

سبحان مقلب القلوب! قال ذلك القواد الفاجر: إن الله غفور رحيم، وقد نسي أن الله شديد العقاب، وأعد للمجرمين نارًا تلظى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٥].

تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، إذا رأت المجرمين سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا وشهيقًا، ثم أخذ الشاب يبكي من حرقة ما أصابه، ثم ذهب يهيم على وجهه ويقول لصاحبه الذي يحدثه في المطار: يا ليتهم أخذوا مالي! لقد مضوا بي إلى الزنى! لقد أفسدوا وكسروا ديني وإيماني! يقول: وفي تلك اللحظة التي انتهيت فيها من الزنى، ومنذ تلك اللحظة وأنا لا أزال باكيًا قلقًا حزينًا.

فقال صاحبنا هذا: أتلو عليك آية من كلام الله فلتسمع، فتلا عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

هذه أرجى آية أقرؤها عليك، وأراها لك، فأجاب ذلك التائب الذي بلغت التوبة في قلبه ذلك المبلغ، كلٌّ يغفر الله له إلا أنا، ثم رد عليه قائلًا: ألا تعلم أني زنيت؟! ثم سأل ذلك التائب صاحبه: هل زنيت أنت؟ قال: لا، واللهِ، قال: إذًا أنت لا تعلم حرارة المعصية التي أنا فيها، قال: وما هي إلا لحظات، حتى أعلن منادي المطار إقلاع الرحلة التي سأعود فيها إلى البلاد، فأخذت عنوانه وودعته، ثم انصرفت، وأنا واثق أن ندمه سيبقى يومًا أو يومين أو ثلاثة، ثم ينسى ما فعل.

قلق وحرقة.

فلما مكثت في بلدي قليلًا بعد وصولي إذا به يتصل بي، فواعدته ثم قابلته، فلما رآني انفجر باكيًا، وقال: واللهِ، مذ فارقتك وفعلت فعلتي تلك ما تلذذت بنوم إلا غفوات، ما قولي أمام الله يوم أن يسألني ويقول: عبدي زنيت؟ فأقول: نعم، زنيت وسرت بقدمي هاتين إلى الزنى، فقال صاحبنا لذلك التائب: هوِّن عليك، إن رحمة الله واسعة، إن الله غفور رحيم.

ثم قال ذلك الشاب التائب لصاحبنا هذا: ما جئتك زائرًا، ولكني جئتك مودعًا، ولعلي ألقاك في الجنة؛ إن أدركتني رحمة الله، أو رحمني الله بواسع رحمته، قلت: إلى أين تذهب؟ قال:



أسلم نفسي إلى المحكمة، وأعترف بجرم الزنى حتى يقام حد الله عليّ.

فقلت له: أمجنون أنت؟! أنسيت أنك متزوج؟! أنسيت أن حد الزاني المحصن؛ الرجم بالحجارة حتى الموت؟! قال: ذاك أهون على قلبي من أن أبقى زانيًا وألقى الله زانيًا غير مطهَّر بحد من حدوده، قال صاحبنا: أما تتقي الله؟ استر على نفسك، استر على أسرتك، استر على جماعتك، قال: كلهم لا ينقذونني من النار، وأنا أريد النجاة من عذاب الله.

قال: فضاقت بي المذاهب، وأخذته وقلت: أريد منك شيئًا واحدًا، فقال التائب: اطلب كل شيء إلا أن تردني عن تسليم نفسي إلى المحكمة، قال: غير ذلك أردت منك، وأريد أن توافقني عليه، قال: ما دام غير ذلك أوافقك، فقال صاحبنا له: امدد يدك، عاهدني بالله على أن تعمل وتصبر لما أقول، قال: نعم، فعاهدني، قال: فقلت: نتصل بالشيخ فلان من أكبر العلماء وأتقاهم لله، نحسبه والله حسيبه، حتى نسأله في شأنك، فإن قال: سلِّم نفسك إلى المحكمة، أنا الذي أذهب بك بنفسي، وإن قال: لا، فلا يسعك إلا أن تسمع وتطيع، قال: نعم.

فسألت الشيخ، فقال الشيخ: لا يسلم نفسه، وقال الشيخ الذي سئل عن تسليم الشاب نفسه إلى المحكمة: إن هذا الشاب قد أقلقه بالهاتف، واتصل به مرارًا يريد أن يقنعه أن يسلم نفسه، ويجادل ويلح، ويصر على تسليم نفسه، يقول له: اتق الله يا شيخ! فأنا أتعلق برقبتك يوم القيامة، وأقول: إني يا رب، أردت أن أسلم نفسي، ليقام حد الله علي، فردني ذلك الشيخ، فقال الشيخ: هذا ما ألقى الله به، وما أفتيتك إلا عن علم، قال: فلما قابلته، قلت: لماذا أزعجت الشيخ بهذا الاتصال، وأنا الذي قد كفيتك مئونة الاتصال به؟! فقال: أحاول فيه، لعلي أقنعه فيوافقني أن أسلم نفسي.

لبيك اللهم لبيك.

ثم قال الشاب التائب لصاحبنا: إني أودعك! قلت: إلى أين؟ قال: أريد الحج، وكان الحج وقتها على الأبواب، فطلبت منه أن يحج معنا، قال: لا، فظننته قد اختار رفقة يريد أن يحج معهم، قال: فحججت، وحج صاحبنا هذا، وأنا لا أعلم مَنْ رفقته، وفي ثاني أيام التشريق، رأيته من بعيد فناديته ـ وكان اسمه أحمد ـ: يا أحمد، يا أحمد، فالتفت إليَّ ورآني، ثم ولَّى هاربًا، فقلت: سبحان الله! ما الذي غيَّر قلبه عليَّ، لعلي أراه لاحقًا عندما نعود من الحج.

قال: فلما قضينا مناسكنا وعدنا إلى البلاد؛ قابلته، فسألته، فقال: قد حججت وحدي، وتنقلت بين المشاعر على قدمي، لعل الله أن ينظر إليَّ ذاهبًا من منى إلى عرفة، أو واقفًا على صعيد

عرفة، أو ذاهبًا إلى مزدلفة، أو ماضيًا إلى الجمرات، لعل الله أن ينظر إليَّ فيرحمني.

قلت له: لماذا هربت يوم ناديتك ثاني أيام التشريق؟ فقال: كنت مشغولًا بالاستغفار، أستغفر من الزنى الذي فعلت، قلت: هلا جئت معنا؟ يقول صاحبنا له: هلا جئت معنا، أو جلست معنا؟! قال: أنا أجلس معكم؛ أنتم أطهار، تريدون أن أدنسكم بالزنى! أنا رجل زانٍ، لا أستطيع أن أدنس مجالسكم! وكان التائب في حجه تارة يقول: أخشى ألا يغفر الله لمن حولي بشؤم ذنبي، وتارة يقول: لعل الله أن يرحمني بهؤلاء الجمع المسبحين الملبين.

اجلس بنا نؤمن ساعة.

قال: ثم إنه دامت الصلة والزيارات بيني وبينه، وما زلنا نقرأ في سير التائبين والصالحين، وكنا نتمعن ذلك ونتدبره، قال صاحبنا الذي يذكر لنا هذه الواقعة: ثم إن التائب هذا بعد الحج حفظ القرآن كله، وأصبح يصوم يومًا ويفطر يومًا، يقول: وفي ذات يوم كنا مجتمعين، نقرأ في سير الصالحين الأولين، فمرت بنا قصة الربيع بن خثيم؛ ذلك الشاب الذي لم يجاوز الثلاثين من عمره، شاب وسيم، قوي حيي، عالم بالله، خائف منه.

وكان في تلك البلاد التي فيها الربيع بن خثيم من الفساق والفجار الذين يتواطئون على إفساد الناس، وإفساد الأبرار والأطهار الصالحين، وقالوا: نريد أن نفسد الربيع بن خثيم، قالوا: ومن ذا الذي يفسده؟ قالوا: نأتي إلى غانية[1]، فندفع لها ما يكون سببًا في أن تغوي الربيع بن خثيم، فأتوا إلى أجمل من عرفوا من الغواني، وقالوا: لك ألف دينار، قالت: على ماذا؟ قالوا: أن يُفتنَ بكِ الربيع بن خثيم، فقبلت الغانية ذلك العرض.

ثم إنها تهيأت إلى الربيع، على طريقه في مكان خالٍ، ثم أسفرت عن زينتها، وتعرضت له في ساعة خلوة، فلما رأى بدنها في تلك اللحظة الخالية؛ صرخ بها قائلًا: كيف بك لو نزلت الحُمَّى بجسمك فغيَّرت ما أرى من لونكِ وبهجتكِ؟! أم كيف بكِ لو نزل ملك الموت وقطع منكِ حبل الوريد؟! أم كيف بكِ لو سألكِ منكر ونكير؟!

فصرخت صرخة عظيمة، ثم ولت هاربة، وتابت إلى ربها، وأصبحت من العابدات حتى لقبت بعابدة الكوفة، ثم قال أولئك المفسدون الذين سعوا في إفساد الربيع: لقد أفسدها الربيع علينا؛ قال صاحبنا هذا: فلما سمع التائب هذه القصة تأثر وبكى، وانفجر باكيًا، يقول: الربيع يردها، وأنا بقدمي أذهب لأزني بها! الربيع يردها، هذه التي اعترضت أمامه في الطريق، وأنا أذهب لأزني بها!

---

(١) والغانية هي التي استغنت بجمالها عن المحسنات والمجملات.

قال: ثم انصرف عن مجلسه باكيًا متأثرًا، حزينًا منكسرًا، ثم بعد ذلك قال صاحبنا: ورأيت أحد العلماء فأخبرته بقصته، وما كان منه من انكسار وإياب، وصيام وحفظ للقرآن وصلاة، فقال: لعل زناه هذا يكون سببًا لدخوله الجنة، ولعل بعض الآيات قد تصدق في مثله، وهي قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

باب الرجاء.

قال صاحبنا: لما سمعت هذه الآية عجبت، وقلت: كيف غفلت عن هذه الآية؟! فوليت إلى صاحبنا في قصر أبيه الفسيح، ذهبت إليه لأبشره، قالوا: إنه في المسجد، فذهبت إليه، فوجدته منكسرًا، تاليًا للقرآن، فقلت: عندي لك بشرى، قال: ما هي؟ فقلت له: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان ٦٨].

قال: فلما بلغت هذه الآية، فكأني أطعنه بخنجر في قلبه، قال: فمضيت تاليًا: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٩-٧٠].

قال: فلما أكملت هذه الآية، قفز فاحتضنني، وقبَّل رأسي، وقال: والله إني أحفظ القرآن كله، ولكن كأني أقرؤها أول مرة، لقد فتحت لي بابًا من الرجاء عظيمًا، وأرجو الله أن يغفر لي بها.

ثم أذن المؤذن، فانتظرنا إقامة الصلاة، وغاب الإمام ذاك اليوم، فقام مؤذن المسجد، وقدم صاحبنا التائب، فلما كبر وقرأ الفاتحة، تلا قول الله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فلما بلغ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾؛ لم يستطع أن يكملها، فركع ثم اعتدل، ثم سجد ثم اعتدل، ثم سجد ثم قام، فقرأ في الركعة الثانية الفاتحة، وأعاد الآية، يريد أن يكملها فلما بلغ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾؛ لم يستطع أن يكملها، فركع، وأتم صلاته باكيًا.

ابتسامة الرحيل.

ومضى على هذه الحال زمنًا إلى أن جاء يوم من الأيام، وكان يوم الجمعة، من عطلة الربيع عام (١٤٠٩هـ)، وبعد العشاء من ذلك اليوم اتصل بي رجل، فقال: أنا والد صاحبك أحمد، وأريدك أن تأتي إليَّ مسرعًا في أمر مهم، قال: فخرجت مسرعًا خائفًا، فلما بلغت باب قصره؛

إذا بالأب واقف على الباب فسألته: ما الخبر؟ فقال: صاحبك أحمد يطلب منك السماح، وهو يودعك إلى الدار الآخرة، لقد انتقل مغرب هذا اليوم إلى ربه، ثم انفجر الأب باكيًا.

يقول صاحبنا: وأنا أُهوِّن عليه، وبقلبي على فراق حبيبي وصديقي مثل الذي بقلب والده، ثم دخلنا، فأدخلني في غرفة كان صاحبي فيها مسجى مغطى، فكشفت عنه، فإذا بذلك الوجه يتلألأ نورًا.

كشفت وجهًا قد فارق الحياة، لكنه أنور وأبهى، وأبهج وأجمل منه قبلَ موته، كشفت وجهًا كله نور، ورأيت مُحيًّا كله سرور، فقال لي والده: إني أسألك بالله ما الذي فعله ولدي يوم أن سافر؟ منذ أن جاء من السفر وهو على حاله، قال صاحبنا هذا: إن ولدك يوم أن سافر، فَقَد عزيزًا عليه في سفره ذلك، نعم، فقد في تلك اللحظة إيمانًا عظيمًا، فقد في لحظة المعصية إخباتًا وإقبالًا، أما زوجة هذا التائب، فتقول: إن نومه كان غفوات، وما استغرق في نوم بعد رجوعه من السفر، كل ذلك وهم لا يعرفون حقيقة القصة.

قال صاحبنا: فسألت والده عن موته، فقال الأب: إن ولدي هذا كما تعلم، يصوم يومًا، ويفطر يومًا، وفي يوم الجمعة هذا، بقي عصر يومه في المسجد يتحرى ساعة الإجابة، وقبيل المغرب ذهبت إلى ولدي، فقلت: يا أحمد، تعال وأفطر في البيت، فقال: يا والدي، إني أحس بسعادة فدعني الآن، قال: يا ولدي، تعال لتفطر في البيت، قال: أرسلوا لي ما أفطر عليه في المسجد، قال: أنت وشأنك.

وبعد الصلاة قال الأب لولده: يا ولدي، هيا إلى البيت لتتناول عشاءك، فقال التائب أحمد: إني أحس براحة عظيمة الآن، وأريد البقاء في المسجد، ولكن بعد صلاة العشاء سآتيكم لذلك، فقال الوالد: أنت وما أردت، ولما عاد الأب إلى المنزل أحس بشيء يخالج قلبه، ويخاطر فؤاده، يقول الأب: أحسست بشعور غريب، فبعثت ولدي الصغير، فقلت: اذهب إلى المسجد، وانظر ما الذي بأخيك.

فذهب الولد وعاد صارخًا: يا أبت، يا أبت، أخي أحمد لا يكلمني، يقول الأب: فخرجت مسرعًا إلى المسجد، فوجدت ولدي أحمد ممددًا، وهو في ساعة الاحتضار، وكان يتكئ على مسند ليرتاح عليه في خلوته بربه واستغفاره وتلاوته، قال: فأبعدت عنه المسند وأسندته إليَّ، فنظرت إليه، فإذا هو يذكر اسم صاحبنا هذا الذي يقص علينا القصة، هذا الذي بلَّغنا الواقعة، وكأنه يوصي بإبلاغ السلام إليه.

ثم إن التائب أحمد هذا الذي توفي ابتسم ابتسامة في ساعة الاحتضار، يقول أبوه: والله، ما



ابتسم ابتسامة مثلها من يوم جاء من سفره، ثم قرأ في تلك اللحظة التي يحتضر فيها، وابتسم وهو يرتل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

قال: فلما بلغ هذه الكلمة فاضت روحه، وأسلم الروح إلى باريها، يقول الأب لصاحبنا هذا: والله لا أدري هل أبكي على حسن خاتمته فرحًا، أم أبكي على فراق ولدي وفلذة كبدي، ثم إن هذه القصة أصبحت سببًا في صلاح أسرته وإخوانه.

بلى قد آن يا رب

أيها المسافر إلى ربه، اسمع إلى الله تعالى، يستعتبني ويستعتبك، فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله استبطأ قلوب المؤمنين؛ فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وعن ابن مسعود ﷺ قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين)[1].

هكذا استبطأ الله قلوب خير خلقه بعد أنبيائه، وهم صحابة رسولنا الكريم ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، أرق الناس قلوبًا، وأقواهم إيمانًا، وأكثرهم خشية لله، وحبًّا له، وبذلًا لدينه، فما بالنا نحن؟

ما بالنا وقد فعلنا من المعاصي ما لا يحصره الحد، ولا يأتي به العد؟ لماذا نسوف التوبة؟ لماذا نؤخر الرجوع؟ إلى متى أيها الحبيب ما تتوب؟ وكأنك أخذت صكًّا من الله بالأمان، أو حصلت على عهد من ملك الموت ألا يقبض روحك قبل المتاب! أو لعلنا اغتررنا برحمة الله وستره، ولم نعلم أن الذي قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر: ٤٩]، هو الذي قال بعدها: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٥٠].

ألم تعلم أيها الحبيب أن رحمة الله لا تنال إلا بالتوبة والإحسان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٨/ ١٩).

فماذا تنتظر يا عبد الله؟! أتنتظر أن يفجأك الموت، وساعتها ستندم ولات حين مندم؟ أم تنتظر حتى تطلع الشمس من مغربها، وساعتها لا تنفع توبة؟ فبادر يا عبد الله، قبل فوات الأوان، أقبل على مولاك، وأنت ما زلت في دار العمل، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، ناج ربك، وقل يا رب:

أنا العبد الذي كسب الذنوبا ... وصدته الأماني أن يتوبا
أنا العبد الذي أضحى حزينًا ... على زلاته قلقًا كئيبا
أنا العبد الذي سطرت عليه ... صحائف لم يخف فيها الرقيبا
أنا العبد المسيء عصيت سرًا ... فما لي الآن لا أبدي النحيبا
أنا العبد المفرط ضاع عمري ... فلم أرع الشبيبة والمشيبا
أنا العبد الشريد ظلمت نفسي ... وقد وافيت بابكم منيبا
أنا الغدار كم عاهدت عهدًا ... وكنت على الوفاء به كذوبا
أنا المضطر أرجو منك عفوًا ... ومن يرجو رضاك فلن يخيبا

أخي الحبيب، ها هم العائدون إلى الله، تراهم سلكوا طريق النجاة، فعلام التقهقر والتردد؟ أعلنها من الآن توبة صادقة إلى الله، فُكَّ قيود المعاصي وتسلُّطَ الشيطان والنفس عليك، الجأ إلى الله، واعتصم به، وانطرح بين يديه، وقل له: آن الأوان يا رب أن أعود إليك، آن الأوان يا رب أن أرتمي على بابك، وأمرِّغ وجهي على أعتابك، اغسل بدموع الندم آثار الآثام.

فأقبل يا أخي، فإني وربي، لفي شوق إلى رفقتك في درب التائبين، فواهفاه عليك، متى أراك بين جموعهم؟ وواشوقاه إلى مرآك وأنت بين صفوفهم، فمتى أرى دموع الندم من عينيك تنهمر؟ ومتى تكسر القيود وتنتصر؟ إني بفارغ الصبر لذاك اليوم أنتظر، واثقًا من أنه قد حان، ولا زلت أناديك:

نوِّر حياتك بالهدى ... واسلك طريق التائبين
واعمر فؤادك بالتقى ... فالعمر محدود السنين
وأرض الإله بطاعة ... يسعدك في دنيا ودين
واحمل بصدرك مصحفًا ... يشرح فؤادك كل حين
ودع الغواية إنها ... لشقاء كل الغافلين
الدين مشكاة الحياة ... ينير درب الحائرين
عد للكريم بتوبة ... واركب جناح العائدين
تلقى السعادة كلها ... فلنعم درب الصالحين

تزود قبل الرحيل

وهذه المرة لن أصف لك الزاد بنفسي أولًا، بل سأدع المجال لتائب يروي لك تجربته العملية في العودة إلى الله، في قصته الرائعة التي سميتها لك بعنوان:

دمعة تائب

بسم الله الرحمن الرحيم

ساعة لعلها خير ساعات عمرك، جرِّب وستدعو لي

كنت أتابع محاضرة قيمة لأحد الدعاة إلى الله في التلفاز، كنت مشدودًا مع حديثه الشائق عن التوبة والتائبين، غير أن قضية محددة وردت في خاتمة الكلام، كانت أشبه بمسك الختام بالنسبة لي، هذه القضية استوقفتني طويلًا، بعد أن هزتني كثيرًا.

طرح هذا الداعية القيام بتجربة، وأخذ يؤكد أن لها ما بعدها في استجاشة الرغبة الشديدة في التوبة والإقبال على الله، وقررت أن أُقدِم على هذه الخطوة، وانفردت بنفسي في حجرتي، وأحضرت ورقتين وقلمًا، وكتبت في رأس الأولى: (**قائمة بنعم الله عليَّ**)، وكتبت في رأس الثانية: (**قائمة بما فعلت من معاصي وزلات وذنوب**).

وبدأت أكتب ما أتذكره من نعم الله عليَّ في ذات نفسي، وفيما حولي، مما تتعلق به حياتي، وشرعت أكتب وأكتب، وأنا أرى نعم الله تتوالد أمام عيني، كلما كتبت نعمة تولدت عنها نعمة تتعلق بها أو تقوم عليها.

ومما كتبته: نعمة العقل، والذاكرة، والقدرة على التحليل واستخلاص النتائج، والبراعة في عرض الأفكار، وحسن الكلام، والبيان الجيد المؤثر في كثير من الأحيان، ومجرد اللسان نعمة كبرى، ونعمة البصر، وعدم الحاجة إلى استخدام نظارة نعمة أخرى، ونعمة القراءة والكتابة... وهكذا.

واكتملت الورقة الأولى، ولم يكتمل شريط العرض لاستعراض نعم الله عليَّ، وسحبت ورقة أخرى، وواصلت تدوين النعم: نعمة الوجود أصلًا، نعمة الصحة والسلامة البدنية وكمال الأعضاء، نعمة العلم، والقدرة على التعليم، نعمة الشم والسمع والحركة.

وإذا بي أقف عاجزًا بعد أن أكملت الورقة الثانية مما أتذكره من نعم الله، ولقد رأيت نفسي أشبه بالغريق في خضم بحر عظيم، واكتفيت بما كتبت، وأنا أردد: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨].

وانتقلت إلى القائمة الثانية، وقلبي لحظتها قد بدأ يهتز، وهو مملوء بشعور الحياء من الله، وشرعت أكتب ما أتذكره مما عملت من الذنوب والمعاصي والزلات التي اقترفتُها، ولا أزال متلطخًا بكثير منها، وكذلك لم أنس أن أكتب ما ابتُليتُ به من التقصير في الإقبال على الفرائض والتكاسل عنها.

ومما كتبته: خطايا باللسان كثيرة؛ من غيبة، وسخرية من الناس، وكذب، وهذر قول في سفساف الأمور، وخطايا بالعين من نظر لا يحل إلى أمور لا يرضى عنها الله، ومتابعة لساعات لما ضره أكثر من نفعه، وخطايا بالأذن من سماع ما كرهه الله ولا يحبه كالاستماع إلى الأغاني، ومنها صور كثيرة من عقوق الوالدين... ونحو هذا كثير.

وكتبت وكتبت وكتبت، وإذا بهذه الأخرى تتوالد كأنها الدود، وهالني أني رأيت هذا الزخم من الهفوات والزلات والمخالفات، وشرعت أسحب ورقة أخرى لأواصل رحلة البحث، وإذا بي أمام قائمتين على طرفي نقيض تمامًا.

أما الأولى، فنعم منهمرة متدفقة تقوم عليها حياتي كلها، نِعَمٌ تغمرني من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي، ومن فوقي ومن تحتي، وفيمن حولي مما يتعلق به أمري، ومن لحظة ولادتي إلى يومنا هذا، أعطاني ربي كل ذلك بلا سؤال مني، لعلمه هو بها ينفعني.

وأما الثانية، فقائمة يطأطئ لها الرأس حياء، قائمة سوداء حالكة، كلها خطايا وذنوب وآثام، وزلات وهفوات، وقصور وتقصير وجرأة على الله تعالى.

ولم أشعر إلا بدمعات تنساب على خدي، وأنا أعيد النظر متأملًا هذه تارة وهذه تارة، وتذكرت ذلك الأثر الذي طالما سمعته: ((**إني والإنس والجن في نبأ عجيب، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إليهم نازل، وشرهم إليَّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعم، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليَّ بالمعاصي، وهم أحوج ما يكونون إليَّ**))[1].

عندها شعرت بموجة غامرة من الحياء تغمرني من الله سبحانه، بل شعرت بهيجان مشاعر حب جارف لله جل جلاله، وكيف لا يحبه قلبي وهو يتعامل معي على هذه الشاكلة العجيبة، وأنا أتعامل معه على هذه الشاكلة الغريبة.

ودخلت مع نفسي في سلسلة عتاب، ثم كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فقفزت إلى ذهني خاطرة جعلتني أجهش بالبكاء، تذكرت كيف أتعامل مع أبنائي، كيف أني أرى بأني قائم بأمرهم كله، ومن ثم فعليهم طاعتي وعدم مخالفتي، وأني لا أتحمل ما يفرط منهم من مخالفات،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٣٨٧)، بلفظ: ((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري))، وضعفه الألباني بهذا اللفظ في ضعيف الجامع، (٤٠٤٨)، وأما هذا اللفظ المذكور في المقال، فلم نقف على مثله.



فأنزل بأحدهم عقابًا يناسبه، بل أحيانًا بما لا يناسبه!! وإنما هي فورة غضب عارمة، وقلت لنفسي: فكيف لو عاملني الله بما أعامل به أبنائي؟!! كيف لو عاقبني على كل مخالفة أقع فيها؟!! إذًا لأهلكني منذ زمن، وأيقنت أن الله يحب عباده أشد من حب الوالدين لأبنائهما، فكيف لا يحبه العباد سبحانه أشد الحب وأعلاه وأعظمه.

حقًّا إنها ساعة خلوت فيها مع الله لأقوم بهذه التجربة، لكنها كانت خير ساعات عمري، لقد خرجت منها وقلبي يمور بمشاعر متباينة؛ الخوف والرجاء، والحياء والحب؛ الخوف من سوء الخاتمة بسبب هذه الأوزار والآثام والهفوات والزلات، والرجاء لأن من أنْعَم ابتداء سيُنعِم انتهاء، ومن أعطى بلا سؤال لن يبخل مع السؤال والإلحاح فيه.

والحياء من رؤية هذا الحشد من المعاصي والذنوب في مقابل تلك النعم التي لا تزال تتوالى، والحب لأنه يستحق أن يمتلئ القلب بحبه جل جلاله.

يا لها من ثمرات رائعة وجليلة أثمرتها تلك الجلسة مع الله، وقد قال علماؤنا: إن ذرة من أعمال القلوب تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح؛ فلله الحمد، رب العالمين، ثم قلت وأنا أبتسم: وهذه وحدها من أعظم نعم الله علي، وعندها خررت ساجدًا وأنا أبكي، وأنا أردد: املأ قلبي بحبك... املأ قلبي بحبك... املأ قلبي بحبك... يا رب... يا رب... يا رب)[1].

وإذًا، فعلى المسافر الحريص ألا يغادر هذه المحطة، حتى يتزود منها بزاد:

أولًا: إحصاء الذنوب كتابة من أول فترة البلوغ إلى الآن.

وذلك تمهيدًا لأن تتوب منها؛ فإن النفس إذا وضعت أمامها ذنوبها، فإنها تذل وتنكسر، وتسارع إلى التوبة، وإليك مجالات الذنوب التي تستطيع أن تحصي من خلالها ذنوبك الماضية:

(١) **معاصي الجوارح**: كمعاصي اللسان؛ من الغيبة والنميمة، والكذب والسخرية، والاستهزاء بالآخرين، ومعاصي العين؛ كالنظر إلى ما حرم الله، ومعاصي الأذنين، ومعاصي اليدين، ومعاصي القدمين، ومعاصي الفرج.

(٢) **معاصي القلوب**: كالتكبر على الآخرين، وحسدهم، والبغي والافتخار عليهم، والإعجاب بالنفس، والزهو والاختيال.

(٣) **التقصير في القيام بالحقوق**: كحق الوالدين، والزوجة، والأولاد، والأرحام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله.

(٤) **التقصير في الطاعات**: كتأخير الصلاة عن وقتها.

---

(١) من مقالة بعنوان: ساعة لعلها خير ساعات عمرك، نشرت على موقع صيد الفوائد على الإنترنت، www.saaid.net.

ثانيًا: محاولة إحصاء نعم الله عليك كتابة.

حتى تدرك مدى تقصيرك في حق ربك، وتصل إلى مرحلة اليأس من عَدِّ نعم الله تعالى عليك، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثم قارن بعدها ما بين خيره النازل إليك، وشرك الصاعد إليه، فلا تملك ساعتها إلا أن تدمع عينك، ويرق قلبك، ولسان حالك يقول: ((... **أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**))[1]، فإذا فاض الندم من قلبك، وسقط الدمع من عينك، فسارع إلى الخطوة الثالثة، وهي:

ثالثًا: صلاة التوبة.

وذلك بأن تقلع فورًا عن أي ذنب ارتكبته، ثم تنفذ وصية الحبيب ﷺ التي يبشرك فيها بقوله: ((**ما من عبد يذنب ذنبًا، فيتوضأ، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله بذلك الذنب؛ إلا غفر الله له**))[2]، ثم لتعزم بعدها عزمًا أكيدًا على عدم العود للذنوب، وبذلك تعيش خير يوم طلعت عليك فيه الشمس منذ ولدتك أمك.

رابعًا: اهجر في التو واللحظة رفاق السوء.

اقطع كل علاقاتك معهم، فإنهم قُطَّاع في طريقك إلى ربك، فإذا وفقك الله للتخلص منهم؛ فإن في هذا بشارة عُظمى بأن الله تعالى قد تقبل منك توبتك.

خامسًا: ليكن لك برنامج يومي من طاعة الله تعالى.

تُعوِّض فيه ما فاتك من بُعدٍ عن طاعة الله وتفريط في حقه، ضَمِّنه قراءة ما تيسر من القرآن، والأذكار الواردة عن النبي ﷺ، وشيئًا من قيام الليل، وصيام النهار، وليكن ذلك بتدرج وواقعية.

سادسًا: واظب على درس أسبوعي في بيت من بيوت الله.

حتى توثق صلتك بربك وبالصالحين من عباده؛ فإنهم رفقاء لك في درب الإيمان، فالزم صحبتهم، ولا تَعد عيناك عنهم.



(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، (٥٨٣١).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، (٤٤٠٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٥٠٧٠).

المحطة الثالثة

يحبهم ويحبونه

المحطة الثالثة: يحبهم ويحبونه

مرحبًا بحبيب الرحمن

أجل أيها الحبيب، أنت حبيب الرحمن، ألم ترجع إليه جل وعلا؟ ألم تنتصر على نفسك، وتنضم إلى كتيبة فرسان التوبة؟ فهو إذًا يحبك، كما أخبر هو ﷻ بذاته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فتعال بنا الآن يا حبيب الرحمن، لنقطع خطوة عظيمة ثالثة في الطريق إلى أعظم محبوب، وأجل مطلوب، ذلك رب العالمين، لنحطَّ رحالنا الآن في ركاب محبة الرحيم الرحمن.

منزلة المنازل

إن محبة الله تعالى لقلب العبد بمنزلة الروح للجسد، فمتى ضعفت وذبلت؛ انقطع سيره إلى الله تعالى، ولقد مر معنا ذلك القول القيم للإمام ابن القيم رحمه الله، يُبيِّن فيه تلك الحقيقة فيقول: (القلب في سيره إلى الله تعالى بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِمَ الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر)[1].

فبحسب قوة المحبة؛ تكون قوة السير إلى الله تعالى، ويكون الإقبال عليه؛ ولأجل ذلك كان سيد المحبين لله جل وعلا محمد ﷺ يقول: ((... **أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك...**))[2].

ولهذا كانت محبة الله هي (المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها؛ فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده؛ فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه؛ حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها؛ فعيشه كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها؛ فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها.

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٣٢٠-٣٢١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، (٣١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٢٣٥).

وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله، لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة؛ أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة!!)[1].

إنها أسمى علاقة في هذا الكون بأسره، علاقة الحب المتبادل بين العبد وربه، إنها العلاقة التي تربط بين الله جل وعلا وعباده المؤمنين، الذين آثروه على كل ما سواه، تلك التي صورها الله تعالى بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

(فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم، الحب، هذا الروح الساري اللطيف الرفراف، المشرق الرائق البشوش، هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبد من عبيده أمر لا يَقدِر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها.

أجل، لا يُقدِّر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي، الذي يعرف من هو الله، من هو صانع هذا الكون الهائل، من هو في عظمته، ومن هو في قدرته، ومن هو في تفرده، ومن هو في ملكوته، من هو، ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب، والعبد من صنع يديه سبحانه وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأول والآخر، والظاهر والباطن.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد، لا يدركها كذلك إلا من ذاقها، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا هائلًا عظيمًا، وفضلًا غامرًا جزيلًا؛ فإن إنعام الله على العبد، بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه؛ هو إنعام هائل عظيم، وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا فوق التعبير أن يصفه؛ فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين.

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب)[2]

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٦٤٧-٦٤٨).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ٩١٨)، بتصرف يسير.

هذه هي المحبة أيها المسافر، أن تحب الله تعالى بكل ذرة في كيانك؛ فلا يعود في قلبك مكان لسواه؛ فتنصبغ حياتك كلها في حركاتك وسكناتك، في كلامك وصمتك، بصبغة الحب لرب العالمين؛ فتصير كذلك العبد الذي وصفه الجنيد رحمه الله في إحدى لقاءاته الإيمانية مع جمع من إخوانه، يوم حاول كل منهم أن يصف العبد المحب لرب العالمين، فتكلم الجميع، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: (عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه؛ فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله، ولله، ومع الله)، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين[1].

لماذا نحب ربنا؟

وياله من سؤال عجيب؟! طرحه يغني عن إجابته، وهل يستطيع عبد ألا يحب ربه؟ كيف لا تحبه وكل ما ترفل فيه من النعم والخيرات هدية منه إليك بلا مقابل؟ وكيف لا يذوب قلبك محبة له، وهو الذي لا زال يوالي عليك نعمه وإحسانه، حتى قبل أن تولد، وكل ذلك أيضًا بلا مقابل؟

فقل لي بربك، كم دفعت لله تعالى وقد خرجت إلى الدنيا مسلمًا، لأب مسلم وأم مسلمة؟ تخيَّل أنك الآن قد ولدت على غير ملة الإسلام، تُرى: ماذا سيكون مصيرك وأنت تعيش في ظلمات الشرك والكفر ليل نهار؟ فكفى بنعمة الإسلام نعمة تغمر قلبك بحب ربك.

ولا يمكننا أن نحصر تلك الأسباب التي تدعونا إلى محبة ربنا جل وعلا، ولكن ضرب المثال يغني عن طويل المقال؛ فمن هذه الأسباب:

حقيقة العبودية.

فمحبة الله تعالى هي حقيقة العبودية، التي ما خلقنا الله جل وعلا إلا من أجلها، بل ولأجلها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وجعل الثواب والعقاب، وخلق الجنة والنار، والدنيا والآخرة؛ فما حقيقة العبودية إلا كمال الحب مع كمال التعظيم والذل للخالق المنعم، ومن ثَمَّ كان من أحب مخلوقًا مع الله، وجعل محبته في قلبه كمحبته لربه، أو أشد منه؛ واقعًا في مقام الشرك بربه عياذًا بالله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥].

وإذا كانت محبة الرسول ﷺ ـ وهو عبد الله ورسوله ـ لا تصح لعبد حتى يكون هو ﷺ أحب إليه من نفسه، وأهله، ووالده، وولده، والناس أجمعين؛ فما الظن إذًا بمحبة الخالق العظيم؟!.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٨٧٧).

سعادة القلوب بمحبة علام الغيوب.

القلب لا يفلح ولا يصلح، ولا يتنعم ولا يبتهج، ولا يلتذ، ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصَّل الإنسان جميع ما يلتذ به أهل الأرض من اللذات الحسية؛ لم يطمئن قلبه، ولم يسعد، ولم يجد للذة طعمًا، إلا في سكرة الشهوة المؤقتة، والتي سرعان ما تنقلب إلى شقاوة وتعاسة بعد انقضاء المعصية.

وها هم الغربيُّون، قد أطلقوا لأنفسهم عنان الشهوات إلى آخر مدى، ولكنك تجدهم مع ذلك في شقوة دائمة، وقد ازدادت عندهم معدلات الانتحار، والأمراض النفسية، والاضطرابات العصبية إلى درجة مهولة، وما ذاك إلا لأنهم أشبعوا بطونهم وفروجهم، ونسوا غذاء قلوبهم وأرواحهم من عبادة الله، ومحبته، والإنابة إليه، فإن:

(الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا، إن لم يحصل له؛ فهو في قلق واضطراب وانزعاج، بسبب فقد كماله الذي جعل له.

مثال: كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها؛ حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب، ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه، وإرادته ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والشوق إليه، والأنس به.

فإذا عدم القلب ذلك؛ كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، فالقلب لا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال؛ إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه، وإلهه ومعبوده، وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر؛ أنه لا طمأنينه له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين)[1].

توالي نعمه إليك، مع توالي الإساءة منك.

فإن القلوب قد جُبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا إليك من الله سبحانه، فإن إحسانه عليك في كل نفس ولحظة، بل أنت تتقلب في إحسانه في جميع أحوالك، بل إحسانه إليك أيها المسافر، لا يمكن حده، كمًّا ولا كيفًا.

(فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه،

---

(١) الروح، ابن القيم، ص(٢٦٦).

ولطفه وبره، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنك من جميع الوجوه، كل ذلك داعٍ للقلوب إلى تأله ومحبته، بل تمكينه عبده من معصيته، وإعانته عليها، وستره حتى يقضي وطره منها، وكلاءته وحراسته له، وهو يقضي وطره من معصيته، وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه؛ من أقوى الدواعي إلى محبته.

فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك؛ لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟!

فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه.

هذا مع غناه التام عنهم، وفقرهم التام إليه من كل وجه، وفى بعض الآثار يقول تعالى: ((**أنا الجواد، ومن أعظم مني جودًا وكرمًا؟ أبيت أكلأ عبادى في مضاجعهم، وهم يبارزوننى بالعظائم**))، وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: ((**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يُشرك به، ويُجعل له الولد، ثم هو يعافيهم، ويرزقهم**))[1].

وفى بعض الآثار: **يقول الله: ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرك إليَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي وأنت فقير إليَّ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح**)[2].

يعطيك بلا مقابل.

(فكل من تحبه من الخلق أو يحبك، إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والرب ﷻ يريدك لك، فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو معرض عنه، مشغول بحب غيره، وقد استغرق قلبه محبة ما سواه؟!

وأيضًا: فكل من تعامله من الخلق، إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولا بد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشرة أمثاله، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة، وهي أسرع شيء محوًا، وأيضًا:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾، (٦٨٣٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب لا أحد أصبر على أذى من الله، (٥٠١٦).

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٢٨٩).



فهو سبحانه خلقك لنفسه، وكل شيء خلق لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته، وبذل الجهد في مرضاته؟)[١].

لأنه هو الله.

فنحبه جل وعلا لأنه هو الله (أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، يعطي عبده قبل أن يسأله فوق ما يُؤَمِّله، يشكر على القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، ويسأله من في السموات والأرض، كل يوم هو في شأن، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تُغلِطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يسأل، ويغضب إذا لم يسأل.

يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه، وناداه إلى كرامته ورضوانه، فأبى؛ فأرسل رسله في طلبه، وبعث معهم إليه عهده، ثم نزل بنفسه وقال: ((**من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**))[٢].

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو؟! ولا يذهب بالسيئات إلا هو؟! ومن يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟! فهو أحق من ذُكر، وأحق من شُكر، وأحق من حُمد، وأحق من عُبد، وأنصر من ابتُغي، وأرأف من مَلَك، وأجود من سُئِل، وأوسع من أَعطَى، وأرحم من استُرحِم، وأكرم من قُصِد، وأعز من التُجِئ إليه، وأكفى من تُوُكِّل عليه.

أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتوبة التائب، من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه، في الأرض المهلكة، إذا يئس من الحياة ثم وجدها، وهو الملك فلا شريك له، والفرد فلا ند له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أُطِيع، ويُعصى فيغفر، ويعفو وحقه أُضِيع.

فهو أقرب شهيد، وأجلُّ حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف.

وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه[٣]، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشَبَهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت

(١) الداء والدواء، ابن القيم، ص(٣٣٦-٣٤١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، (١٠٧٧).

(٣) أي: إدراك كيفية صفاته سبحانه وتعالى.

له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات[١] وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[٢]»[٣]:

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ولو ملك الوجود بأسره

إنه يحبك فهل تحبه؟

وإذا كانت كل تلك الأسباب السابقة الداعية إلى محبة ربنا لم تؤجج بعد محبته سبحانه في قلبك؛ فخذ إذًا هذا السبب المفاجئ، تحبه لأنه يحبك!! نعم أيها الحبيب، أنت لم تخطئ قراءة الكلمة، أقسم بالله غير حانث ـ إن شاء الله ـ أنه يحبك، ما زلت لا تصدق؟! خذ مني إذًا هذه الدلائل الساطعة على حبه لك؛ ليذوب قلبك بعدها حبًا لمولاك:

يعاملك بفضله لا بعدله.

فميزان العدل أن يعطيك على الحسنة مثلها، وعلى السيئة مثلها، أما ميزان فضل الله الذي يعاملك به، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ لأنه يحبك.

والسيئة عليك بواحدة، وهي أسرع شيء في المحو، فبدمعات قليلة تمحو آلاف الخطايا، وبطاعات يسيرة تنسف أطنان الذنوب، فهو سبحانه يشكر اليسير من العمل، ويمحو الكثير من الزلل، لأنه يحبك، واسمع إلى هذه الوثيقة التي تثبت حبه لك إثباتًا دامغًا، إذ يقول في الحديث القدسي: ((**إذا هَم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هَم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة**))[٤].

لقاء خطوة واحدة منك تقترب بها إليه، يجازيك عنها خطوات، بل إذا أتيته تمشي؛ فإنه يأتيك هرولة: ((**إذا تقرب إليَّ العبد شبرًا؛ تقربت إليه ذراعًا، وإذا تقرب مني ذراعًا؛ تقربت منه باعًا، وإذا أتاني مشيًا؛ أتيته هرولة**))[٥]، تأمل قوله: (أتيته هرولة) لماذا؟! ماذا سيكسب منك؟! ماذا سيربح عنك؟! حاشاه، إنما يريد مصلحتك، ويحب لك كل خير، لماذا؟ لأنه يحبك.

وانظر إلى هذه الهدايا العظيمة، والعطايا الجزيلة على الطاعات اليسيرة: ((من مشى إلى

---

(١) سبحات وجهه: أنواره.

(٢) كما جاء في حديث مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله ﷺ: إن الله لا ينام، (٢٦٣).

(٣) الداء والدواء، ابن القيم، ص(٣٣٦-٣٤١).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، (١٨٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، (٦٩٨٢).

صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة، ومن مشى إلى صلاة تطوع فهي كعمرة نافلة))[١]، ((ما جلس قوم يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه؛ إلا ناداهم منادٍ من السماء: قوموا مغفورًا لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات))[٢].

((من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله؛ كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة))[٣].

((من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر))[٤]، ((بينما رجل يمشي بِطَريق، وجد غضن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له، فغفر له))[٥].

يعرض فضله عليك.

ولأنه جل وعلا يحبك؛ فإنه ينزل كل ليلة إلى هذه السماء الدنيا، نزولًا يليق بجلاله وكماله، ينادي عليك، تُرى: لماذا ينادي عليك الرب الجليل، أيها العبد الفقير؟ هل لينال منك مصلحة؟ هل لتعطيه شيئًا؟

حاشاه سبحانه، فبيده خزائن السماوات والأرض، ما نقص منها شيء منذ أن خلق الخلق، اسمع إلى نداء الكريم؛ لتعرف لِمَ ينزل ويناديك: قال رسول الله ﷺ: ((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يَبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟))[٦].

فيا لكرم الكريم الحليم، يعرض عليك فضله، وأنت عنه غافل، يتنزل إليك، وينادي عليك، وأنت على سرير الغفلة نائم، ولا تزيده غفلتك عنه إلا حلمًا وسترًا وعفوًا، وبعد هذا تظن أنه لا يحبك؟!

كير الابتلاء.

(ولأنه يحبك؛ ابتلاك!! ألم تسمع قول النبي ﷺ: ((من يرد الله به خيرًا يُصِب منه))[٧].

❁ ابتلاك؛ ليرفع درجاتك في الجنة؛ لأنه يحبك.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٧٤٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٦٥٥٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده، (١٢٠٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (١٥٠٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، (١٠٧٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٤٨٥٧).

(٥) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، (٤٧٤٤).

(٦) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، (١٠٧٧).

(٧) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، (٥٢١٣).

- ابتلاك؛ لتفيق من غفلة نفسك، وتصحو من سكرة ذنبك؛ لأنه يحبك.
- ابتلاك؛ ليمحو خطيئة تدخلك النار؛ لأنه يحبك.
- ابتلاك؛ لتعرف نعمة الله عليك وتعلم قدرها فتشكرها؛ وهذا لأنه يحبك.
- ابتلاك؛ لتتواضع له وتدعوه سحرًا فيستجيب لك فورًا، ويعوضك عن فقد نعمة واحدة نعمًا أخرى كثيرة؛ لأنه يحبك.
- ابتلاك؛ لتدخل الجنة من أوسع أبوابها وأسهل طرقها.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠])(١).

وفقك وحرم غيرك.

فكل ركعة ركعتها، إنما هي بتوفيقه، وكل تسبيحة قلتها، إنما هي بتسديده، ولولا أنه يحبك؛ ما تحركت منك شعرة لطاعته، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

بل إن مطالعتك لهذا الكتاب الذي بين يديك، يحدثك عن ربك؛ إنما هو بتوفيقه لك وحده ﷻ، من غير سابق استحقاق ولا بذل منك، ألا يدل كل ذلك على حبه لك؟! يريدك أن تتوب، يريدك أن تعود: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

فسبحانه من إله كريم ودود، لا يقدر العبد مهما فعل على أن يوفيه حق شكر نعمة واحدة من نعمه.

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

عصمك وخذل غيرك.

ولأنه يحبك؛ فقد عصمك من ذنوب لا حصر لها، بغير سابق إحسان منك، فإن قلت: كيف وذنوبي عظيمة؟ قلت لك: ذنب الكفر أعظم من جميع ذنوبك، ومع ذلك فقد عصمك منه، بل كم من أنواع الفواحش التي تربو على الحصر، عافاك منها أرحم الراحمين بكرمه ومنِّه، وأوقع غيرك فيها بخذلانه نفسه، كل هذا بلا مقابل، كل هذا لأنه أيضًا يحبك.

الأنداد الثمانية

أيها المسافر إلى ربه، هذا حب الله لك، فكيف حبك له؟! قد تسارع في الإجابة بلا وعي، وتقول إنك تحبه حبًّا شديدًا، ولا شك أننا جميعًا نحب الله ﷻ، وإلا لم نكن مسلمين أصلًا، ولكن

(١) هبي يا ريح الإيمان، خالد أبو شادي، ص(١٢٧-١٢٨).



السؤال هو: هل تحب ربك بما يكفي ليخرجك عن دائرة التقصير في محبة المنعم القدير ﷻ؟!

إذا أردت أن تعرف الإجابة على هذا السؤال؛ فدونك وهذه الآية، التي نصبها الله ﷻ امتحانًا على طريق محبته، يبين صحة أو زيف ما معك من بضاعة المحبة: قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

أرأيت أيها المؤمن، تأمل في هذه الأشياء الثمانية، الآباء، الأبناء، الإخوان، الأزواج، الأسرة أو العائلة أو القبيلة، الأموال، التجارة أو العمل، المساكن والبيوت.

كل هذه المحبوبات الثمانية، فالأصل أنها مباحة، بل الإنسان مجبول على محبتها، بل ولا بد له من تحصيلها؛ ليتمكَّن من مزاولة حياته الطبيعية على هذه الأرض، وعمارتها كما أمر الله، ولكن السؤال هو: من هو المحبوب الأول في قائمة أولوياتك؟

هل هو الله؟ فتصبح بذلك محبتك لله ﷻ، أم هو أحد هذه الثمانية، فتصير بذلك من الذين اتخذوا مع الله أندادًا، وتصبح كاذبًا في دعوى محبتك لربك، تمامًا كذلك الذي يصفه لك الإمام ابن القيم رحمه الله فيقول: (فكل من قدَّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله؛ فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه؛ فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه)[1].

ومعنى ذلك:

✿ إذا دعاك صديقك إلى معصية الله فأجبته؛ فأنت كاذب في دعوى المحبة.

✿ إذا تعارض عملك مع طاعة الله، فقدَّمتَ عملك وعصيت ربك؛ فأنت كاذب في دعوى المحبة.

✿ إذا قصَّرت في طاعة الله أو خدمة دينه أو نُصرته خوفًا من الناس؛ فأنت كاذب في دعوى المحبة.

✿ إذا أمرك أحد الوالدين أو كلاهما بمعصية لله وأطعته؛ فأنت كاذب في دعوى المحبة.

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ص(٦١).

ومعنى ذلك أيضًا:

✿ إذا طردت صديق السوء من حياتك لأنه يعيقك عن ربك؛ فأنت محب صادق لله.

✿ إذا رهَّبك الناس من طريق الطاعة والالتحاق بركب الصالحين؛ فضربت بكلامهم عرض الحائط، وعجلت إلى ربك ليرضى عنك؛ فأنت محب صادق لله.

✿ إذا تركت عملًا حرامًا يَدِرُّ عليك الألوف أو الملايين، لقاء ما عند الله؛ فأنت محب صادق لله.

قوافل المحبين

هل تعرف من هم؟ إنهم أناس تمكن حب ربهم من قلوبهم، فما عاد فيها مكان لغيره، إلا إذا قرَّبهم من حبيبهم، إنهم سادات المؤمنين، الذين سبقوا والله، سبقًا بعيدًا، لمَّا باعوا أنفسهم لخالقها، ولم تساكن قلوبهم محبة لشهوة أو لذة.

باعوا محبة الدنايا، واشتروا محبة واهب العطايا، عكفت قلوبهم على محبوبهم الأعلى؛ فباعوا من أجله كل محبوب ومرغوب، رفع لهم علم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ فأجابوا بلواء ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾؛ فحصدوا جزاء (ربح البيع، ربح البيع)، فمنهم:

سيد المحبين لرب العالمين.

أتدري من هو؟ إنه محمد ﷺ، عبد الله ورسوله، وحبيبه وخليله، كانت حياته كلها حبًّا لربه جل وعلا، ما أعظمها من كلمات تخرج من فم الحبيب، يناجي بها ربه ومولاه، فيقول: ((... **أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك...**))[1].

وها هو ﷺ يقوم من الليل، حتى تتفطر قدماه الشريفتان، ثم يُسأل عن ذلك: يا رسول الله، تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: ((**أفلا أكون عبدًا شكورًا**))[2].

وتأمل في هذا الموقف الجليل، الذي يفيض بالحب من الخليل لخليله، ترويه الصديقة بنت الصديق، أمنا عائشة رضي الله عنها، فعن عطاء قال: (دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقال عبد الله بن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: قام ليلة من الليالي، فقال: ((**يا عائشة، ذريني أتعبد لربي**))، قالت: قلت والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام، فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، (٣١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٢٣٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب قيام النبي ﷺ الليل، (١٠٦٢).

وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟! لقد نزلت عليَّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:** ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]))(١).

وتبلغ ذروة مظاهر حب النبي ﷺ لربه في ساعة رحيله، بأبي هو وأمي ﷺ، إذ أتاه ملك الموت يخيره بين الخلود في الدنيا والجنة، وبين أن يلحق بربه في الرفيق الأعلى، فعلا صوت الخليل وكله شوق لخليله: ((... **بل الرفيق الأعلى**...))(٢).

فيك وفي رسولك يا رب.

(عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبد الله بن جحش، قال يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله تعالى، فخلوا في ناحية، فدعا سعد ﷺ فقال: يا رب، إذا لقينا العدو غدًا، فلَقِّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده(٣)، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله.

ثم قال: اللهم ارزقني غدًا رجلًا، شديدًا بأسه، شديدًا حرده، فأقاتله ويقاتلني، ثم يجدع(٤) أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت لي: يا عبد الله، فيم جدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: كانت دعوته والله خير من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقة في خيط)(٥).

أمنية محب.

(حشد الخليفة الصديق أبو بكر ﷺ ومن بعده عمر بن الخطاب ﷺ خيرة صحابة الرسول ﷺ في جيوش الفتح التي وجهها إلى الشام، ومن أولئك الصحابة الأبرار عبد الله بن حذافة السهمي، رسولُ رسولِ الله ﷺ إلى كسرى.

وفي إحدى المعارك التي خاضها جيش الإسلام على مشارف (قيسارية)، تكاثرت من حول عبد الله بن حذافة صناديد الروم؛ فاقتادوه أسيرًا إلى معسكرهم، وجيء به وقد أثقلته

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، (٦٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلًا، (٣٣٩٤).

(٣) حرده: غضبه.

(٤) يجدع: يقطع.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٣/ ٣٢٤).

القيود بين يدي ملك الروم، قال الملك ـ وقد عرف مكانة عبد الله في المسلمين ـ: يا عبد الله، هل لك أن تتنصَّر فأقربك مني، وأزوجك ابنتي؟ فيجيبه الصحابي المؤمن: فإن لم أفعل ذلك؟ قال الملك: الآن ترى.

وأمر به فصلب، وأمر أحد رماته المهرة، فرماه بسهمين أحاطا برأسه، عن يمين وعن شمال، ثم اقترب الملك من عبد الله وقال: أفلا تجيبني إلى ما دعوتك فتنجو بنفسك؟ فيجيبه عبد الله: فإن لم أفعل؟ فيتمعر وجه الملك غضبًا ويقول: الآن ترى، ويأمر بقدر يغلي فيه الماء حتى يفور، ثم يؤمر بأسير فيقذف في القدر؛ فإذا عظامه تلوح، ثم يقترب من عبد الله بن حذافة فيقول: أفلا تجيبني إلى ما دعوتك فتنجو بنفسك؟ فيجيبه عبد الله: فإن لم أفعل؟ فيشتط الغضب بملك الروم، ويأمر بقذفه في الماء المغلي.

فيقتاده الجند، فيبكي عبد الله؛ فتنفرج أسارير الملك عن بسمة شامتة، وقد ظن أن عبد الله يبكي جزعًا من الموت، فيصيح الملك في جنده أن يردوه، ويسأله شامتًا: أما كنت في غِنى عن كل هذا، لو أنك أجبتني إلى ما عرضته عليك؟ فيجيبه الصحابي المؤمن: كأنك أيها الملك، ظننتني بكيت جزعًا من الموت، لا والله، ما بكيت جزعًا من الموت؛ ولكنني تذكرت أن ليس لي إلا نفس واحدة، أموت بها هذه الميتة في سبيل الله، وقد كنت أتمنى أن تكون لي ألف نفس تموت هذه الميتة في سبيل الله، لا كما ظننت.

ويعجب الملك بشجاعة عبد الله، ويميل إلى أن يطلق سراحه، فيقول له: أتُقبِّل رأسي؛ وأطلق سراحك؟ فيجيب الصحابي المؤمن: لا أفعل، فيقول الملك: وأطلق معك ثمانين أسيرًا من قومك؟ ويطرق الصحابي هنيهة، فلا يرى بأسًا أن يقبل رأس ملك الروم إذا كان في ذلك فَكُّ إخوانه من الأسرى، فيقول للملك: أما هذه فنعم، ويتقدم منه، ويُقبِّل رأسه، ويعود عبد الله بن حذافة السهمي والأسرى إلى المدينة، فلما رآه عمر بن الخطاب ﷺ احتضنه وقبل رأسه.

وكان أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يمازحون عبد الله فيقولون له: تُقبِّل رأس عِلج[1] يا عبد الله؟ فيجيبهم: ما ضرني ما فعلت، وقد أطلق الله بتلك القبلة ثمانين أسيرًا من المسلمين، رضي الله عن عبد الله بن حذافة وأرضاه)[2].

(١) العلج: هو القويّ الضخم من الكفار.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، (٢/ ٢٩٦)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، (٢/ ١٥).

عندما يخلو المحب بحبيبه.

ولأجل أنهم يحبونه؛ صارت أشهى الأوقات إلى قلوبهم عندما يتنزل الرب إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، يبادلون ربهم حبًّا بحب، فاستنشق ـ يا أخي ـ بعضًا من عبير حبهم، حتى تلحق بركبهم.

(قال سعيد بن المسيب: إن الرجل ليصلي بالليل، فيجعل الله في وجهه نورًا، يحبه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط، فيقول: إني لأحب هذا الرجل، وقيل للحسن البصري رحمه الله: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلو بالرحمن فألبسهم من نوره)[١].

(وعن جعفر بن زيد رحمه الله قال: خرجنا غزاة إلى (كابول) وفي الجيش صلة بن أشيم العدوي رحمه الله، قال: فترك الناس بعد العتمة، أي: بعد العشاء، ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا نام الجيش كله؛ وثب صلة فدخل غيضة[٢]، فدخلت في أثره، فتوضأ ثم قام يصلي، فافتتح الصلاة.

وبينما هو يصلي إذ جاء أسد عظيم، فدنا منه وهو يصلي؛ ففزعت من زئير الأسد؛ فصعدت إلى شجرة قريبة، أما صلة، فوالله، ما التفت إلى الأسد، ولا خاف من زئيره، ولا اكترث به، ثم سجد صلة، فاقترب الأسد منه، فقلت: الآن يفترسه، فأخذ الأسد يدور حوله، ولم يصبه بأي سوء.

ثم لما فرغ صلة من صلاته وسلم، التفت إلى الأسد، وقال: أيها السبع، اطلب رزقك في مكان آخر، فولَّى الأسد، وله زئير تتصدع منه الجبال، فما زال صلة يصلي، حتى إذا قرب الفجر، جلس فحمد محامد لم أسمع بمثلها، إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار.

ثم رجع رحمه الله إلى فراشه [أي: ليوهم الجيش أنه ظل طوال الليل نائمًا]، فأصبح وكأنه بات على الحشايا[٣]، ورجعت إلى فراشي، فأصبحت وبي من الكسل والخمول شيء الله به عليم)[٤].

(وأخذ الفضيل بن عياض رحمه الله بيد الحسين بن زياد رحمه الله، فقال له: يا حسين، ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول الرب: كذب من ادعى محبتي، فإذا جَنّه الليل نام عني، أليس كل حبيب يخلو بحبيبه؟!! ها أنا ذا مطلع على أحبائي إذا جنَّهم الليل، غدًا أقر عيون أحبائي في جناتي)[٥]، (وكان العبد الصالح عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله يفرش له

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص(٦١).

(٢) وهي الشجر الكثيف الملتف على بعضه.

(٣) وهي الفرش الوثيرة الناعمة، والمراد هنا أنه كان في غاية النشاط والحيوية.

(٤) حلية الأولياء، أبو نعيم، (٢/ ٢١٦).

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١٤/ ٤٢٤).

فراشه لينام عليه بالليل، فكان يضع يده على الفراش، فيتحسسه، ثم يقول: ما ألينك!! ولكن فراش الجنة ألين منك، ثم يقوم إلى صلاته)(١).

الأنوار العشرة(٢)

أيها المسافر إلى ربه، إذا كان قد بلغ منك الشوق إلى محبة ربك مبلغه، وقد عقدت العزم على بلوغ مراتب المحبين؛ فدونك والطريق، يصفه لك ابن القيم رحمه الله، في أسباب عشرة جالبة لمحبة الله تعالى، تُوصِل العبد لأن يكون محبًا لربه، محبوبًا منه، وتلك والله، غاية الأماني، فتمسك يا أخي بهذه الأنوار العشرة على طريق منزلة المنازل، جعلني الله وإياك من أهلها:

النور الأول: (قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أُريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه).

ولا عجب أن يكون القرب من كتاب الله من أعظم الأسباب الموجبة لمحبة الله؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يحب أحدًا إلا إذا عرف صفاته وأفعاله، فكذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ لا يمكن لمحبة الله تعالى أن تتقد جذوتها في قلب عبد، حتى يعرف ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.

ومن ثَمَّ؛ كان القرآن أعظم وسيلة جالبة لمحبة الله؛ لأنه أعظم مصدر يعرف العبد بربه، الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ذي الجلال والإكرام، الغفور الرحيم، الودود المنعم، الكريم الجواد، كما أن إدمان مطالعة العبد لكتاب الله تعالى تُنشيء تلك الصلة الإيمانية، التي تربط العبد بربه، فكأن الله تعالى يكلمه آناء الليل والنهار من خلال تلك الرسائل القرآنية، التي تذخر بها آي الذكر الحكيم.

قال الحسن بن علي ﷺ: (إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار)(٣).

إنه لشيء عظيم باهر ـ لو تأملنا ـ أن يخص الإله الكبير المتعال مالك الملك سبحانه، هذا الإنسان الضعيف، الصغير القليل بخطابه وكلامه، وأن يمنحه شرف التحدث إليه ومناجاته.

ولهذا فإن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ، استجلب محبة الله بتلاوة سورة واحدة، وتدبرها ومحبتها، هي سورة الإخلاص التي فيها صفة الرحمن ﷻ، فظل يرددها في صلاته، فلما سئل عن ذلك؛ قال: (لأنها

(١) رهبان الليل، العفاني، (١/ ٤٠٩).
(٢) راجع: شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدَّها الإمام ابن القيم، عبد العزيز مصطفى.
(٣) التبيان في آداب حمله القرآن، النووي، ص(٢٨).



صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها)، فقال النبي ﷺ: ((**أخبروه أن الله يحبه**))[١].

فلا بد لمن أحب القرآن أن يحب الله؛ لأن صفته فيه، ويحب رسول الله ﷺ؛ لأنه هو المبلغ له، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله)[٢].

النور الثاني: (التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها موصلة إلى درجة المحبوبية بعد المحبة).

وأداء الفرائض هو أفضل ما يُتقرب به إلى الله، وحسب مؤديها على تمامها فضلًا أنه موعود بالفلاح، فوزًا بالجنة ونجاة من النار؛ كما نقل لنا ذلك طلحة بن عبيد الله؛ أن رجلًا من أهل نجد جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس، يُسمع دويُّ صوته، ولا يُفقَه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: ((**خمس صلوات في اليوم والليلة**))، فقال: هل عليَّ غيرها؟

قال ﷺ: ((**لا، إلا أن تطوع، وصيام رمضان**))، فقال: هل عليَّ غيرها؟

قال ﷺ: ((**لا، إلا أن تطوع، والزكاة**))، فقال: هل عليَّ غيرها؟

قال ﷺ: ((**لا، إلا أن تطوع**))، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: ((**أفلح إن صدق**))[٣].

ولئن كان مثل هذا الرجل قد وقَّع وثيقة حبه لربه بحفاظه على الفرائض بلا زيادة ولا نقصان؛ فإن لله تعالى عبادًا قد أبت نفوسهم إلا أن تكون الأعلى في منازل القرب وذرى الإيمان؛ فلم تصبر نفوسهم إلا أن ترقى إلى حيازة النوافل بعد إدمان الفرائض، وبذلك نالوا درجة المحبوبية بعد منزلة المحبة، وشتان شتان ما بين الدرجتين! فأين من يحب ربه ممن يحبه ربه؟!

واسمع إلى الودود الكريم، يُبيِّن لك بُعد ما بين المنزلتين ـ وفي كلٍّ خير ـ في ذلك الحديث القدسي البهيج: ((**... وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**))[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ، (٦٨٣٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (٨٦٥٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، (٤٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (٦٠٢١).

النور الثالث: (دوام ذكره على كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر).

نعم، فذكر الله تعالى هو شعار المحبين لله، المحبوبين منه جل وعلا، قال رسول الله ﷺ: ((**إن الله ﷻ يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه**))(١).

فصاحب الأذكار مذكور عند الله بالثناء والمحمدة والمحبة، وموعود بالمغفرة والأجور العظيمة، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

النور الرابع: (إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى).

فعند غلبات الهوى يَبين من بكى ممن تباكى، ويتمايز من يحب ربه حقًّا وصدقًا ممن يدَّعي ذلك قولًا ولفظًا وهو بعيد عن حقيقة المحبة بعد المشرقين؛ فالمحب الصادق لله إذا تعارض هواه مع مراد ربه، فإنه لا يتردد لحظة واحدة في أن يمضي ما يرضي الله تعالى على هوى نفسه وشهواتها، وانظر كيف قارن الله تعالى بين هذين الصنفين؛ فقال عز من قائل: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

فمن نهى نفسه عن غيها وهواها، ومنعها مرادها إيثارًا لمحاب الله على محاب نفسه؛ فهذا هو الموعود بسكنى الجنان في الدارين، فأما جنة الدنيا؛ فهي محبة الله ورضوانه، وأما جنة الآخرة؛ ففي دار النعيم الخالد والسعادة الأبدية، بجوار أرحم الراحمين، مع النبي ﷺ وحزبه.

وسر ذلك أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما ترك المحب ما تحبه نفسه وتهواه من أنواع الشهوات، إيثارًا لمحاب ربه على محاب نفسه؛ فكان أن عوضه الله تعالى بمحبة أعظم محبوب وهو الرب الودود سبحانه ﷻ.

النور الخامس: (مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لا محالة).

فكلما ازدادت معرفة العبد بأسماء ربه وصفاته، وآثاره في نفسه وفي الكون من حوله، ازداد بربه تعلقًا، وامتلأ قلبه بمحبته سبحانه، والإنسان منا إذا عرف أخًا له بجميل الخصال

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، (٣٧٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (٣٧٩٢).

وحلو الفعال؛ وقعت محبته في قلبه، فكيف بمن له صفات الكمال والجلال؟! كما يقرر ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: (فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله وحقائق أسمائه، هي الجاذبة للقلوب إلى محبته وطلب الوصول إليه؛ لأن القلوب إنما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه، وتشتاق إليه وتلتذ بقربه وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته)[١]، وهذا المعنى قرره الحسن البصري رحمه الله بعبارة وجيزة؛ عندما قال: (من عرف ربه؛ أحبه)[٢].

وهذا الحب إذا تَمَكَّن في القلب، وتَمَلَّك الفؤاد؛ فإن المؤمن معه لا تكون له محبة مستقلة، ولا بغضاء منفصلة، فهو إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، ولا يبقى لنفسه حظ عند نفسه، بحيث ينشغل بالمنافحة عنها، والتفرغ من أجلها، إلا في حدود ما يحب الله، وتظل تلك المحبة في تصاعد حتى يستكمل بها العبد إيمانه، كما وصفه النبي ﷺ بقوله: ((**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**))[٣].

ولا دليل يُعرِّف بالله تعالى أكمل من كتابه الكريم؛ إذ هو سبحانه أعرف بنفسه، وتلك خلاصة تجربة الإمام ابن القيم التي لخصها لك بقوله: (وأنت إذا تدبرت القرآن... أشهدك مَلِكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع.

يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع...)[٤].

النور السادس: (مشاهدة بره وإحسانه، وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته).

فإن العبد أسير الإحسان كما يقولون، فالإنعام والبر واللطف، معاني تسترق مشاعره، وتستولي على أحاسيسه، وتدفعه إلى محبة من يسدي إليه النعمة، ويهدي إليه المعروف، ولا منعم على الحقيقة ولا محسن إلا الله؛ هذه دلالة العقل الصريح والنقل الصحيح، فلا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة كلها سواه.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، (٨٦٠).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص(٣٣٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، (٤٠٦١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٤٦٨١).

(٤) الفوائد، ابن القيم، ص(٧١).

إن العقل الذي يحتم مع النقل محبة الله تعالى لأجل إحسانه وآلائه ونعمه، هذا العقل نفسه يقف عاجزًا عن إحصاء هذه الآلاء وتلكم النعم؛ فكيف يحصيها في طباق السماء وفي آفاق الأرض؟ كيف يحصيها في سحابات النهار، أو ساعات الليل؟ كيف يعدها في نفسه أو في الكون المسخر له؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

النور السابع: (وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات).

وإن كانت الألفاظ لا تسع التعبير عن حقيقة هذا المعنى الإيماني الرفيع؛ فإن من أعظم ما يتضمنه ذلك الانكسار خشوع القلب، وخضوعه لخالقه ومولاه، بحيث يستشعر العبد ذلة العبودية أمام ربه وخالقه، فالخشوع على هذا حال عامة؛ تعرض لكيان الإنسان في أوقات قربه من الله ﷻ.

فهي مطلوبة منه في عامة أمره؛ لا في حال الصلاة فحسب، وإن كانت الصلاة موضعًا لظهور الخشوع، والعبد أقرب ما يكون إلى ربه فيها، فالخشوع روحها وأحسن آدابها، وهي مظنة حضوره واستدعائه، فالخشوع أثناء الصلاة لا ينفك عن خشوع القلب خارجها، أما أن يكون المرء غافلًا طوال الأوقات، ويريد أن يكون خاشعًا في الصلوات؛ فهيهات هيهات، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

فهم حققوا الإيمان أولًا؛ فخشعت لذلك قلوبهم ثانيًا، وظهر أثر ذلك في صلاتهم، وفي بقية صفاتهم المذكورة في الآيات، قال مجاهد: (الخاشعون هم المؤمنون حقًّا)[(١)].

وقد كان للسلف في الخشوع بين يدي الله أحوال عجيبة، تدل على ما كانت عليه قلوبهم من صفاء ونقاء، (كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، إذا قام في الصلاة، كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جذع حائط.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد؛ ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه لفي المسجد يصلي فما التفت، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا)[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي، (١/ ٣٧٥).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص(٢٦).



لقد كان هؤلاء يحيون صلاتهم؛ فتحيا قلوبهم بها، وتقر أعينهم فيها، وكيف لا تقر العيون بالصلاة الحية، ورسول الله ﷺ يقول: ((... **وجعلت قرة عيني في الصلاة**))(١)؟

النور الثامن: (الخلوة به وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة).

وياله من سبب رقيق رقراق، يعد من أبلغ الأدلة على تمكن محبة الرب من قلب عبده، وما أعظم هذا العبد المبارك الذي ترك لذيذ المنام على وثير الفراش، وقام يصف أقدامه في ثلث الليل الآخر، طلبًا لرضا ربه، والتماسًا لبركة وقت النزول الإلهي، وتعرضًا لمغفرة الله وإعانته، ومن ثَمَّ؛ استحق أن يذكر الله أمثاله بقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٦- ١٧].

وقد تلا رسول الله ﷺ هاتين الآيتين لمعاذ ﷺ في معرض جوابه عن سؤاله: أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فجاء في الحديث قوله ﷺ: ((... **ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾**))(٢).

إن أصحاب الليل هم بلا شك من أهل المحبة، بل هم من أشرف أهل المحبة؛ لأن قيامهم في الليل بين يدي الله تعالى يجمع لهم جُلَّ أسباب المحبة التي سبق ذكرها، والتي سيأتي ذكرها.

- فهم لا يقرءون القرآن فحسب، بل يقومون به متدبرين خاشعين.
- وهم في قيامهم يتقربون بأقرب النوافل إلى الله.
- وهم في تجافيهم عن المضاجع لذكر الله بالليل، أحرى أن يكونوا ذاكرين له في النهار.
- ومجافاتهم تلك دالة على إيثارهم لمحاب الله على محاب أنفسهم.
- وهم في قيامهم يطالعون بقلوبهم أسماء الله وصفاته، ويتقلبون في رياضها.
- وهم يتفكرون أثناء تلاوتهم في آلاء الله، وآيات بره وإحسانه، وإنعامه على سائر الخليقة.
- ثم إنهم لا يقومون هذا المقام بين يدي الله تعالى في جوف الليل والناس حولهم يغطون؛ إلا وهم منكسرون بقلوبهم له سبحانه.

---

(١) رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، (٣٨٧٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (٣٩٤٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل الصوم، (٢٥٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٦١٦).

۞ وتوفيقهم لهذا القيام؛ توفيق للخلوة بربهم وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

فأهل القيام بذلك قد ذهبوا بنحو ثلاثة أرباع أسباب المحبة، فمن وُفِّق للقيام بين يدي الله ﷻ في هذا الوقت الشريف؛ فذاك الشرف، ومن لا فلا أقل من أن يكون من المستغفرين في هذا الوقت، فالله تعالى يذكر في عباده الصالحين من وصفهم بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

فهم يقضون هذه اللحظات في طاعة مستغفرين، ولكن الاستغفار إذا كان مع طاعة من الطاعات كان أدعى للقبول، والصلاة أحسن الطاعات؛ ولهذا قال العلماء: كلما كان هذا الاستغفار في صلاة فهو أحسن.

النور التاسع: (مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك).

هنا جعل الإمام ابن القيم رحمه الله محبة المحبين الصادقين ومجالستهم من موجبات محبة الله، ولا عجب في هذا، فإن البشرى بذلك قد زُفَّت إلى أهل المحبة عبر وحي يوحى.

قال رسول الله ﷺ: ((**قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين في**))[1]، وروى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: ((**أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مَدْرَجته[2] ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال هل لك من نعمة تربُّها عليه[3]؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**))[4].

النور العاشر: (مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ).

وأعظم تلك الحوائل بلا شك أشواك الذنوب التي حدثناك عنها من قبل؛ فإن القلب هو محل محبة الله تعالى ومعرفته، ولا يمكن أن تجتمع طهارة المحبة وصفاء المعرفة بأدناس المعاصي وأوساخ الآثام، وإذا كان البيت الذي فيه كلب أو صورة لا تدخله الملائكة، فكيف بالقلب المسكون بكلاب الشهوات وصور المحرمات أن تدخله أنوار محبة الله ومعرفته؟!

ومن ثَمَّ؛ فقد اشتدت عناية رسول الله ﷺ بسلامة القلب، حتى كان من دعائه ﷺ: ((...

---

(١) رواه أحمد في مسنده، (٢١٠٢١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٤٣٣١).

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) تربها: تقوم بإصلاحها وتنهض بسببها.

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله، (٤٦٥٦).

وأسألك قلبًا سليمًا))(١)، بل قد يصل الأمر بالمعاصي إلى أن تميت القلب بالكلية عياذًا بالله، كما قرر لنا ذلك عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب — وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب — وخير لنفسك عصيانها

فلا خيار للإنسان إذا أراد محبة الله؛ في أن يسعى للمحافظة على قلبه سليمًا من كل آفة وعيب وفساد ينافي ما يحبه الله، فالقلب إذا فسد؛ فلن يجد المرء فائدة فيما يصلحه من شئون دنياه، ولن يجد نفعًا أو كسبًا في أخراه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

تزود قبل الرحيل

على المسافر الحريص، ألا يغادر هذه المحطة، قبل أن يتزود منها بزاد عملي يوصله إلى محبة ربه، ولا يكفي هنا برنامج عملي لمدة أسبوع، بل نقترح عليك أيها الحبيب، أن تبدأ بمشروع **(أنوار المحبة العشرة)** لمدة عشرة أسابيع، تجعل أساسها رسالة (شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدَّها الإمام ابن القيم) للشيخ عبد العزيز مصطفى، تأخذ كل أسبوع سببًا واحدًا، تقرأ شرحه بعناية، ومن الممكن أن تناقشه وتتدارسه مع أحد إخوانك، ثم تضع جدولًا عمليًّا خلال هذا الأسبوع لتنفيذ هذا السبب.

ثم في الأسبوع الثاني تفعل نفس الشيء مع السبب الثاني، ولكن تطبق معه السبب الأول، وهكذا تستمر في ذلك التطبيق التراكمي للأسباب العشرة، حتى يأتي عليك الأسبوع العاشر، وأنت تطبق الأسباب العشرة، وفي هذه الأثناء ليكن ديدنك دعاء النبي ﷺ: **((... أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك...))**(٢).



(١) رواه أحمد في المسند، (١٦٤٩١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٣٢٢٨).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، (٣١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٢٣٥).

قلب يحب محمدًا

أيها المسافر إلى ربه، وإذ تحدثنا عن محبة الرحمن؛ فلا بد أن نكملها بالحديث عن محبة خليل الرحمن، إذ لا تصح محبة العبد لربه إلا بمحبته لنبيه ورسوله وحبيبه محمد ﷺ، وبها تتم لك الخطوة الثالثة في طريق السير إلى ربك ﷻ، وكيف لا! وقد قرن الله تعالى محبته بمحبة نبيه ﷺ في آية الأنداد الثمانية، التي قال فيها تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

أتدري أيها المسافر، من هو محمد ﷺ؟ إنه رسول رب العالمين، المبعوث رحمة للناس أجمعين، الرحمة المهداة والنعمة المسداة، محمد رسول الله ﷺ، إنه النبي المعصوم، النبي الخاتم الذي نزل عليه الوحي، وهبط عليه جبريل، ووصل إلى سدرة المنتهى، له الشفاعة الكبرى، والمنزلة العظمى، والحوض المورود، والمقام المحمود، واللواء المعقود.

أعظم الرجال، وأجَلُّ الناس، وأفضل البشر، وأزكى العالمين، إنه من أرسله ربه رحمة للعالمين، وحسرة على الكافرين، وحجة على العالمين أجمعين؛ فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمره ونهيه.

وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه فلا يُذكر إلا ذُكر معه، كما في التشهد والخطب والتأذين، وافترض على العباد طاعته ومحبته، وتعظيمه وتوقيره، وسد إلى جنته جميع الطرق، فلم يفتح لأحد من أمته إلا من طريقه، فلم يزل ﷺ قائمًا بأمر ربه، لا يرده عنه راد، مشمرًا في مرضاته، لا يصده عنه صاد؛ إلى أن أشرقت الدنيا برسالته ضياء وابتهاجًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

نياشين السماء

واعلم ـ أيها المسافر ـ علم اليقين، أن الله ﷻ ما خلق مخلوقًا في هذا الكون منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة أكرم عليه، ولا أحب لديه، ولا أشرف عنده من حبيبنا محمد ﷺ؛ فقد حباه الله ﷻ بخصائص وشمائل ومعجزات، لو كان لبشر واحدة منها لأصبح شامة في جبين التاريخ، فكيف وقد اجتمعت كلها في الحبيب المجتبَى محمد ﷺ؟ وهاك جملة من تلك الشمائل؛ لتفخر بأنك من أتباع أحمد ﷺ:



أولاً: في الحياة الدنيا.

آيته العظمى في كتابه.

فالقرآن كلام الله تعالى، المنزل على رسوله الأمين ليكون نذيرًا للعالمين، وهو الذي سماه الله تعالى نورًا مبينًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤].

وهو الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**))(١)، لذا؛ فالقرآن الكريم أخص وأعظم معجزات المصطفى ﷺ، بل هو أعظم معجزات الأنبياء بلا منازع.

خاتم النبيين.

قال ﷻ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده؛ فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس)(٢).

بل قد نص النبي ﷺ على ختم النبوة به، وذلك في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**))(٣).

إرساله إلى الثقلين.

وهذه من خصائصه الكبرى ﷺ، حيث كان النبي يرسل إلى قومه خاصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وأما نبينا محمد ﷺ، فقد قال الله تعالى له: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وكما أنه ﷺ مرسل إلى الناس عامة، فهو أيضًا مرسل إلى الجن، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قوله ﷺ: بعثت بجوامع الكلم، (٦٧٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٥٠١).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، (٣٢٧١)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب كونه ﷺ خاتم النبيين، (٤٢٣٩).

حيث يدخل في العالمين عالم الجن مع الإنس، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-٢].

الخصائص الخمس.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((**أُعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تَحِل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة**))(١).

النداء الشريف.

فناداه ربه بأحب أوصافه وأسمى كمالاته، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ [الأحزاب:٤٥]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة: ٤١].

قال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: (وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره من الأنبياء والمرسلين، بل إن كلًّا منهم نودي باسمه، فقال تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠].

﴿يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥].

وأما الآيات التي ورد فيها ذكر اسمه ﷺ؛ إنما كان ذلك من باب الإخبار وليس من باب النداء، كقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩])(٢).

أقسم الله تعالى بحياته.

قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض)(٣)، وقال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: (والإقسام بحياة

---

(١) رواه البخاري، كتاب التيمم، باب: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ ﴾، (٣٢٣).

(٢) بداية السول في تفضيل الرسول، العز بن عبد السلام، ص(٣٧).

(٣) تفسير ابن كثير، (٢/ ٥٧٥).



المقسَم بحياته يدل على شرف حياته، وعزتها عند المقسِم بها، ولم يثبت هذا لغيره ﷺ)[١].

تولى ربه الدفاع عنه.

كان الأنبياء السابقون عليهم السلام يتولون الدفاع عن أنفسهم، مما رماهم به المكذبون من أقوامهم من السفه والضلال، قال تعالى فيما أخبر عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا له: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠]، فقال عليه السلام دفاعًا عن نفسه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٦١].

وقول قوم هود عليه السلام له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: ٦٦]، فقال نافيًا عن نفسه ما نسبوه إليه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٦٧].

وأما نبينا محمد ﷺ فقد تولى ربه الرد عنه؛ حين رماه المشركون بالجنون والضلال وقول الشعر، قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٢٩ - ٣٤].

وفي هذا من التشريف لنبينا محمد ﷺ ما تحار فيه العقول، وتزداد به محبة الرسول ﷺ.

إمامة الأنبياء في بيت المقدس.

لم تقتصر فضائل نبينا محمد ﷺ بالنسبة لإخوانه الأنبياء على تقدمه عليهم في الذكر، بل قد جمع الله تعالى له جماعة منهم فصلى بهم إمامًا، تأكيدًا لفضله وشرفه عليهم.

وها هو ﷺ يحدثنا عن هذا المشهد الجليل بنفسه فيقول: ((**لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثلها قط.**

قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضَرْبٌ جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي.

وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي؛ أشبه الناس به صاحبكم، يعني نفسه فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه، فالتفت إليه، فبدأني بالسلام))[٢].

---

(١) بداية السول في تفضيل الرسول، العز بن عبد السلام، ص(٣٧).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح عيسى ابن مريم والمسيح الدجال، (٢٥١).

انشقاق القمر آية له.

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

عن ابن مسعود ﷺ قال: ((**انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا**))[١].

حجر يسلم على خير البشر.

عن جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إني لأعرف حجرًا بمكة، كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**))[٢]، قال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: (ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك)[٣].

أخذ الميثاق له من جميع الأنبياء بالإيمان به ونصرته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول بعد هذا كله؛ فعليكم الإيمان به ونصرته، وإذا كان هذا الميثاق شاملًا لكل منهم؛ تضمن أخذه لمحمد ﷺ من جميعهم، وهذه خصوصية ليست لأحد منهم سواه)[٤].

ثانيًا: في الحياة الآخرة.

سيد الناس وأولهم.

روى الإمام أحمد من حديث أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إني لأول من تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وأُعطَى لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر، وإني آتي باب الجنة فآخذ بحلقها، فيقولون: من هذا؟ فأقول: أنا محمد، فيفتحون لي، فأدخل، فإذا الجبار مستقبلي ﷻ، فأسجد له، فيقول: ارفع رأسك يا محمد، وتكلم يُسمع منك...**))[٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾، (٤٤٨٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه، (٤٢٢٢).

(٣) بداية السول في تفضيل الرسول، العز بن عبد السلام، ص(٣٩-٤٠).

(٤) الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ابن كثير، ص(٢٨٦).

(٥) رواه أحمد في مسنده، (١٢٠١٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٥٧١).



له اللواء المحمود.

قال الله تعالى لصفيه وخليله محمد ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

أخرج البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه يقول: ((**إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا**[١]**، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود**))[٢].

سيادة وفتح وغفران.

ففي حديث الشفاعة يقول ﷺ: ((... **فيأتون محمدًا ﷺ، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي العرش، فأقع ساجدًا لربي ﷻ، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي.**

ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء للناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحِمْير، أوكما بين مكة وبصرى))[٣].

أول شفيع في الجنة وأول من يقرع بابها.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تابعًا**))[٤]، وفي لفظ آخر: ((**أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة**))[٥].

أكثر الأنبياء تابعًا.

وعن عمران بن حصين ﷺ، قال رسول ﷺ: ((**عُرِضَت عليَّ الأمم فجعل النبي يمر معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رُفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟! أمتي هذه؟ قيل: هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد عظيم قد ملأ الأفق، ثم قيل: انظر ها هنا، وها**

(١) جثًا: جمع جاثٍ، وهو الذي يجلس على ركبتيه، فتح الباري، ابن حجر، (٨/ ٤٥٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، (٤٣٤٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، (٤٣٤٣).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: أنا أول من يشفع في الجنة، (٢٨٩).

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: أنا أول من يشفع في الجنة، (٢٩٠).

هنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب...))[١].

شهادة أمته على الأمم يوم القيامة.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت الرسالة؟ فيقول: نعم، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قال: عدلًا؛ ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]))[٢].

قال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: (نزَّل الله تعالى أمته منزل العدول من الحكام، فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد، فجحدت الأمم بتبليغ الرسالة؛ أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغتهم، وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء)[٣].

أول من يجوز الصراط من الرسل بأمته.

عن أبي هريرة ﷺ وفيه: ((... يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا؛ فليتبعه: فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم، فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته...))[٤].

اختصاص النبي ﷺ بمنزلة الوسيلة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلُّوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة؛ حلت له الشفاعة))[٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوي غيره، (٥٢٧٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، (٦٨٠٣).

(٣) بداية السول في تفضيل الرسول، العز بن عبد السلام، ص(٦٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود، (٧٦٤).

(٥) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، (٥٧٧).

إعطاؤه الكوثر.

قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

روى البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: (أن عائشة رضي الله تعالى عنها سألها أبو عبيدة[١] عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، قالت: (هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم)[٢].

إنه على خلق عظيم[٣]

ولو لم تكن للنبي ﷺ كل تلك النياشين الربانية والمنح الإلهية، التي خصه بها ربنا تبارك وتعالى، والتي تمثل براهين ساطعة كالشمس في رابعة النهار على صدق دعوته، وسماوية رسالته؛ لكان في خلقه الكريم أبلغ معجزة، تقوم في قوة دليلها مقام كل تلك الآيات الباهرات.

فمن يراه ﷺ أو يستنشق شذى سيرته العطرة، ليحسب أن أخلاق الدنيا بأسرها بكل ما فيها من قيم عالية، ومثل سامية قد جسمت في دم ولحم؛ فغدت كائنًا حيًّا يمشي على قدمين؛ ممثلة في هذه الشخصية المعجزة، ولم لا، وقد كان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض، بعد إذ أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى قال ربنا يبين تلك الحقيقة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

فماذا نقول في وصف هذا الكائن المعجز؟! فهو أحسن الناس خلقًا، وأسدهم قولًا، وأمثلهم طريقة، وأصدقهم خبرًا، وأعدلهم حكمًا، وأطهرهم سريرة، وأنقاهم سيرة، وأفضلهم سجايا، وأجودهم يدًا، وأسمحهم خاطرًا، وأصفاهم صدرًا، وأتقاهم لربه، وأخشاهم لمولاه، وأعلمهم بالأمة، وأوصلهم لرحمه، وأزكاهم منبتًا، وأكرمهم مُحتدًا، وأشجعهم قلبًا، وأثبتهم جنانًا، وأمضاهم حجة، وخيرهم نفسًا ونسبًا، وخلقًا ودينًا، فسبحان من تولى تربيته وتنشئته على عينه.

وهاك بعض القطرات من رحيق سيرته الفواح ليغزو حب رسول الله ﷺ قلبك؛ حتى يكون أحب إليك من نفسك، ووالدك وولدك، والناس أجمعين.

الصادق الأمين.

فهو أصدق من تكلم، كلامه حق وصدق وعدل، لم يعرف الكذب في حياته جادًّا أو مازحًا، بل حرم الكذب، وذم أهله ونهى عنه، وقال ﷺ: ((**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق؛ حتى يكتب عند الله صديقًا...**))[٤].

---

(١) ابن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، فتح الباري، ابن حجر، (٨/ ٧٣٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، (٤٥٨٣).

(٣) مستفاد من: الرسول ﷺ كأنك تراه، عائض القرني.

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق، (٤٧١٩).

فكل قوله وعمله وحاله مبني على الصدق، فهو الصادق المصدوق، الذي لم يُحفَظ له حرف واحد غير صادق فيه، ولا كلمة واحدة خلاف الحق، ولم يخالف ظاهره باطنه، بل لقد كان صادقًا حتى في لحظاته ولفظاته وإشارات عينيه، وهو الذي يقول ﷺ: ((**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**))[1]، وذلك لما قال له أصحابه: ألا أشرت لنا بعينك في قتل الأسير؟!

صبر يشتكي منه الصبر.

فلا يعلم أحد مر به من المصائب والمصاعب والمشاق والأزمات كما مر به ﷺ، وهو صابر محتسب: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[النحل: ١٢٧].

صبر على اليتم والفقر، والعوز والجوع، والحاجة والتعب، والحسد والشماتة، وغلبة العدو أحيانًا، وصبر على الطرد من الوطن، والإخراج من الدار، والإبعاد عن الأهل.

وصبر على قتل القرابة، والفتك بالأصحاب، وتشريد الأتباع، وتكالب الأعداء، وتحزب الخصوم، واجتماع المحاربين، وصلف المغرضين، وكبر الجبارين، وجهل الأعراب، وجفاء البادية، ومكر اليهود، وعتو النصارى، وخبث المنافقين.

وصبر على تجهم القريب، وتكالب البعيد، وصولة الباطل، وطغيان المكذبين، صبر على الدنيا بزينتها، وزخرفها وذهبها وفضتها، فلم يتعلق منها بشيء، وصبر على إغراء الولاية، وبريق المنصب، وشهوة الرئاسة، فصدف عن ذلك كله طلبًا لمرضاة ربه، فهو ﷺ الصابر المحتسب في كل شأن من شئون حياته، فالصبر درعه وترسه، وصاحبه وحليفه، كلما أزعجه كلام أعدائه؛ تذكر: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠].

وكلما بلغ به الحال أشده والأمر أضيقه؛ تذكر: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨]، وكلما راعه هول العدو، وأقض مضجعه تخطيط الكفار؛ تذكر: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

نبع الجود والكرم.

فهو أكرم من خلق الله، وأجود البرية نفسًا ويدًا، فكفه غمامة بالخير، ويده غيث الجود، بل هو أسرع بالخير من الريح المرسلة، لا يعرف [لا] إلا في التشهد:

ما قال [لا] قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

يعطي ﷺ عطاء من لا يخشى الفقر؛ لأنه بعث بمكارم الأخلاق، فهو سيد الأجواد على

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، (٢٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٢٦٨٣).



الإطلاق، أعطى غنمًا بين جبلين، وأعطى كل رئيس قبيلة من العرب مائة ناقة، وسأله سائل ثوبه الذي يلبسه؛ فخلعه وأعطاه، وكان لا يرد طالب حاجة، قد وسع الناس بره، طعامه مبذول، وكفه مدرار، وصدره واسع، وخلقه سهل، ووجهه بسام:

تراه إذا ما جئته متهللًا   كأنك تعطيه الذي أنت سائله

الفارس المقدام.

هذا مما تناقلته الأخبار، وسار مسير الشمس في رابعة النهار، فكان أثبت الناس قلبًا، وكان كالطود لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يخاف التهديد والوعيد، ولا ترهبه المواقف والأزمات، ولا تهزه الحوادث والملمات.

فوض أمره لربه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ورضي بحكمه، واكتفى بنصره، ووثق بوعده، فكان عليه الصلاة والسلام يخوض المعارك بنفسه، ويباشر القتال بشخصه، يُعرِّض روحه للمنايا، ويُقدِّم نفسه للموت، غير هائب ولا خائف، ولم يفر من معركة قط، وما تراجع خطوة واحدة ساعة يحمي الوطيس وتقوم الحرب على ساق، وتشرع السيوف وتمتشق الرماح، وتهوي الرءوس ويدور كأس المنايا على النفوس.

فهو في تلك اللحظة أقرب أصحابه من الخطر، يحتمون أحيانًا وهو صامد مجاهد، لا يكترث بالعدو ولو كثر عدده، ولا يأبه بالخصم ولو قوي بأسه، بل كان يعدل الصفوف، ويشجع المقاتلين، ويتقدم الكتائب، وقد فر الناس يوم حنين، وما ثبت إلا هو وستة من أصحابه، ونزل: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء: ٨٤].

وكان صدره بارزًا للسيوف والرماح، يصرع الأبطال بين يديه، ويذبح الكماة أمام ناظريه، وهو باسم المحيَّا، طلق الوجه، ساكن النفس.

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضَّاح وثغرك باسم

وقد شُج ﷺ في وجهه، وكُسرت رباعيته، وقتل سبعون من أصحابه يوم أحد، فما وهن ولا ضعف ولا خار، بل كان أمضى من السيف، وبرز يوم بدر، وقاد المعركة بنفسه، وخاض غمار الموت بروحه الشريفة.

وكان أول من يَهُبُّ عند سماع المنادي، بل هو الذي سن الجهاد وحث عليه وأمر به، وتكالبت عليه الأحزاب يوم الخندق من كل مكان، وضاق الأمر، وحل الكرب، وبلغت

القلوب الحناجر، وظُنَّ بالله الظنون، وزُلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا، فقام ﷺ يصلي ويدعو، ويستغيث مولاه؛ حتى نصره ربه، ورد كيد عدوه، وأخزى خصومه، وأرسل عليهم ريحًا وجنودًا، وباءوا بالخسران والهوان، وهو القائل: ((**والذي نفسي بيده، لوددت أني أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا ثم أُقتل**))[١].

أزهد من وطئت قدماه الثرى.

كان زهده ﷺ زهد من علم فناء الدنيا، وسرعة زوالها، وقلة زادها وقصر عمرها، وبقاء الآخرة، وما أعده الله لأوليائه فيها من نعيم مقيم، وأجر عظيم، وخلود دائم؛ فرفض ﷺ الأخذ من الدنيا إلا بقدر ما يسد الرمق، ويقيم الأود، مع العلم أن الدنيا عرضت عليه، وتزينت له، وأقبلت إليه، ولو أراد جبال الدنيا أن تكون ذهبًا وفضة لكانت، لكنه آثر الزهد والكفاف، فربما بات جائعًا، ويمر الشهر لا توقد في بيته نار.

ويستمر الأيام طاويًا، لا يجد رديء التمر يسد به جوعه، وما شبع من خبز الشعير ثلاث ليالٍ متواليات، وكان ينام على الحصير حتى أثر في جنبه، وربط الحجر على بطنه من الجوع، وكان ربما عرف أصحابه أثر الجوع في وجهه عليه الصلاة والسلام.

وراودته الجبال الشُّمُّ من ذهب عن نفسه فأراها أيَّما شمم

وأخبر أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وقال ﷺ: ((... **كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**))[٢].

وجاء عنه أنه قال ﷺ: ((**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدى الناس يحبك الناس**))[٣].

وقال ﷺ: ((**مالي وللدنيا، وما للدنيا ومالي، والذي نفسي بيده، ما مثلي ومثل الدنيا؛ إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار، ثم راح وتركها**))[٤].

تواضع لله فرفعه.

كان ﷺ عجيبًا في ذلك، فتواضعه تواضع من عرف ربه مهابة، واستحيا منه، وعظَّمه وقدره حق قدره، وتطامن له، وعرف حقارة الجاه والمال والمنصب، فسافرت روحه إلى الله،

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير باب تمني الشهادة، (٢٥٨٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب، (٦٤١٦).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، (٧٩٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير، (٥٨٣٩)، واللفظ للطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٩٢٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده، (٢٦٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٥٦٦٩).

وهاجرت نفسه إلى الدار الآخرة، فما عاد يعجبه شيء مما يعجب أهل الدنيا، فصار عبدًا لربه بحق، يتواضع للمؤمنين، يقف مع العجوز، ويزور المريض، ويعطف على المسكين، ويصل البائس، ويواسي المستضعفين، ويداعب الأطفال، ويمازح الأهل، ويكلم الأمة، ويواكل الناس، ويجلس على التراب، وينام على الثرى، ويفترش الرمل، ويتوسد الحصير.

قد رضي عن ربه، فما طمع في شهرة أو منزلة، أو مطلب أَرْضيٍّ أو مقصد دنيوي، يكلِّم النساء بلطف، ويخاطب الغريب بود، ويتألف الناس، ويتبسم في وجوه أصحابه، يقول: ((**آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد**))[1]، ولما رآه رجل؛ ارتجف من هيبته، فقال: ((**هوِّن عليك، فإني لست بمَلِك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**))[2].

الحليم الأواه.

ما دام أنه رسول الله فلا بد أن يكون أحلم الناس، وأوسعهم صدرًا، وألينهم عريكة، وأدمثهم خلقًا، وألطفهم عشرة، فقد كان يكظم غيظه، ويعفو ويصفح، ويغفر لمن زل، ويتنازل عن حقوقه الخاصة، ما لم تكن حقوقًا لله تعالى، وقد عفا عمن ظلمه، وطرده من وطنه وآذاه، وسبَّه وشتمه وحاربه؛ فقال لهم يوم الفتح: ((**اذهبوا فأنتم الطلقاء**))[3].

وعفا عن ابن عمه سفيان بن الحارث يوم الفتح، لما وقف أمامه وقال له: تالله، لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

وقد واجهه الأعراب بالجفاء وسوء الأدب؛ فحلم وصفح، وقد امتثل أمر ربه في قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥].

فكان لا يكافئ على السيئة بالسيئة، بل يعفو ويصفح، وكان لا ينفذ غضبه إذا كان لنفسه، ولا ينتقم لشخصه، بل إذا غضب ازداد حلمًا، وربما تبسم في وجه من أغضبه.

بالمؤمنين رءوف رحيم.

وصفه ربه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه، (١٩٥٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٥٧١٧)، واللفظ للبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٤٤١).

(٢) رواه ابن ماجة، كتاب الأطعمة، باب القديد، (٣٣٠٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (٣٣١٢).

(٣) سيرة ابن هشام، (٢/ ٤١١).

فهو رحمة للبشرية، وورد عنه أنه قال: ((**إنما أنا رحمة مهداة**))[١]، ورأى ولد إحدى بناته تفيض روحه، فبكى، فلما سئل عن ذلك، قال: ((**هذه رحمة، يضعها الله في قلب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**))[٢].

وكان رحمة على القريب والبعيد، عزيزًا عليه أن يدخل على الناس مشقة، فكان يخفف بالناس مراعاة لأحوالهم، وربما أراد أن يطيل في الصلاة فيسمع بكاء الطفل فيخفف؛ لئلا يشق على أمه، ولما بكت أمامة ابنت زينب ابنته؛ حملها وهو يصلي بالناس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام رفعها[٣]، وسجد مرة، فصعد الحسن على ظهره، فأطال السجود، فلما سلم اعتذر للناس، وقال: ((**ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجِّله حتى يقضي حاجته**))[٤]، وقال: ((**... إذا صلَّى أحدكم للناس فليخفف، فإن منهم الصغير، والسقيم، والكبير...**))[٥]، وقال لمعاذ لما طوَّل بالناس: ((**يا معاذ، أفتَّان أنت؟**))[٦].

همة يناطحها السحاب.

ولدت همته ﷺ معه يوم وُلِد، فمنذ طفولته ونفسه مهاجرة إلى معالي الأمور، ومكارم الخلق، لا يرضى بالدون، ولا يهوى السفاسف، بل هو الطَّموح، والسبَّاق المتفرد.

ولقد ذكر أهل السير أنه ﷺ وهو طفل، كان لجده عبد المطلب فراش في ظل الكعبة، لا يجلس عليه إلا هو لمنزلته، فجاء محمد ﷺ، فنازع الخدم حتى جلس عليه، وأبى أن يجلس دونه.

وكان فيه قبل النبوة من سمات الريادة والزعامة والقيادة ما جعل قريش يسمونه الصادق الأمين، ويرضون حكمه ويعودون إليه في أمورهم، فلما منَّ الله عليه بالبعثة، تاقت نفسه إلى الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة فسأل الله إياها، وعلَّمنا أن نسألها له من ربه، بلغ سدرة المنتهى، وحاز الكمال البشري، والفضيلة الإنسانية، ومن علو همته: رفضه للدنيا، وعدم الوقوف مع مطالبها الزهيدة من الولاية والمناصب، والدور والقصور.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (٩٩)، والطبراني في المعجم الأوسط، (٣٠٩٨)، واللفظ للحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٢٣٤٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾، (٦١٦٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة، (٤٨٦).

(٤) رواه النسائي، كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، (١١٢٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (١١٤١).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء، (٦٦٢).

(٦) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، (٦٦٤).

دموع النبوة.

سيد الخاشعين لرب العالمين، وإمام الخائفين من مالك يوم الدين، هو خاتم المرسلين ﷺ، فقد كان نديَّ الجفن، سريع العَبْرة، سخيَّ الدمع، رقيق القلب، جياش العاطفة، تنطلق دمعته في صدق وطهر، ويسمع نشيجه في قنوت وإخبات.

يترك بكاؤه في قلوب أصحابه آثارًا من التربية والاقتداء والصلاح، ما لا تتركه الخطب البليغة والمواعظ المؤثرة، فهو يبكي ﷺ عند تلاوة القرآن، فقد قام ليلة من الليالي يكرر قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨]، فيبكي غالب ليله.

وهو يبكي عند سماع القرآن، فقد صح عنه ﷺ أنه قال لابن مسعود ﷺ: ((اقرأ عليَّ))، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: ((**فإني أحب أن أسمعه من غيري**))، فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]، قال: ((**أمسك**))، فإذا عيناه تذرفان[1].

وعن مطرف عن أبيه ﷺ: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل)، يعني يبكي[2]، ويحضر ﷺ جنازة ابنته زينب، ويجلس على القبر، وتذرف عيناه من هول المنظر، وتذكر العاقبة والتفكير في ذلك المصير، وأصحابه يشاهدون هذا المشهد المؤثر المعبر منه ﷺ.

فكان بكاؤه ﷺ أجلَّ وأفضل البكاء، وهو ما دل على رسوخ يقين، وعظمة خوف، وشدة رهبة من الجليل، وصدق معرفة بربه العظيم، فأعماله ﷺ كلها في أرقى مقامات الأعمال، وأسمى غايات الأحوال.

بسام المحيَّا.

وكان رسولنا ﷺ مع أهله إذا دخل عليهم ضحاكًا بسامًا، يمازح زوجاته، ويلاطفهن، ويؤنسهن، ويحادثهن حديث الود والحب، والحنان والعطف؛ لأنه بعث رحمة للعالمين، وأحق الناس بهذه الرحمة؛ أهله وقرابته وأحبابه وأصحابه.

وكانت تعلو محياه الطاهر البسمة المشرقة الموحية، فإذا قابل بها الناس؛ أسر قلوبهم أسرًا، فمالت نفوسهم بالكلية إليه، وتهافتت أرواحهم عليه، يبتسم عن مثل البرد في وجه أبهى من الشمس، وجبين أزهى من البدر، وفم أطهر من الأقحوان، وخلق أندى من الرياض، وود أرق من النسيم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾، (٤٢١٦).

(٢) رواه النسائي، كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة، (١١٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (١٢١٤).

يمزح ولا يقول إلا حقًّا، فيكون مزحه على أرواح أصحابه أهنى من قطرات الماء على كبد الصادي[١]، وألطف من يد الوالد الحاني على رأس ابنه الوديع، يمازحهم فتنشط أرواحهم، وتنشرح صدورهم، وتنطلق أسارير وجوههم، فلا والله، ما يريدون الدنيا كلها في جلسة واحدة من جلساته، ولا والله، لا يرغبون في القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في كلمة حانية وادعة مشرقة من كلماته.

يقول جرير بن عبد الله البجلي ﷺ: (ما حجَبَني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي)[٢]، وجرير يفتخر بهذا العطاء، ويعلن هذا السخاء، فهذه البسمة الوارفة الدافئة الصادقة أجل عند جرير من كل الذكريات، وأسمى من كل الأمنيات.

وقد ورد أنه مازح بعض أصحابه، فقال له: أريد أن تحملني يا رسول الله على جمل، قال: ((**لا أجد لك إلا ولد الناقة**))، فولى الرجل فدعاه، وقال: ((**وهل تلد الإبل إلا النوق؟**))[٣]، أي: أن الجمل أصلًا ولد ناقة.

وورد أيضًا أن عجوزًا أتته ﷺ تطلب منه أن يدعو لها بدخول الجنة، فقال: ((**يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز**))، فولت تبكي، فقال: ((**أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول:** ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الواقعة: ٣٥-٣٧]))[٤].

إنه يحبك فهل تحبه؟

هل تُصدِّق أيضًا أن رسول الله ﷺ يحبك؟ بل دلائل حبه لك كالشمس الساطعة، فتأمل فيها معنا، حتى تسكب حب الحبيب في قلبك سكبًا:

إنه يشتاق إليك.

قال ﷺ: ((**... وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد...**))[٥]، أخي، رسول الله يشتاق إليك فهل تبادله الشوق؟!

يبكي من أجلك.

تلا النبي ﷺ قول الله ﷻ في إبراهيم ﵇: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٦]، وقول عيسى ﵇: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ

(١) الصدى: شدة العطش.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من لا يثبت على الخيل، (٢٨٠٩).

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، (١٩١٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (١٩٩١).

(٤) رواه الترمذي في الشمائل المحمدية، باب في صفة مزاح رسول الله ﷺ، (٢٣٨)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل، (٢٠٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة، (٣٦٧).

﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨].

فرفع يديه وقال: ((**اللهم أمتي أمتي**))، وبكى، فقال الله ﷻ: ((**يا جبريل، اذهب إلى محمد، فسله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل** عليه السلام **فسأله؛ فأخبره رسول الله** ﷺ **بما قال، فأخبر جبريل ربه - وهو أعلم - فقال الله** ﷻ: **يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك**))[١].

ادخر دعوته لك.

وبشرنا جميعًا فقال ﷺ: ((**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**))[٢].

وأقبل رسول الله ﷺ ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع فيه ركعتين، ودعا ربه طويلًا، ثم انصرف إلى صحابته فقال ﷺ: ((**سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**))[٣].

جذع يحن وأنت ما تحن؟

لما فقده الجذع الذي كان يخطب عليه قبل اتخاذ المنبر حنَّ إليه، وصاح كما يصيح الصبي، فنزل إليه ﷺ فاعتنقه، فجعل يهذي، كما يهذي الصبي الذي يسكن عند بكائه، فقال ﷺ: ((**لو لم أحتضنه؛ لَحَنَّ إلى يوم القيامة**))[٤]، كان الحسن البصري رحمه الله إذا حدَّث بهذا الحديث بكى، وقال: (هذه خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه)[٥].

قلوب تحب الحبيب

إنها تلك القلوب الندية التي عُمرت بحب الله ورسوله ﷺ؛ فكان محمد ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، ووالديهم، وأبنائهم، وأموالهم، والناس أجمعين، قلوب لم تعرف غيره لها إمامًا وقائدًا، سارت على خطاه في الدنيا، حتى تنال جزاء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، (٣٠١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوته، (٢٩٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة، (٥١٤٥).

(٤) رواه ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في بدء شأن المنبر، (١٤٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (١٤١٥).

(٥) الوفا بتعريف فضائل المصطفى، ابن الجوزي، ص(٢١٨).

ثاني اثنين.

وإليك هذه المشاعر التي يبثها قلب الصديق ﷺ في كلمات تقرأ، يقول سيدنا أبو بكر ﷺ: كنا في الهجرة وأنا عَطِش عَطِش، فجئت بمذقة لبن، فناولتها للرسول ﷺ، وقلت له: اشرب يا رسول الله، يقول أبو بكر: فشرب النبي ﷺ حتى ارتويت(١).

لا تُكذِّب عينيك، فالكلمة صحيحة ومقصودة، فهكذا قالها أبو بكر الصديق، هل ذقت جمال هذا الحب؟ إنه حب من نوع خاص، أين نحن من هذا الحب؟!

عمر يتم المحبة.

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: (كنت مع النبي ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي [وانظر إلى صدقه مع نفسه، ومع النبي ﷺ]، فقال النبي ﷺ: ((**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**))، فقال له عمر: فالآن يا رسول الله، والله، لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: ((**الآن يا عمر**))(٢).

ثوبان وخوف المحبين.

كان ثوبان مولى رسول الله ﷺ شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له رسول الله ﷺ: ((**يا ثوبان، ما غيَّر لونك؟**))، فقال: يا رسول الله، ما بي من مرض ولا وجع، غير أني إذا لم أرك؛ اشتقت إليك، فاستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف ألا أراك هنالك؛ لأني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك حين لا أراك أبدًا، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩](٣).

آخر عهد سواد ﷺ.

سواد بن عزية ﷺ، يوم غزوة أحد، يقف في وسط الجيش، فقال النبي ﷺ للجيش: ((**استووا، استقيموا**))، فينظر النبي ﷺ فيرى سوادًا ﷺ لم ينضبط، فقال النبي ﷺ: ((**استو يا سواد**))، فقال سواد: نعم يا رسول الله، ووقف، ولكنه لم ينضبط.

---

(١) أصل القصة في صحيح البخاري، كتاب اللقطة، باب من عرف اللقطة ولم يدفعها إلى السلطان، (٢٢٥٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان، باب كيف كان يمين النبي ﷺ، (٦١٤٢).

(٣) تاريخ دمشق، ابن عساكر، (١١/ ١٧٤)، وصححه الألباني في فقه السيرة، ص(١٩٩).



فجاء النبي ﷺ بسواكه، ونغز سوادًا في بطنه، قال: ((**استو يا سواد**))، فقال سواد ﷺ: أوجعتني يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق، فأقدني.

فكشف النبي ﷺ عن بطنه الشريفة، وقال: ((**اقتص يا سواد**))، فانكب سواد على بطن النبي ﷺ يقبلها، يقول: هذا ما أردت، وقال: يا رسول الله، أظن أن هذا اليوم يوم شهادة، فأحببت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك(١)، ما رأيك في هذا الحب؟!

بلال يلقى الأحبة.

لما احتضر بلال ﷺ قالت زوجته: واحزناه، فكشف الغطاء عن وجهه وهو في السكرات، وقال: (لا تقولي: واحزناه، وقولي: وافرحاه)، ثم قال: (غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه)(٢).

ولما قدم عمر الشام، سأله المسلمون أن يسأل بلالًا يؤذن لهم، فسأله فأذن يومًا، فلما وصل إلى قوله: (أشهد أن محمدًا رسول الله) لم يستطع أن يكملها من كثرة البكاء، فلما سمعه الناس ضجَّت المدينة كلها بالبكاء، فلم ير يومًا كان أكثر باكيًا من يومئذٍ، ذكرًا منهم للنبي ﷺ(٣).

زيد واختبار المحبة.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة ﷺ من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك، نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال زيد ﷺ: والله، ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا، كحب أصحاب محمد محمدًا(٤).

سعد والوصية الأخيرة.

وفي يوم أحد أيضًا قال النبي ﷺ: ((**من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟**))، فقال رجل من الأنصار: أنا، فخرج يطوف في القتلى، حتى وجد سعدًا جريحًا، مثبتًا لا يتحرك، بآخر رمق، فقال: يا سعد، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم من الأموات؟ قال: فإني في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ السلام، وقل: إن سعدًا يقول: جزاك الله عني خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف(٥).

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، (٣/ ٣٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١/ ٣٥٩).

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١/ ٣٥٧).

(٤) سيرة ابن هشام، (٢/ ١٧٢).

(٥) سيرة ابن هشام، (٢/ ٩٤).

واجبنا تجاه الحبيب

محبته أكثر من النفس والمال والأهل والولد.

بل ومن جميع الأنداد الثمانية، التي قد تقف حجر عثرة أمام المسافر إلى ربه، في طريق حب الله ورسوله ﷺ، لذا وضع الله تعالى كل متعلقات القلوب، وكل مطامع النفوس في كفة، وحب الله وحب رسوله في كفة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال القاضي عياض رحمه الله: (فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا، ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ثم فسّقهم بتمام الآية، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله)[(١)].

ويأتينا دليل عظيم وبليغ في قول الحق ﷻ: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

ويقول النبي ﷺ: ((**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**))[(٢)].

بل إن جائزة وجدان حلاوة الإيمان لا يعطيها الله تعالى إلا لمن بلغ تلك الدرجة العالية من محبة النبي ﷺ: ((**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**))[(٣)].

وها هو ﷺ يشهد بنفسه على صدق محبة من كان على تلك الشاكلة له، فيقول: ((**من أشد أمتي لي حبًا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**))[(٤)].

فمحبته ينبغي أن تكون أعظم من محبة نفسك التي بين جنبيك، وأنفاسك التي تتردد، وقلبك الذي يخفق، فضلًا عن محبة الزوج والأبناء، أو الأمهات والآباء، إنها أعظم محبة لمخلوق

---

(١) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، القاضي عياض، (٢/ ٥٦٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب رسول الله ﷺ من الإيمان، (١٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (٦٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ، (٥٠٦٠).

في العالمين، وهي التي استحقها سيد الخلق ﷺ، ووجبت له على كل مؤمن بالله سبحانه.

لا تكن بخيلًا.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما حن مشتاق إلى لقياكَ
وعليك ملء الأرض من صلواتنا وقلوبنا ذابت على ذكراك

فالصلاة على محمد ﷺ جلاء الأبصار، ونور البصائر، وبهجة القلوب وراحة الأرواح، وقرة العيون، ومسك المجالس، وطيب الحياة، وزكاة العمر، وجمال الأيام، وذهاب الهموم، وطرد الأحزان، وهي الجالبة للسرور، وانشراح الصدور، وتكامل الحبور وتعاظم النور، بها يطيب السمر، ويحلو الحديث، ويحل الأنس، وتحصل البركة، وتنزل السكينة، وهي علامة الحب، وشاهد المتابعة، وبرهان الموالاة، ودليل الصلاح، وطريق الفلاح، يقول ﷺ: ((**من صلَّى عليَّ صلاة واحدة؛ صلى الله عليه عشر صلوات، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات**))(١).

وقال: ((**رغم أنف رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ...**))(٢)، وقال ﷺ: ((**إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغونني من أمتي السلام**))(٣).

ولما قال أُبيُّ بن كعب ﷺ: سوف أجعل لك صلاتي كلها [أي دعائي]؛ قال: ((**إذًا تُكفى همك، ويُغفر لك ذنبك**))(٤).

فيُصَلَّي عليه ﷺ في التشهد الأول والثاني، وعند ذكره، وفي خطبة الجمعة، والعيد، والاستسقاء، وفي خطبة النكاح، وفي مجلس العلم والمواعظ، والكتب والرسائل، والمعاهدات، والصكوك، وعند لقاء الأحباب، وعند الوداع، وفي الدعاء، وأذكار الصباح والمساء.

وعند نزول الهموم، وترادف الغموم، وفقد الأغراض، وتزاحم الكرب، وحدوث المصائب، ووصول المبشرات، وعند تأليف الكتب، وشرح حديثه، وكتابة سيرته، وذكر أخباره وقصصه.

فصلى الله عليه وسلم ما زهر فاح، وبلبل صاح، وسر باح، وحمام ناح، وصلى الله عليه

---

(١) رواه النسائي، كتاب السهو، باب فضل الصلاة على النبي ﷺ، (١٢٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (١٢٩٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: رغم أنف رجل، (٣٤٢٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣٥٤٥).

(٣) رواه النسائي، كتاب السهو، باب السلام على النبي ﷺ، (١٢٦٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، (١٢٨٢).

(٤) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، (٢٣٨١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢٤٥٧).

وسلم ما نسيم تدفق، وما دمع ترقرق، وما وجه أشرق، وصلى الله عليه وسلم ما اختلف الليل والنهار، وهطلت الأمطار، ودنت الثمار، واهتزت الأشجار.

وصلى الله عليه وسلم ما بدت النجوم، وتلبدت الغيوم، وانقشعت الهموم، وتُليت الأخبار والعلوم، وعلى آله الطيبين الأبرار، وأصحابه الأخيار، من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم واقتفى الآثار.

صلى عليه إلهه وخليله ما دامت الغبراء والخضراء

أدب واحتشام مع نبي الإسلام.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الحجرات: ٢].

فالأدب معه ﷺ شريعة، يثاب فاعلها، ويعاقب تاركها، ويكون الأدب مع شخصه الكريم بإجلاله وإعزازه، وتوقيره وتقديره واحترامه، وإنزاله المنزلة التي أنزله الله إياها، بلا غلو ولا جفاء، وعدم الاعتراض عليه ﷺ، أو مناقضة أقواله بأقوال غيره من الناس، أو تقديم قول كائن من البشر - مهما كان - على قوله، أو أخذ حديثه على أنه كلام يصيب ويخطئ، بل هو كلام نبي معصوم.

أو التعرض لصفة من صفاته بجفاء، أو رد قوله بعد التأكد من صحة نسبته إليه، أو الشك في بعض قضاياه وأحكامه، أو مقارنته بالقادة والزعماء والملوك، فقد رفع الله قدره على الجميع، وأعلى منزلته على الكل.

بل يحرم كل ما فهم منه الجفاء والتنقص والاعتراض عليه ﷺ، والواجب على كل من رضي به رسولًا واتَّبعه وآمن به - حُبُّه حبًّا صادقًا أعظم من حب النفس، والولد، والوالد، والناس أجمعين، وتصديق ما أخبر به، وامتثال ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، والاهتداء بهداه، والاقتداء بسنته، والرضا بحكمه، والحرص على متابعته، وتوقير حديثه.

والصلاة والسلام عليه إذا ذكر ﷺ، وعدم رفع الصوت عند ذكره وذكر حديثه، وعدم الضحك وقت تلاوة أخباره وكلامه وآثاره، والخشوع عند ذكر شيء من سنته، والتأدب عند الاستشهاد بقوله، والتسليم عند أمره ونهيه، والإيمان بمعجزاته، والذب عن جنابه الشريف، وأهل بيته وأصحابه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فعلى المحب الصادق أن يفعل فعل أصحاب محمد ﷺ في التأدب معه، فمنهم من كان لا

يتكلم عنده إلا بصوت خافض خاشع، وكان إذا تحدث كأن على رءوسهم الطير، ومنهم من جلس في الطريق خارج المسجد، لما سمعه يقول من داخل المسجد: ((اجلسوا))[1]، ومنهم من لا يكلم ابنه حتى مات، لأنه عارض حديث الرسول ﷺ[2].

طاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**))[3].

فعلامة المحبة أن تطيع أمره وتجتنب نهيه، والآن يا حبيبي في الله، أجرِ اختبارًا سريعًا، لتعرف مقدار حبك لرسول الله ﷺ.

- أمرك حبيبك بأن تغض بصرك عن كل ما حرم الله، فهل نفذت ما أمرك به حبيبك أيها المحب؟
- أمركِ أيتها المحبة بالحجاب، فهل ارتديتيه؟
- أمرك بترك الغيبة والنميمة، فهل تركتها؟
- أمرك ببر الوالدين، وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، فهل أديت هذه الحقوق؟
- أمرك بصلاة الفجر، فهل تؤديها في وقتها ؟

الغيرة على دينه، وعرضه وسنته.

إن أي محب يغار على محبوبه وله؛ فينبغي أيها المحب لله ولرسوله ﷺ، أن تغار إذا انتهكت حرمات الله، انظر إلى اليهود حين استولوا على القدس في عام (١٩٦٧م) عبروا عن فرحهم، وخرجوا في مظاهرات عارمة، وصاحوا قائلين: (محمد مات، خلف بنات).

إنه الاعتقاد السائد لدى الغربيين عنا نحن المسلمين، أن رجال هذه الأمة قد ماتت في قلوبهم الغيرة على رسول الله ﷺ، ودينه وشريعته، وما فعلوه بعد ذلك من محاولات السب والتجريح، وإطلاق الرسوم الساخرة من نبينا ﷺ أكبر دليل على ذلك.

إن هذه الكلمات، وتلك الأفعال ينبغي أن تفجر في قلب كل محب لهذا الرسول الأمين

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الإمام يكلم الرجل في خطبته، (٩٢٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (١٠٩١).

(٢) هو ابن عمر حين عارض ابنه قوله ﷺ: ((إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها)).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ، (٦٧٣٧).

ﷺ نار الغيرة عليه، وعلى دينه وسنته، ليقوم ويصرخ في وجه الدنيا بأسرها: محمد لم يمت، بل خلف وراءه رجالًا ونساء يحملون هم هذا الدين، ويضحُّون من أجله بالغالي والنفيس، ولكن مجرد صرختك لن تصل إلى هؤلاء، وإنما يصل إليهم فعلك، الذي نريده أن يتمثل في ثلاث نقاط محددة؛ حتى يكون له أبلغ الأثر في ردع أمثال هؤلاء:

- إصلاح حالك مع الله، والثبات على دينه، والتمسك بسنة الحبيب ﷺ.
- أن تدل غيرك على الخير الذي هداك الله تعالى له، بكتيب أو شريط، بكلمة طيبة، أو بنصيحة صادقة.
- أن تعمل من أجل النبوغ والتفوق في مجال من مجالات النهضة، بحيث تكون رائدًا فيه، تصنع الحياة من خلاله، تحت راية لا إله إلا الله، حتى ننتشل أمتنا بسواعدنا من حضيض التخلف الذي تعيشه الآن؛ إلى آفاق العزة والنهضة والحضارة التي أرادها الله تعالى لهذه الأمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

مطالعة أخباره ودراسة سيرته.

فإن من يحب أحدًا يريد أن يعرف عنه كل شيء، فماذا تعرف أنت عن حبيبك محمد ﷺ؟ ولئن احتفى التافهون بسير اللاعبين واللاعبات، والراقصين والراقصات، أفلا تحتفي أنت بسيرة رسول رب الأرض والسماوات؟! إن استنشاق شذى سيرة سيد المرسلين، سبيل عظيم لتربية النفوس وتهذيبها، وفق منهج هذا الدين، فقد كان ﷺ إسلامًا يمشي على الأرض، في أروع وأجل وأرقى صورة يمكن أن تجد عليها بشرًا.

لو طالعت سيرته؛ لرأيت العظمة مجسدة في إنسان، لوجدت الرحمة والرأفة، والقوة والبأس، تمشي على قدمين، إنها الشخصية الوحيدة التي خلقها الله جل وعلا، وتجسدت فيها كل معاني القدوة الحسنة لكل البشر، في كل جانب من جوانب هذه الإنسانية.

فهو أب وابن، زوج ورفيق، أخ وصديق، قائد ورئيس، عابد وزاهد، مجاهد ومقاتل، مربٍ ومعلم، داعية وخطيب، عالم وفقيه، إنها شخصية تحوي بين طياتها شخصيات، وقدوة تطوي بين جنباتها قدوات، فصلى الله على تلك المعجزة البشرية، التي لا يقدر على صنعها إلا الذي يعلم حيث يجعل رسالته.



تزود قبل الرحيل

على المسافر الحريص ألا يغادر هذه المحطة قبل أن يتزود منها بزاد:

(١) الصلاة على النبي ﷺ: عشرًا صباحًا، وعشرًا مساء، فإنه ﷺ يقول: ((**من صلى عليَّ حين يصبح عشرًا، وحين يمسي عشرًا، أدركته شفاعتي يوم القيامة**))[١].

(٢) مطالعة كتاب في سيرة النبي ﷺ: ونرشح لك كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للشيخ الخضري رحمه الله، فإنه كتاب سهل المأخذ، خفيف المحمل، رائق الأسلوب.

(٣) حصر ما تعلمته من سنن النبي ﷺ؛ للعمل على تطبيقها هذا الأسبوع.

(٤) عمل إيجابي لنصرة النبي ﷺ: كتعليق ملصق في مدخل عمارتك عن سيرته، أو توزيع نسخ من شريط يتكلم في سيرته أو محبته، أو مطوية أو رسالة في ذلك.



---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، (٤/ ٣٩٢)، والمتقي الهندي في كنز العمال، (٢١٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (٦٣٥٧).

فراق إلى لقاء

أيها المسافر إلى ربه، الآن الآن قد نفد ما في جعبتي من سهام الإيمان، وأراها قد أصابت بفضل الله من قلبك الشغاف، لكأني بك الآن يا رفيق الدرب، قد غدوت إنسانًا آخر؛ بعد أن هزت كلمات الله ورسوله ﷺ ما في قلبك من إيمان، لكأني برجفة الخشية من الجليل قد خالجت أركان فؤادك، وبلهفة الرجاء في رحمته قد لامست أوتار قلبك، وبندى محبة الله ورسوله قد بلل جوانب روحك، فكيف لا تكون إنسانًا آخر؟

بل إنك الآن فقط يا صاحبي قد أصبحت إنسانًا حيًّا؛ فوالله إن العيش في بعد عن حياة الإيمان؛ ما هو بحياة، ففرق بعيد ـ أيها الحبيب ـ بين من يعيش في هذه الدنيا، وهو يعرف غايته، ويدرك رسالته، فيعلم أنه ما خلق فيها للبقاء، بل إنه فيها مستخلف ممتحن من ربه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فلا بد إذًا أن يعيش في الدنيا، على مراد ربه منه، لا على مراد نفسه وشهواتها، وحينئذٍ؛ يتم له ما يرجو ويتمنى من سعادة الدارين، فيقبض أجره من ربه في الدنيا، سكينة وطمأنينة في القلب، وسعادة وهناءة في النفس، مع تمتع بما أحل الله من زينة الدنيا والطيبات من الرزق، وتحقيق للنجاح والإنجاز بعون من ربه، ثم في الآخرة، مع المتقين في جنات ونهر، في مقعد الصدق عند المليك المقتدر.

ففرق أي فرق بين من هذا حاله، وبين الذي لا زال يتخبط في ظلمات التيه، قد حرم من نور الإيمان، وتاهت نفسه في أودية الشهوات، فمن حيرة إلى تردد، ومن شقاوة إلى حرمان، هم بالليل، وتعاسة بالنهار، تتخللها لحظات من اللذة الكاذبة، والسعادة الوهمية، ما إن تنقضي حتى يود صاحبها لو يغيب عن وعيه؛ فرارًا من وحشة القلب، وجوعة الروح، بعد أن حرم نفسه من نعيم القرب من ربه، ثم في الآخرة شقاء وخسار في دار البوار، في جحيم لا ينفذ، وعذاب لا ينتهي، ألا ذلك هو الخسران المبين.

أما أنت أيها الحبيب، يا من آثرت الله على ما سواه، يا من عرفت الطريق إلى ربك، وسلكته قاصدًا الوصول إليه، فأبشر والله بالإعانة من الرحيم الرحمن، فإنه الآن يحبك، ولن يخزيك أبدًا، سيعينك ويحميك، سيرقيك ويربيك، طالما قلبك يحبه، طالما لسانك يذكره، طالما أنك تريده.

وأنا يا حبيبي معك، صاحب لك على الطريق، ورفيق لك على الدرب، لأني والله أحبك، وأرجو من الله إن لم يجمعني بك في الدنيا أن أراك في دار النعيم، نتعانق في ظلال حب ربنا، ولئن لم نلتق في



هذه الأرض يومًا، فإن موعدنا غدًا في دار خلد، بها يحيا المؤمنون، إخوانًا على سرر متقابلين.

ولقد قطعنا سويًّا إلى الله مرحلة، بفضله ورحمته، ولكن دون الوصول إلى نهاية الطريق مراحل أُخَر، ولعلِّي ألقاك في المرحلة الثانية قريبًا إن أحياني الله وأحياك[1]، ولا يسعني الآن إلا أن أدعو لك دعوة من القلب صادقة، بأن يكلأك الرحمن بحفظه، وأن يتولَّاك برعايته، مرددًا خلف شاعر مسلم، يدعو لك ويصفك بعد أن هز الإيمان قلبك فيقول:

رحم الله فتى هذب الدين شبابه
ومضى يزجي إلى العلياء في عزم ركابه
مخبتًا لله صير الزاد كتابه
واردًا من منهل الهادي ومن نبع الصحابة
إن طلبت الجود منه فهو دومًا كالسحابة
أو نشدت العزم فيه فهو ضرغام بغابة
جاذبته النفس للشر فلم يبد استجابة
متق لله تعلو من يلاقيه المهابة
رق منه القلب لكن زاد في الدين صلابة
بلسم للأرض يمحو عن محياها الكآبة
ثابت الخطو فلم تطف الأعاصير شهابه
جربته صولة الدهر فألفت ذا نجابة
إن يقم يومًا خطيبًا يسمع الصم خطابه
أو يسر في الدرب يومًا أبصر الأعمى جنابه
مسلم يكفيه فخرًا أن للدين انتسابه

وإلى أن ألقاك في المرحلة القادمة، على الطريق إلى الله تعالى، فلا تنسني يا أخي من صالح دعائك، وأستودع الله دينك، وأمانتك... وهزة إيمانك

رفيقك على الطريق
فريد أبو زهراء
Faridabuzahraa@hotmail.com



(١) صدر بفضل الله وكرمه الجزء الثاني من سلسلة الطريق إلى الله؛ وهو بعنوان: حياة النور، للمؤلف.

الفهرس